

## مقدمة

قلبت ببصرى فى عشرات الأسئلة المعروضة على\* ثم قلت لصاحبى\* : إتنى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، وأحسبني أجبت عنها إجابة شافية . !

قال : لا تستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى أسئلة محددة توجه إليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد أضاء الحق لبه وقلبه!! وترى قليلاً ثم قلت لنفسى : إن هذا العلم خزان ، لعل الأسئلة تكون مفاتيحه! وما يدرينى؟ لعل الله يؤتيني الرشد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، أو أمحو حيرة ، أو أطفئ فتنة ، أو أثبت حقاً يعصف من حوله الباطل . . . وقررت أن أجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .

ولما شرعت أكتب ، وجدت أنى قلما أكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، أو أداء - أخضر وأيسر ، أو ترتيب لأدلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، أو مزاجية بين التراث القديم والعقل الحديث . فإذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر إن شاء الله مع هذه الفوائد الجمّة اللاحقة .

إن اللوم يتجه إلينا - نحن دعاة الإسلام - لأننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقنع أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته! وبعضنا قد يحيا متخلفاً عن عصره ألف سنة . يخاصم فرقاً بادت ، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوها عنها جداً ولا هزلاً . . . والإسلام لا يخدم بهذا الأسلوب .

وحين نظرت فى الأسئلة المطروحة على أدركت أنها وضعت بحكمة وسيقت إلى هدف ، وأن الإجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الإسلامية ، وتجلو غباراً كثيراً

• الأستاذ خالد محمد خالد •

10:

WWW.AL-MOSTAFA.COM

عن حقائق الرسالة الخالدة . إن الإسلام دين عظيم حقاً ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا إلى مستواه ، إلا من عصم الله . . . وكان لذلك أثره في مسيرة الدعوة ، وإيضاح معالمها . ! . ومصائبنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمي دءوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله الملهده ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السمع والجدال الحسن .

وإنها لفجيرة أن يسبق إلحاد أعرج ، ويتأخر هدى مستقيم لا لشيء إلا لأن حملة هذا الهدى كسالى ، ومفرطون !  
أعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لأخط حرفاً ، فقد حاصرتنى متاعب كثيرة ، وأملئ أن أكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الفزالي

## ١. ما الإسلام؟ ولماذا سمي كذلك؟

الإسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والأمر إليه سبحانه أى إقامة العلاقة بين الإنسان وربه على مبدأ «السمع والطاعة»!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لأحد فى الأرض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . وقد يقبل هذا الشعور فى تحديد العلاقة بين إنسان وإنسان مثله ، أما بين الإنسان وربه الذى خلقه بقدرته ، ورياه بنعمته ، ورسم له طريقاً مستقيماً وأمره أن يسير عليه . . فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

إذ الواجب أن يجعل الإنسان نفسه تابعاً لمراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها . . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الرُّثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق؟ بين موجود سيقضى على ظهر الأرض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ، ثم يرجع بعد ذلك إلى من أوجده؟ أن تكون علاقة تجاهل أم معرفة؟ أن تكون علاقة غمرد أم خضوع؟

إنه طبيعى جداً أن يعرف الإنسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هديه ، وهذا هو معنى الإسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٢) .

والمرء إذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه ، وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه . يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهانف بمجده ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

ويخطئ من يظن الإسلام عنواناً خاصاً بالدين الذى جاء به «محمد» منذ خمسة عشر قرناً ، إن الإسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا .

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) آل عمران : ١٩ .

(٣) لقمان : ٢٢ .

صحيح أن حقيقة الإسلام بلغت تمامها ، وأخذت صورتها الأخيرة في رسالة محمد ﷺ ، بيد أن هذا العنوان أطلقه لقرآن الكريم على ما بلغه أنبياء الله كلهم دون استثناء .

إن إسرائيل - وهو لقب التشريف ليعقوب - ليس إلا نبيا دعا إلى الإسلام وتثبت به ومات عليه وأوصى به أولاده ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

والواقع أن الدولة التي تسمى اليوم بإسرائيل هي اسم بلا مسمى ، وعلم على وهم كبير ، لأن إسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلم أتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته ، وتأمل في هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

ويشمل وصف الإسلام جميع الأنبياء الذين نفذوا الأحكام السماوية بدءاً من عهد التوراة إلى اليوم . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ... ﴾ (٣)

ولا يصح الإسلام إلا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الألوهية بأمجادها كلها ، فلا يعد مسلماً من أشرك بالله شيئاً ، أو نسب لله ولداً ، أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالة في الكون الذي نعيش فيه . لا بد من العلم الصحيح بالله . . . . . ويحىء من بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره .

وفى القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله ، والثناء عليه ، وإحصاء لأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وإبراز لمعالم العظمة الإلهية لا مثيل له في كتاب قديم أو حديث سماوى أو أرضى .

(١) البقرة : ١٣٣ . (٢) المائدة : ١١١ . (٣) المائدة : ٤٤ .

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشهود الإلهي على كل شيء ، والهيمنة المطلقة ، ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (١)

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شيء ودبر كل أمر ، ومملك السمع والأبصار ، وقلب الليل والنهار ، وأرسل الرياح لواقع ، وفرج الكروب ، وأخرج الحيارى من الظلمات إلى النور ، وفى القرآن الكريم إنكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابناً ، أو يجعل له بعباده شبهاً ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَبْحَأُهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿ (٣)

وبعد إثبات هذه الحقيقة في صحة المعرفة بالله تعالى الحقيقة الأخرى . . . . . وأساسها الانقياد التام لله ، والاصطباغ بطاعته .

ولا يجتمع إسلام لله وتمرد عليه ، أو خضوع له ورفض لأمره!! فهل معنى ذلك أن المسلم لا يتورط في معصية؟ الحق أن المسلم إذا عرض له عصيان كان ذلك طارئاً غير محسوب ، أو عملاً انزلق إليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره ، ومن ثم فهو يتخلص منه أسفاً ونادماً وخجلاً . . .!! وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء في سيئة ما ، كالذى يقود سيارته أيباً إلى بيته فتغفو عينه إغفاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

إن نور العقل قد ينكسف ، وطاقة العزيمة قد تنفد ، وعندئذ يقترب المرء مالا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الإسلام ﴿ إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٤) ولذلك رفض النبي ﷺ استنزال اللعنة على شارب خمر أو هون الإدمان إرادته ومروءته . إن هذا الشارب يمثل نوعاً من العصيان أو حالة من الاضطراب غير ما يقع في مجتمع آخر يزرع العنب وبعد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم توزيع الإثم ، ويفرض ضرائب على المتاجرة به . .

(١) الكهف : ٢٦ . (٢) يونس : ٦٨ ، ٦٩ . (٣) الأعراف : ٢٠١ .

الفارق بعيد بين مستبجح لا يرى لله حقاً ، ولا يحس في عمله جرماً ومعتل خارت قواه فسقط ، الأول مجرم لا مسلم والآخر مريض تلتئم له العافية ، وبحسب بين أهل الإسلام .

وقد استطاع نبي الإسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر إلى غسق الليل ، وتردد على المساجد في رتبة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات .

كما أن هذه الأمة التزمت في شئونها المدنية والعسكرية والثقافية والسياسية أن ترضى ربها ، وأن تتوجه وفق مراده ، بحرص وإخلاص .

قدوتها الأولى والأخيرة إنسان تجرد للحق وأصاخ من أقاصى فؤاده إلى أمر الله ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٦) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١) .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) ... إن خضوع الإنسانية لبارئها الأعلى صدى وشرف ، وهذا هو الإسلام .



## ٢. لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟

الإسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بدأت الخليقة ، وتكونت للبشر مجتمعات ، ونستطيع القول إن القرآن حوى جملة التعاليم التي بلغها الأنبياء الكبار - أعنى أولى العزم وحملة الرسالات المهمة - فلو كان موسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن في ترسيخ العقائد وتأديب الأمم .

أما الشرائع الجزئية فإن التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والإسلام الذي بلغه محمد وأخذ الناس به هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى ، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق الأجناس كلها وتتناول الأجيال التي تسكن الأرض حتى قيام الساعة . . النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة أى محدودة الزمان والمكان ، أما النبوة العامة الخالدة - فهي نبوة محمد وحده لا يشركه في ذلك نبي من السابقين .

وعلة ذلك أن الإسلام بعد ما زود الإنسان بالوصايا الأخيرة للوحي الإلهي وكل إلى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ، ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة . . فانتهاه عصر الوحي هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل في كتابنا «فقه السيرة» .

إن نبي القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيدة والعبادة والخلق ، وساق نصوصاً حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة ، وهذه أسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصور ، ولا يمكن اختراق أسوارها .

أما ما وراء ذلك من شئون - وما أكثره - فموكول إلى العقل الإنساني يحو فيه ويثبت . . في ميدان العلوم والأنشطة الأرضية وشئون الحياة المدنية والأطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفي كل المجالات التي تتحدد فيها المبادئ وتتحرك الوسائل ، يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالشورى مثلاً مبدأ ديني لمنع الاستبداد السياسى ، ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الأمة من فرض رقابتها على ما يعينها . .

والعقل له أن يضع من الدساتير ما يحقق هذه الغاية .



والعدل مبدأ ديني لمنع الافتيات والنظام ، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشئ من المحاكم ما يحقق هذه الغاية إداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ ديني لحماية الإيمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد في البر والبحر والجو لا حصر لها ، والإبداع العقلي في هذه الميادين لا حدود له . . . بل إن شرائع العقوبات المروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلي ، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف . . . إلخ .

وقد تنشأ أحوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب آثارها ، لأنها لم تعهد من قبل في عهود الأنبياء ، لا أقول مثل غزو الفضاء وحرب الأقمار الصناعية ، بل في النشاط الإنساني العادي على ظهر الأرض ، فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف في تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج إلا بالعقل البقظ ، مع استصحاب هذا العقل لوحى الإيمان وتقوى الله .

إن الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر ، لكن هذا الإرسال سيكون عبثا إذا كان عمل النبي المرتقب قطرة من البحر الذي سبقه أو ترسما لخطئه أو تكرارا لما قاله . . . ومن ثم اكتفت الأقدار بكتاب محمد وحكمته في قيادة الإنسانية إلى آخر الدهر . ولو أن ورثة الإسلام من أمراء وعلماء أنوا واجبههم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الإسلام خاتم الأديان؟

فإن هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الإسلامية العامة ، وبخاصة في العصور الأخيرة .

من المقطوع به أن الأمة الإسلامية فقدت القدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافي والسياسي فكيف تقود العالم؟ أو كيف تقدم نموذجاً لصلاحية الإسلام الأبدية لقيادة العالم؟ .

إن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم إلى وراء وأن توضع قيود على حراكه الفكري والحضاري ولو كان الإسلام مسلكا رجعيا ، أو توقفا حضاريا لرفضنا ديننا يرقى باتباعه بل دين يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الإسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكون العدالة والرحمة فثم شرع الله ! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله !

وماذا ينشد الناس إلى آخر الدهر غير هاتيك الغايات؟

إن اختلاف الليل والنهار لن يقلب حقائق الأشياء . . . فإذا كانت الوجدانية صفة الله فإن هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواكب الزمان .

وإذا كانت تبعية الإنسان لربه حقا لا معدى عنه ، فإن تقدم الحضارة لن يعنى أبدا أن الإنسان استغنى عن الله والصلاة له والضراعة إليه .

وقل مثل ذلك في ميدان الأخلاق ، والعلاقات الإنسانية كلها .

ويوم ظن أهل الكتاب أن الدين عتوان ومراسم وأوهام مقدسة قبل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله ، وإحسان للعمل ، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام على الطريق . . . وقالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١١١) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن قلله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ (١١٢) .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله؟ رب العالمين يقول للناس في القارات المعمورة من أرضه ، اتجهوا إلى مخلصين ، وأحسنوا كل عمل تكلفون به ، تظفروا بالأمن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والآخرة . .

ماذا بعد هذا الكلام؟ وماذا يقوله نبي آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الأصل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الإهمال لهذه الشرائع الفرعية!

غير أننا نلقت النظر إلى أمرين مهمين : الأول أن تفكير المسلمين لأن أمام بدع وخرافات أدخلت على دين الله وهو منها برى ، وبرزت هذه الأهواء الدخيلة في أعمال المسلمين أكثر مما برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الإسلام لكي يبقى أن ينقى من هذا الغش . . . ! الثاني أن الترتيب المفروض بين شعب الإيمان سرت فيه القوضى ، فتحولت أركان إلى نوافل ، ونوافل إلى أركان .

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أموراً عقلية لها منطقها الحر ، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الأجناس التي اعتنقت الإسلام .

والمعروف أن الحكم الشرعي هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ، فلا حكم حيث لا خطاب .

إن الإسلام كان ولا يزال الدين الذي ارتضاه الله لعباده إلى اللقاء الأخير . ومصلحة الإنسانية في استمساكها بهذه العروة الوثقى .

### ٣. هل يستطيع الإنسان السوى الرشيد أن يعيش بلا إسلام؟

لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين ، ولو كان حرجا على النفس أو قبولا للندنية ، أو سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو مخاضة لكل ذلك . إن الملاحة خلطوا خلطاً قبيحاً بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم أنه دين .

ومن عرض باطلا ما على أنه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب .

والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الألوهية ويتصور العالم لا رب له . ومنهم من يعترف اعترافاً غامضاً بالألوهية ، ويحسب الأديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية ، ولا يرغب عنهما أبداً ، ومنهم الوثنى المغلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً .

وفى المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى . وفيهم دعاة إلى الحق الذى نفذته السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا وكثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم أمسى غريباً فى هذه الأيام .

ومشكلة الدعاة المسلمين تحيىء من الصورة التى يظهر بها الإسلام فى العالم الإسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد أخرى ينفر منه .

فلو أن رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دونما رهبة ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دونما قلق ، مثلما كان يفعل المسلمون قديماً مع أبى بكر وعمر ، لو أن هذا الإنسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن إذا قلت للحاكم : لا ، رميت فى السجن! أو ضرب عنقك !!

أتحسب هذا الإنسان يسلم؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين ألفاً تحت أنقاضها ، وبقي بعد ذلك مهيباً مصوناً توجل وسائل الإعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

إن هذا الإنسان يكفر ويكفر ، ولا يرضى بالدخول فى هذه الدائرة المزعجة ... ومن المسئول عن محتته؟ ساسة جبايرة لا دين لهم اشتغلوا فتنين عن الإسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشغولون بالعلم الدينى يقدمون الإسلام على أنه حبس وتجهيل للمرأة ، ويجهلون فى تقرير أحكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق ، محقور المنزلة مغموض العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهاد ، بل يستنكر عليه أن يقود سيارة .

لا جرم أن النساء فى شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه .!! ويؤازرنه فى ذلك ألوف الرجال الشرفاء .

إن فتنة الناس عن الإسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقاً ، وكثيراً ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : إنه عرض ناقته فى السوق بدرهم واشترط أن يباع مقودها معها بعشرة آلاف . فكان الناس يقولون ما أرخصها لولا هذا المقود المللوع .

أجل وما أسهل اعتناق الإسلام لولا هؤلاء المحمولون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سويّاً رشيداً؟ ونجيب : إن مثل هذا المخلوق مصاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وإنكاره لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية ، لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقد حكمت الولايات المتحدة بالإعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس ، إنه عد من كبار المجرمين لأنه خان وطنه وقومه .

وما الوض؟ قطعة من الأرض . وما القوم؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم؟ ألا يعد مجرماً؟

إن عظمة موهبة ما لا تنفى الإصابة بعقل مهلكة ، فقد يكون المرء حاد البصر جداً ، ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك ، فما غناء بصره القوى مع عته الجسيمة؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله ولتقيد يدينه مهما نبغ فى أمر ما ، فهو معتل الضمير ، زائغ التفكير ، مخوف السلوك على الأقربين والأبعدين ، بل هو إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان .

وعبادته لهواه تجعله مشغولاً على نفسه ومن اقترب منه ، وقد يعاقبه الله في العاجلة فيجعل ذكاه ضده ، فيبحث عن حثفه بظلفه ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد أهوائهم الكارهين للاستضاءة به ، والاستمداد منه فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٢) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ (١)

ولقد رأيت في أرجاء البلاد العربية أناساً ينتمون إلى « العلمانية » ويستبعدون بعنف كل إثارة للإسلام في ميدان التربية أو القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست في وجوه هؤلاء وأعمالهم ، فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون - كما يقال - يكرهون ما أنزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون إلى كل جبهة تخاصم الإسلام لكي يكثر السواد ويشبعوا الأحقاد ، ويتظاهرون - مع ذلك - بالحياد!!

ويستحيل وصف أحد من هؤلاء بأنه إنسان رشيد ، لأنه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى إسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمة ، وسياسة جعلت الدين يغتصب الأرض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجماً وترتضى سياسته وتحترم سطوته ؟ ويرفض الدين مدافعاً ويعتبر إشراكه في التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

الآن الدين هنا هو الإسلام ، ولأن الدين هناك هو اليهودية ؟!

لا سياسة في الدين إذا كان إسلاماً بدافع ، وتقام الدول من الهباء إذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الإنسان العظيم والتحامل عليه ، إننا نضحك من إنسان يرى أن الأرض كوكب مثلث أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد في الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا إلهاً ومحمداً قاطع طريق؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الإسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف؟ إذا لم يكن هذا الشخص مغفلاً ، فهو جاهل بلا ريب ،

والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد ، قد يكون الجاهل عذراً يسقط المسؤولية الأخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها . . إن هناك يهوداً يصدقون أن الله صارع أباهم إسرائيل وكاد يهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل لللعنة الخطيئة التي اقترفها آدم ، وإذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداء له بآء هو الآخر باللعنة الأبدية!

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتناول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للإنسان الذي جاء ينقى رسالات السماء مما أهانها ، والذي جاء في كتابه هذا التشريع لكل شارد : ﴿ أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٣٧) أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ بَرَى (٤٠) ثُمَّ يُحْزَاهُ الْخِزَاءُ الْأَوْفَى ﴿ (١)

إن جرس هذه الآيات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تشير الحذر ، وتوقظ الانتباه! أو هي ومضات متقطعة تلفت السائر في الدرب المتشابه كيف يعرف هدفه ولا يثنيه عنه .

إن الجاهل بالإسلام نقص شائن ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه ، وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته ، وبشارته ونذارته ، لم تُرْطَبْ قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين . . ؟؟

## ٤. كيف بُنى الإسلام على خمس؟ وما هي؟ ولماذا خمس بالذات؟

شرحنا أن الإسلام هو العنوان المعروف للدين الذي جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ، وأن الأنبياء الأوائل بلغوا صوراً محدودة لهذا الإسلام تناسب مدارك الأمم الأولى وقدراتها فالدين في الحقيقة واحد، يشبه إنساناً في فترات الصبا واليفاعة... ثم اكتمل هذا الإنسان وبلغ أشده، اكتمل مبنياً ومعنى، ذلك هو الفرق بين الرسالة الإسلامية كما بلغها النبي الأخير، وهذه الرسالة كما بلغها في فجر الخليقة مرسلون محلون محدودون...

وبناء الرسالة على خمس يحتاج إلى إيضاح فإن شعب الإيمان ومعالم الانقياد إلى الله تقارب السبعين عنصراً.

وهذه العناصر السبعون مبينة في كتاب الله وسنة رسوله، وهي تتناول الفرد والمجتمع والدولة، وتستوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة! من أجل ذلك لم يقل الرسول ﷺ: الإسلام مؤلف من خمس أو يتكون من خمس، وإنما قال: «بنى على خمس».

فهو يشبه الخيمة التي يقيمها الجوال في رحلاتهم، والخيمة تقوم على عمود أساسي في وسطها، وأربعة أعمدة تدجوانها وتثبت قماشها!

وأنت تعلم أن جسم الإنسان يتكون من أعضاء وعضلات وأربطة وأعصاب وعظام وحواس... إلخ ومع ذلك فهناك عدة أجهزة رئيسية هي دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الأحياء في: (١) الجهاز العصبي (٢) الجهاز الدوري (٣) الجهاز الهضمي (٤) الجهاز التنفسي (٥) الجهاز التناسلي والتنوي بهذه الأجهزة ووظائفها لا يلغى بقية ما يتكون الجسد الإنساني منه...

والخمس التي بُنى عليها الإسلام هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت... إلخ. هذه دعائم البناء ودعائم البيت غير حراته وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه... إلخ.

وشهادة التوحيد ترجمة عن الإيمان القائم في القلب، والإيمان معرفة بلغت حد اليقين أو تصديق جازم لا يحتمل الريبة، وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد. عندما يشهد المرء أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بأنه ارتضى هذا الدين، ولزم منهجه، وتبع قائده...

ولا تقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم في القلب، مهيمناً على باطن النفس، ويعنى هذا أن يكون المسلم ذا ضمير يرفض الدنيا، ويأبى مواقعتها، ويحذر ربه ويتقى عقوبته؛ لأنه يفقه قوله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (١) ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ﴾ (٣) ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

كما يعنى هذا أن يظاهر المرء دينه وأتباعه وإن اشتد ساعد الخصوم، وامتد أذاهم وعظم بأسهم، وتلك حقيقة التوكل المعتمد على الإيمان بالله الكبير، إنه ينقى العزيمة الحائرة والإرادة المنسحبة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥) ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٦).

والإيمان مصدر ولأه لإخوان العقيدة وسخط على خصوم الحق، فالمؤمنون يحبون الله ويبغضون الله، ولا يكونون أذنباً أبداً ولا أشياء لأهل الفسوق والإلحاد: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ﴾ (٧) إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله رمز لمعان نفسية بالغة الأثر في توجيه المجتمع كله...

ويجىء بعد الشهادة إقام الصلاة، إنه ليس أغلر من إنسان يسمع ويرى بقدرة الله، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يرضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها. إننا ننفق الكثير من أوقاتنا في اللهو واللعب، ونستكثر لحظات نفق خلالها أمام الله متعبدين... والمدنية الحديثة مشولة عن السعار المادى الذى أذهل الناس عن كل شىء إلا نداء غرائزهم، إن المرء يتطلق وراء رزقه انطلاق الوحش فى البرية لا يبدأ حتى يظفر بقرسته، ثم يعود فيلتهمها هو وأسرته، ثم يتطلق لثلمها فى يوم جديد.

- (١) البقرة: ٢٣٥. (٢) آل عمران: ٢٨. (٣) النحل: ٥١. (٤) آل عمران: ١٧٥.  
(٥) المائدة: ٢٣. (٦) آل عمران: ١٦٠. (٧) المائدة: ٨١.



وهكذا دواليك حتى ينتهى عمره وهو يلهث وراء مأربه وحدها لا يعرف له رباً ولا يؤدى له حقاً ما أتفه هذه الحياة ، وما أسوأ عقباها . .

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصغى إلى داعى الله يهتف بصوت جهير الله أكبر الله أكبر ، فيلبى النداء ، ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدى ربه قائناً خاشعاً .

والصلاة فى الحياة الإسلامية ليست عملاً فردياً يهتم به صاحبه وحسب ، بل هى سمة اجتماعية تسيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم إلى التلاقى فى محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر إلى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير بإقام الصلاة لا أداء الصلاة ، إذ المقصود إتيانها فى جماعة ، والتحميد لها ، والخشوع فيها ، وإعلاء شعائرها . إعظماً له ، وإبرازاً لحقه تبارك اسمه .

ونرجى الكلام فى الزكاة والصيام والحج إلى مكان آخر ، ونتحدث الآن عن الأركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة .

ترى لو كانت أربعة أو ستة أكان السؤال ينتفى؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيداً ولم يكن عمراً ، إنه سؤال يتسلسل إلى ما لا نهاية فلا معنى له . . ومع ذلك فهناك إجابة مقنعة فى هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبدالله دراز تنور على هذه العبادات خاصة هى شارات الإسلام ومعلمه التى تميزه عن غيره ، وأن غيرها قد يقوم به يهود أو نصارى أو ماديون ، كمكارم الأخلاق مثلاً!! وقد تكون هناك عبادات إسلامية محضة لكنها دون هذه الأركان فى الدلالة والقيمة .

ونتقل ما قاله الرجل الذكى رحمه الله . فبعد أن تحدث عن الإيمان وأنه عصب الحياة فى الدين ومصدر الطاقة الكامنة فى أعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لماذا ذكرت دون شعب الإسلام الأخرى! فقال : لأنها أعظم المظاهر وأوضح العناوين على الإيمان بهذا الدين من حيث هو دين سماوى . لما فيها من الاستسلام لأمر الله لمجرد أنه أمره دون قصد إلى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ، أما ما عداها من الأعمال فليست لها هذه المنزلة فى الدلالة على الانتماء إلى الإسلام .

ذلك أن الفروع الدينية منها ما هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالإخلاص والتوكل والرضا ، ومحبة الخير للغير وسائر ما يبحث عنه علم الأخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعاعاً ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلاً عن أن يكون أساساً لشتى العبادات والمعاملات . .

أما الأعمال الظاهرة فى الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع إلى المصالح التى تقتضيها

القطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص أو النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغاء النسل من طريق شريف ، وكالجهد دفاعاً عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان .

ومنها ما يرجع إلى المصالح التى تدركها العقول وتهدى إليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصدق والوفاء بالعهد والإنصاف فى الحكم ، وبذل العون للمحتاجين والدعوة إلى الخير والضرب على أيدي المفسدين . .

وهذان النوعان لا يعد الاستمسك بهما دليلاً على إسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له أصلاً ، استجابة منه لدواعى الفطرة والعقل دون نظر إلى توجيه سماوى . .

بقى قسم العبادات وأعنى بها الأمور التعبيرية التى لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لاتهدى إليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة المحددة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المحددة بأنواعها وأنصبتها ومفاديرها ومواقيتها ، وكالصيام المحدود بزمانه وكيفيته وكالحج ، والأضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الأمور التى لاحظ للاجتهاد فى وضعها ولا فى تبديلها وتغييرها مهما تغيرت الأحوال والعصور .

فهذه الأمور جديرة بأن تسمى رموزاً دينية ، وشعائر إسلامية ، لأنها لا يتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها المرسومة فى الإسلام .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى علينا كالضحايا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شئ من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات . .

على أن الحدود ونظام الموارث - وإن كانا تعبديين - إلا أنهما من الأمور الموضوعة لإقامة مصالح الدنيا بالقصد الأول ، وقد يأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول . . فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساساً لشعائر الدين سوى الأركان الأربعة المذكورة فى الحديث - مع الشهادتين - لأنها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة وجوباً عينياً ، مقصودة للشارع قصداً أولياً ، موضوعة لإقامة مصالح الدين أولاً وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانياً وبالعرض!

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الأصل الذى هو مبدأ الإسلام - يعنى الشهادتين - فى سلك واحد وصارت القواعد خمساً . .

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل فى شرح بناء الإسلام على خمس .

## ٥. ما مكان التصوف في الإسلام؟

إذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائبة لرجال يتبعون طرقاً شتى ، وتنظم في المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر ، تخدم السلطات الغاشمة ، وتحبى البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية في ميدان جهاد ..  
والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلاً ولا كثيراً .

التصوف - سواء كانت الكلمة عربية أو مترجمة - يعنى حقائق أخرى جذيرة بالدرس والتمحيص . والتراث الصوفي يتضمن أحياناً قضايا في ذروة الشرف والسناء ، كما يتضمن أحياناً أخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغي اطراحها والنأى عنها .

وأول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفى الذى نُقِلَ عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول ووحدانية الوجود ، ومشياً وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحي الصحيح كما أن هناك تصوفاً ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية ، وأعلن حرباً على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم يشغل بها ولم يكدر فيها ، وكون أجيالاً من القاعدين والمنسحجين في ميادين الحياة شقى بهم الإسلام دهرًا ، ولم ينجحوا لا في كسب الدنيا ولا في كسب الآخرة .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد أن الإسلام يستنكره ، وأظن أن بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الإنسانى تعترضه ..

ولكن هناك تصوفاً نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ، وغما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفانى في مرضاة الله - وأحسن الدقيق بوجوده وشهوده ، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة ، وإن كانت أحوالهم نكدية فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسى خلوة ، ونففى سياحة ، وقتلى شهادة !!

هذا التصوف يحوّل المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تؤدى برضا واستحلاء ، لا بتعب ومعاناة ، والمعاصى تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحيباتها وفرش له طريق الغواية بالأزهار : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) !!

وانتقال العلم من تصور ذهنى جاف إلى شعور قلبى رقيق عطاء إلهى جليل القدر ، وقد أشار - إليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٧) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم (٢) . كما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : « ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً » ويقول علماء النفس : إن للشعور ثلاثة مظاهر هى : الإدراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من أراد الله به خيراً جعل إدراكه يقوم على الصدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق ..  
إننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم أوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حاراً ممتداً .

وتدبر الآيات فى وصف موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٤٠) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ (٣١) .  
وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من أن النبى ﷺ كان يعرض ثوبه لباكير نظر ، ويقول : « هذا مطر حديث عهد بربى .. » .

أفكنت ترى جماهير المتدينين؟ أو هل يرتفع علماء الدين إلى هذا المستوى؟  
فى قراءتى وتجارى رأيت أناساً على حظ حسن من علوم الشريعة وأحكام الفقه . بيد أن قلوبهم خاوية من الإحساس اللطيف ، والرغبة فى التسامى ، والحب  
(١) يوسف : ٣٣ . (٢) الحجرات : ٧ ، ٨ . (٣) طه : ٨٤ .



للآخرين .. كما رأيت أناساً في مشاعرهم لطف ، وفي مسالكهم إثارة لكن يشينهم  
قصور علمي وفقه قليل في شرائع الإسلام .

كلا الصنفين مسيء ومقصراً والواقع أن العالم الذي لا قلب له كالشاعر الذي لا  
وعى له ، بلاء على الإسلام وعائق عن الانتفاع به ..  
فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ،  
ومتصوفون صفر الأيدي من قوانين الشريعة وضوابطها!

والراسخون في العلم سالمون من هذه الآفات ، ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم  
والغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالاً على درجة رفيعة من جيشان  
المشاعر والاستبصار العقلي .

واسمع للإمام المذوق ابن القيم وهو يحدو النفوس إلى الدار الآخرة ، ويقول لكل  
سائر عنى الدرب :

فحى على جنات عدن فإنها منازل الأولى ، وفيها الخيم  
أو إلى أبي حامد الغزالي الذي أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون ، واستبان عثراته  
وكشف ما أعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلي فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله  
حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى!!  
وعندى أن تفساوت هؤلاء الأعلام في آرائهم يرجع إلى تفساوت العلل التي  
عالجوها ، وتشخيص الأسباب التي أدت إليها ، ذلك إلى جانب ما بين طبائع البشر  
من خلاف في الأدواق والآفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون في الميادين الآتية :  
أولاً : في دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى  
تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .  
ويلاحظ أن النفس الإنسانية شديدة المكر واسعة الخيلة ، وأنها قد تحقق ما  
تهوى عن طريق ظاهرها الطاعة ، وباطنها إشباع الهوى ..  
ثانياً : التمرس بمقام الإحسان ، وطول البقاء في نطاق أن تعبد الله كأنك تراه  
فإن لم تكن تراه فإنه براك .

ولا يتم ذلك بتألق ذهني في خلوة بعيدة ، وإنما يتم مع الثقلب في البلاد  
والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة .. إلخ .

ثالثاً : تتبع آيات الله في الأنفس والآفاق ، ومدارسة الحاضر والماضي ، ومحاولة  
الارتقاء إلى مستوى الكتاب الكريم والسيرة الشريفة ، فإن الأبواب كلها موصدة أمام  
من حُرِم التأسي بمحمد ﷺ ، فهو إمام الأتقياء وسيد المرين ..

وفي هذا المجال أذكر أنني أفدت إفادة عظيمة من ابن عطاء الله السكندري ،  
وقد شرحت جملة من حكمه في كتابي «الجانب العاطفي من الإسلام» .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب «الرافعي» بأنه تنزيل من التنزيل ، أو قيس  
من نور الذكر الحكيم فإنني - مع إكباري للرافعي وأدبه - أرى أن كلمة سعد أصدق  
ما تكون في حكم ابن عطاء الله رحمه الله . وأعترف أن أناساً سيقولون إنني  
خلطت بين تعاليم الإسلام وسماثل الأتقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم  
رجالهم من ناحية أخرى .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على أسماء لا على مسميات ، ويكون  
سهلاً ، والمهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادي ، وتشرّب عواطفه  
إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض .

وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويظمئن  
إلى دار الخلود!



## ٦. ما موقف أهل الكتاب في الإسلام؟

إذا تحدثت - أنا المسلم المخرج في هذا العصر - عن أهل الكتاب، شعرت بظلم ذوى القربى ومقدار حزنه فى النفوس. وشعرت بالدهشة للضغائن التى أكنها القوم ضد محمد وكتابه ورسالته، وما كان ينبغى بته أن يقابل الإسلام بكل هذه البغضاء، ولا أن يلقي نبيه كل هذا النكير... بدأ الحديث عن أهل الكتاب مقروناً بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم، وانتظار عونهم فى مواجهة عبدة الأصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإذا كذب الوثنيون التوحيد، وخاصموا صاحبه فإن اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك!

وشرحاً لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣) ﴿١﴾.

وعندما يوغل المشركون فى عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرا من أهل الكتاب أديهم، وصدق ما لديهم، ودخل فى دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٢).

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الإسلام، وتعاملوا على نبيه ودعوته، وتجهموا لما تلقاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم؟

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٣).

لكن جمهرة أهل الكتاب - خصوصاً اليهود - رفضوا الاعتراف بالنبي الجديد، ونافسوا المشركين فى إطفاء نوره، واقتلاع جذوره، ووضع العوائق فى طريقه حتى ينفض الناس عنه.

(١) الزود: ٤٣.

(٢) القصص: ٥١ - ٥٣.

(٣) العنكبوت: ٤٦.

كان من الممكن بمقياس العقل والمصلحة - ترك الإسلام يعرض نفسه على الناس، وهو لا يملك سلاحاً إلا الإقناع المجرد ﴿إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١) ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وتدعه وشأنه.

وتدبر هذا التوجيه الإلهي ﴿اسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (٢).

فليرفض الإسلام من كرهه، فلن نحاول إكراهه على شيء. إن النبي مبلغ وحسب... لكن أهل الكتاب وقفوا فى جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون للدين الجديد، ويرفضون مهادنته ولا يأذنون له بالمرور...

فإذا انتشر بالإسلام صدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه أن يرتد إيمانه الجديد إلى جاهليته القديمة ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ...﴾ (٣).

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرناً من مطلع الرسالة الخاتمة لا يزالون كما هم، لم يثوبوا إلى رشدهم. تهدد الفلسفات المادية وجودهم، ويزحف الإلحاد الأحمر على حضارتهم، وبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المظلم، يتجاهلون كل شيء إلا ضرورة القضاء على الإسلام وإبادة أهله...

سمعت واحداً من أهل الكتاب يقول: من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء، تزوج تسعاً منهم، من الصعب تصديق أنه نبي...!!

قلت: ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بيناته وهو مخمور...!!

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى بإحدى قريباته خداعاً أو اغتصاباً.

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امرأة مجاهد فى سبيل الله، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها...!!

(١) المزمل: ١٦.

(٢) الشورى: ٤٧، ٤٨.

(٣) البقرة: ١٠٩.

هؤلاء في موارثك الدينية أنبياء عظام . . أما محمد الذي تزوج بعض الأراذل وعاهدن على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهن أن يقمن الليل معه متهجدات ، وما تزوج واحدة إلا لسبب اجتماعي ، وعرض عليهن جميعا مفارقتها إن رغبن في المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالنبوة ، إن الزناة في منطق العميان أولى بها منه !!!

وتوجد الآن عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الأمة الإسلامية ، وتقترف المناكر للإتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته ، وإطلاق الإشاعات الكاذبة حوله . .

على أن هنا أناساً من أهل الكتاب أوتوا سعة في العلم ، ونزاهة في الحكم ورغبة إلى الله ، آمنوا بوسى وعيسى ومحمد جميعاً ، ورفضوا أن يبهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوه العداوة . وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى مُنَوِّهاً بسيرتهم وعدالتهم ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾<sup>(١)</sup> كما قال تعالى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويمتاز هؤلاء ببحثهم عن البقين ، وعشقهم للحق وازدراهم للظنون السائدة مهما غلب سلطانها ، وقد التقيت بالدكتور «موريس بكاي» في ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر وسمعت يتحدث بإعجاب واحترام شديد عن أسلوب القرآن في تناوله للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عُصِمَ من الأخطاء التي تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لِمَ لم يعلن إسلامه؟ فأجاب : قلما أسير إلا متوضئاً . !  
وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليد ، ونلاحظ أنه إذا أسلم عشرة

(١) آل عمران : ١٩٦ .

(٢) النساء : ١٦٢ .

آلاف نصراني فلن يسلم إلا يهودى واحداً إن النصراني أرق قلوبا وألين عريكة ﴿ ... ذَلِكَ بِأَنْ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشاهدين<sup>(٢)</sup> وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق...<sup>(٣)</sup> .

وهناك أهل الكتاب خطوا إلى الأمام خطوة واحدة ، فقالوا : إن محمداً رسول حقاً ولكن إلى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفريق قديماً وحديثاً ؛ لأنه تأمل في سيرة النبي وحبه العميق لله وتغانيه في نصرته وحرارته في دعوته ، واستعداده للقاءه بأمداد لا تنقطع من العبادات والجهاد ، فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع؟ قال : إنه رسول للعرب حتماً !!!

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول : إن هذا الموقف لا يكفي ولا يشفي ، فمحمد يحمل أشقى السماء إلى أهل الأرض أجمعين ، والتنكر لعموم الرسالة قريب من إنكار أصلها . .

والواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هذا الحماس الجارف في الحديث عن الله ووحدانيته وأسمائه الحسنی ، وإلحاح محمد - باسم الله - على الخلق كلهم أن يعودوا إلى ربهم الأحد ﴿ ففِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾<sup>(٤)</sup> ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ<sup>(٥)</sup> أرايت؟ إنه نذير مبين وحسب! من يرفض هذا الإخلاص الرائع؟؟

وهناك أهل كتاب يجلسون في نطاق ما ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئاً ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين الناهيين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصر هؤلاء بالحقيقة كلها دین في أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، ترى متى ينهضون؟ وحساب هؤلاء إلى ربهم! والذي أراه أنهم مكلفون - في غياب الوحي عنهم - بمقدار ما أوتوا من ذكاء وقدرة على نقد الموروثات الرديئة واتخاذ موقف ما منها .

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٤ .

(٢) الذاريات : ٥٠ ، ٥١ .

ولا أظن هذا الموقف ينطبق على أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين! والذين جند الاستعمار العالمي نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسي وخانوا الجوار...!

على أن الإسلام وضع شرائع في معاملة أهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها في الفصل القادم عند الحديث عن الرسائل السابقة...

وهناك حديث يعطى معناه للوهلة الأولى حكما لم يقل به الفقهاء، ومن ثم فإن قبوله مطلقاً أو رفضه مطلقاً لا يجوز! والواجب استبانة معناه الحقيقي كما قرره الراسخون في العلم!

والحديث من رواية البخارى: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها... مصدر الخطأ في فهم «أقاتل الناس» فقد طارت أذهان إلى أن كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم! وهذا غلط يجمع العلماء فإنهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهود ونصارى...!!

لماذا؟ لأن المهتدين من هؤلاء إذا ضربت الحرب بيننا وبينهم، ونسوا منطق الإيمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين، بل إذا كسر الله شوكتهم، يقوا على أديانهم، وجردناهم من أسلحة العدوان، وتولينا نحن الدفاع عنهم إذا هاجمهم أحد، وعليهم - والحالة هذه - أن يسهموا فى نفقات الحرب.

وهذه ما أبانته سورة التوبة: ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. فليست الغاية من القتال إذن أن يقولوا: لا إله إلا الله، كما جاء فى الحديث!!

فإذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور. فهل يتناول الوثنيين كلهم؟! والجواب لا! ففى حديث آخر صحيح إحقاقاً للمجوس بأهل الكتاب: «وسع سنة أهل الكتاب» الحق أن الحديث فى مشركى العرب الذين ضنوا على الإسلام وأهله بحق الحياة، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موقفاً مأخوذاً، وقد منح

(١) التوبة: ٢٩.

هؤلاء أربعة أشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم، فإن أبوا إلا القضاء على الإسلام وجب القضاء عليهم، وقد فصلت سورة براءة هذه القضية فى أوائلها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>.

أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده إلى آخر رفق فلا يلومون إلا أنفسهم.

وقد يتساءل البعض: لماذا جاءت كلمة لناس عامة فى الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس» والجواب أن (ال) كما يقول علماء اللغة للعهد، تأمل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فكلمة الناس الأولى: تعنى بعض المنافقين، والثانية: تعنى بعض الكفار. وهذا هو المعهود فى أذهان المخالطين وتأمل قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾<sup>(٣)</sup> إن الناس هنا ليسوا البشر جميعاً، إنهم العرب وحسب!

رأيت فريقاً من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حرباً شاملة على البشر، ولا يزال يخرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين.

وهذا فهم - كما أسلفنا - لم يقل به فقيه، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون «الإمبراطوريات» الاستعمارية التى أظلم بها وجه الحياة قروناً عدة.

ورأيت أناساً آخرين يسارعون إلى تكذيب الحديث، دون وعى ويتخذون منه ذريعة إلى مهاجمة شتى الأحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق، وند رأيت لأولئك القاصرين أفهاماً فى كتاب الله لا بد من تفنيدها وإهالة التراب عليها.



(٢) النصر: ٣.

(٣) آل عمران: ١٧٣.

(١) التوبة: ٤.



## ٧. هل الإيمان بالأنبياء الأولين والكتب السابقة ضرورى فى الإسلام، وما حكمة ذلك؟

وجود العالم لم يبدأ ببعثة محمد، ولا بولادة عيسى، إن قوافل البشرية تنساب فى دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة.

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون، لقد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٦) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١) ومن قبل موسى بأجيال اختار إبراهيم وألهمه أن يقول لقومه: ﴿... اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾.

ومن قبل إبراهيم بعث نوحاً الذى مكث قرابة عشرة قرون بلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحده ويستغفروه ويسألهم موبخاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦)﴾.

إن المعانى التى ردها هؤلاء النبيون خالدة، والحقائق التى شدوا الجماهير إليها يجب أن يبقى صداها ما بقيت الأرض والسماء.

والنبي الخاتم أكد أنه لا يبنى على فراغ، وإنما على دعائم مهدها السابقون، وأنه يذكر الأمم كلها بالأصول التى جعلتها أو تجاهلتها: الله الواحد، اليوم الآخر، الطاعة المطلقة لرب الأرض والسماء، التزام صراطه المستقيم، الاحتكام إليه فيما شرع، التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العدالة وتحقيق الخير... إلخ.

(١) طه: ١٣، ١٤.

(٢) العنكبوت: ١٦، ١٧.

(٣) نوح: ١٣، ١٦.

وفى هذا يقول الله للمسلمين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (١).

ونحن المسلمين نجزم بأن كل رشد آتاه الله رسله الأولين فقد أتى القرآن به، ثم أربى عليه بعد ذلك ما تفتقر إليه الأجيال اللاحقة بما يسد كل ثغرة، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين.

إننى أنا المسلم أشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من أنبياء الله، ومحبتى لأولئك المصطفين الأخيار نبعث من أن محمداً عرفنى بهم، وأعلن أخوته لهم وجهاده معهم فى طريق مشترك!

وفى السورة الأولى - بعد فاتحة الكتاب - تذكر أصول التقوى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ...﴾ (٢).

ومع هذا التلاقى البين بين الإسلام والأديان الأولى، فإن تاريخ الحياة مع أتباع الأديان محزن موجه، قال اليهود: ليست النصرارى على شئء وبادلهم النصرارى الحكم نفسه، ثم قال الاثنان معاً: ليس المسلمون على شئء!! وقال الماديون جميعاً: ليست الأديان السماوية الثلاثة إلا خرافة، وليس أتباعها على شئء!

ويظهر أن النفس الإنسانية تشدها إلى شهواتها خيوط قوية، وقد يكره المرء أن يظهر عيب غرائزه فماذا يصنع؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى! فإذا هو ينتمى إلى أحد الأديان ظاهراً ودينه الباطن عبادة نفسه، وبلوغ هواه، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله!!

وعندما نطالع مسيرة الإنسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة، ولنتدبر قوله

(١) الشورى: ١٣.

(٢) البقرة: ٢، ٤.





وتحت الأقدام أرحام الخسنة الساجدة هذه هي قوم الجحيم ، وكثير من محزنة .  
وتصارعهم دامي الخوارج للرب ليل نوحى !

... ان لم يزلوا يترددون في ذلك فليكن لهم نصيب من ما كانوا يعملون

[illegible][illegible]

۱۱: بحسب ما فی ہدیہ

[illegible][illegible]

انسان كثيرين قروا ولم يفلحوا . لقد رأى بعضهم بعضاً كما يرى البرى انفسهم . انظره عارة عارية وعامة عارضة مشغول بشأنه يعيش في جوه الغاص فما تربطه بغيره الا نظرة عارة عارية وعامة عارضة

• حیاتی لم یقتضی ظهور الدنیا بعده فیه کمال حسن و کمال انصاف ان القدر ان احسن

يودعها في الجوف؟ وما أوصى علائقي بهذه العجوة؟ وأجبت أن هذه العجوة، في رأيي، هي التي تسمى «عجوة» في بعض الأماكن.

: قال هذا في نفسي

نظرت عن كثب إلى الفندق الذي أتيت به - وكنت في أحد أسفاري - ثم دار

Y'ei shayin el ha'aretz? ha'etiv shayin.

(A)  $\frac{1}{2}$  : 0

(3) 17/05/2010

(A)  $\text{INT} = 0$



متجداً في الحياة الجديدة.

هكذا عرض القرآن النبوة مع الحياة

(۱) ﴿لَتَيْسَبِرَنَّ إِلَىٰ مَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾

وما أجمل أن يعرض نفسه بنفسه لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ﴾

[illegible]

ה'תשנ"ח י"ב כ"א חמשה עשר שבט ה'תשנ"ח

وما أجمل أن يعرف موسى قضية اليوم الآخر في خطاب خطابه في إن الساعه

(۱) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[illegible]

مواضيع التحريف الكثيرة في مرويات القوم ، وإنها جزء من نطاق العفو الذي ورد في

من السامحة والود. وأحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت النعمت عن مخالفة.

واللغصود من هذا كله تذويب الجفوة ، وتوحيث الفارقة ، والتعرف بما لدينا في جو

... (۱) ...

[illegible][illegible]

אשר יצאנו ממצרים ונעלה אל הרי סיני

$\frac{1}{\sqrt{2}} \begin{pmatrix} 1 & i \\ 0 & 1 \end{pmatrix}$

ما أحقر الدنيا يوم تنال بهذا الثمن ، وما أحرأها بهذا الوصف الحكيم ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ (١) .

لكن للحياة الدنيا جانباً آخر لا بد من بحثه ودراسته ، إننا نوجد فيها ونقضى فيها أمداً لا ندرى مبدأه ولا منتهاه ، والذي أوجدنا أخبرنا أننا لن نترك سدى ، وأنه لم يخلقنا عبثاً !!

إننا أمام عمل جاد وامتحان خطير . ! وإن علاقتنا بالأشياء والأشخاص محكومة بقوانين دقيقة ، وإننا خلقنا للبقاء لا للفناء ، وإن اليوم بذر وغداً حصاد .

وإن المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه أن تعلن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ۝ (٢) وإذا كانت الدنيا نقطة لما وراءها فمن الحماقة محاولة الخلود فيها ، أو حصر الاهتمام في مآربها وحسب !

إن ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق ، والذي يعيش عبيد بطنه دابة ، وقيمته ما يخرج منه ! والذي يسببه جنون المال والجاه ، ويقلقل كل شيء لإثبات ذاته رجل تائه !

كان أبو الطيب المتنبي يرى أن العظمة هي مجد السلطة ونيل الحكم .

وتركك في الدنيا دويماً كأنها تسداول سمع المرء أنملة العشر !!

كان يرى نفسه قمة يجب أن تنوج بالأبهة والسناء ، ومالم يتح لأحد ! ليس القائل :

وكل ما خلق الله ومالم يخلق محتقر في همتي كشجرة في مغرق !!

وازن بين غرور هذا الإنسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندري في حكمه .. « من مدحك فإتما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك » ..

كذلك يستكين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعبوديته ، ويمهد لنفسه عند عودته !

إن أغلب الناس بهم من ترق أبى الطيب ، وشروهم في الحياة يرجع إلى ذلك ، وما أحوج الناس إلى فهم قوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٢) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ (١) الحياة الصحيحة في الإسلام أن تعتبر الدنيا لك ولست لها ، إن الله لم يخلق الإنسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزي كلا إن له حقوقه المصونة لا في الضرورات فقط ولكن في المتاع والزينة ! لكن على شرط أن يعرف النعم ويشكره .

بيد أن أكثر الناس يلهمه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحیوان الذى يتبع حامل البرسيم أو القول ، فإذا نقد ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذى يشده إليه . !! لماذا يكون بعض الناس كهذه الأنعام ؟ لماذا تنسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره إلا إذا - احتجنا ؟

إن الله أنبت الحقائق لتبهجنا ، وملكننا الأنعام تغدو وتروح إلى الحقول وقال لنا : ﴿ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ (٢) ، ورضع السماء بالدرارى اللامعات ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَةً لِلنَّاطِرِينَ ۝ (٣) !

ورفض مسالك أهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشنة فوق أرض تغور بالبركة والعطاء وقال : ﴿ مِنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۝ (٤) ؟

المعقول - بعد هذا الرزق المبسوط - أن ننتفع بهذا الفضل الأعلى ونقدر صاحبه حق قدره . ! والحياة الصحيحة في نظر الإسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها . إن المهندس الماهر يضع بصماته على الآلة المحكمة التى يبدعها ، ورب العالمين - وله المثل الأعلى - أظهر صفاته العلى فى خلقه هذا العالم الرائع .

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الأرض فرصة لا تكرر لمعرفة الله ، وإنشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه ، وأنا لا أتفلس حين أصف إعجابى بعظمة الله ، ولا أذهب بعيداً ! إننى أملاً صدرى بالهواء ثم أقول : سبحان من غلف كوكبنا بهذا الجو الذى تتنفس فيه ألوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور إن هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيما على لا شيء عجيب الخلق !

وهذا الماء الذى يلف أرضنا ؟ إن العلماء قالوا : إنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول أمها الشمس ، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة فى الفضاء ، وكان المفروض أن ينسكب فى كل ناحية ! من يسكه فى بحاره وأنهاره؟ ويجتذبه ليقبى فى قراره؟ إنه الله .

إن الملكوت الرحب الذى نسكن جانباً ضئيلاً منه يشير إلى ربه ويسبح بحمده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيا أن نتجاوب مع هذه الحقائق حتى إذا غادرناها إلى ما بعدها كنا أهلاً لجوار كرم !

أما إذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح . وقد نبهنا إلى هذه الحقيقة الصارمة ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ ﴾ (١) ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۝ ﴾ (٢) .

وحق على أهل الإيمان أن يتمكنوا فى الدنيا . ويقدروا عليها بسعة العلم وقوة العمل لأن الله لم يخلق عباده كى يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب فى أيديهم زمامها وهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (٣) . ولهذا التمكن ثمرتان : الأولى حسن ارتفاق الأرض ، واستغلال خيراتها فى رفاهة الإنسان ومتاعه إلى حين .

والثمرة الثانية : تطويع ما فى الأرض من قوى لدعم الحق ، وإقامة نظام محكم لجعل الأمور تمشى وفق ما شرع الله ، وهذا ما تنصح به الآية الكريمة : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۝ ﴾ (٤) .

إن الجهالة بالحياة ليسوا أناساً صالحين ! وكيف يكون صالحاً من لم يقرأ عظمة الله فى صحاف كونه؟ وكيف يكون صالحاً من ملكه الله الأرض وقال له ولأمثاله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ... ۝ ﴾ (٥) فعاش ملكاً للأرض تافهاً فوق ثراها وملكوته هى بدل أن يملكها؟ وكيف يكون صالحاً من سمح للإلحاد أن يسبغه فى كل ميدان ويهزمه فى كل نزاع؟

(١) الأعراف : ١٠ .

(٢) قبا : ٢٩ .

(٣) الزمل : ١٩ .

(٤) البقرة : ٢٩ .

(٥) الحديد : ٢٥ .

## ٩. ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء؟

إنكار الدار الآخرة ليس بدعة هذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الأنبياء ويتهمهم بالجنون لأنهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون ! كان أولئك المكذبون يقولون للأمم التى تسمع وعيد الرسل ﴿ هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ ﴾ (٢) .

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للنزعات المادية أصلاً علمياً ، وأشاع بأن الدين بعيد عن المنطق العقلى !! ومن ثم شاع الإلحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تذكر الآخرة فى مؤتمر جاد أو ينظر إليها على أنها حقيقة مقرة ، والذى أراه أن الإيمان بالآخرة فرع الإيمان بالله عزوجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على إيجاد العالم بعد إفنائه ، وإقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقي فيه كل امرئ جزاءه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝ ﴾ (٣) . إن الفلاح يستطيع أن يزرع الأرض مرة ثانية بعدما حصدها ، والمهندس يستطيع إعادة بيت تهدم ، فما الذى يعجز خالق هذا العالم على إنشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذى حدده له؟!

﴿ وَقَالُوا أَتُزَكُّوْنَ أَنْفُسَكُمْ أَفَرَأَوْا مِمَّا يَصُدُّونَ أَمْ لَهُمْ آلَاءٌ تَلْفُتُونَ فِيهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾ (٤) ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ ﴾ (٥) ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ۝ ﴾ (٦) !!

لو كان هذا الكلام من خالق الكون - وعداً مجرداً ، ما تأخرت فى تصديقه ! فكيف وأنا أرى فى كل لحظة من دنيا الناس خلقاً جديداً يبرز فيه الإبداع الأعلى

(١) الإسراء : ٤٩ - ٥١ .

(٢) آل عمران : ٣٠ .

(٣) المؤمنون : ٣٦ - ٣٧ .

أجل ما يكون؟ فى كل ساعة من ليل أو نهار تقذف الأرحام بعشرات ومئات من الأجنة السوية الخلق، الدوارة الأجهزة، المتجاوبة مع عناصر البيئة التى ترتقبها، فهى تسمع وترى وتعى وتمضى فى طريقها قدما إلى استكمال وجودها المقدور.... هل صنع الأوبان شيئا فى هذا التخلق الباهر؟ أعنى من صنع الحيوان المتوى وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والأدبية؟ ومن صنع بيوضة الأم ومد إليها صفات الآباء والأجداد؟ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (١).

إن إنشاء الحياة فى عالم الإنسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا تستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وأبصارنا؟ إن ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ قُلُوبًا أَنْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

إن انتشار الجهالة لا يعطيها وجهة! وإذا كان منكرو البعث كثيرين، فليسوا إلا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين !!

وعلى كل عاقل أن يستمع إلى هذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ (٣).

إن العدالة لا تتحقق فى هذه الدنيا، فهناك سفلة تبوءوا القمم، وعباقره توسدوا التراب، وقتلى أزهق المجرمون وأرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون.

إن اثنين وسبعين ألفا من عرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا فى الحرب الأخيرة، فلنفرض أن الله أذال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة أو قصيرة، سيكون الجزائريون قد ماتوا، وقد يعفى عن أبنائهم أو أحفادهم - كما فعل صلاح الدين - وقد يقتص من لم يقترب جرما !!

إن القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف، ولها ضحايا يضيعون فى حركتها الدائبة بقول الشاعر:

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما  
فقلت إلى أن يرجع النهر جاريا  
ذوى نيت جنبيه وجفت مشاعره  
ويعشب جنباه تموت ضفادعه!  
(١) الواقعة: ٥٨، ٥٩. (٢) الواقعة: ٦٢. (٣) الإنشاق: ٦ - ١٢.

من أجل ذلك كانت الآخرة حافلة بالانقلابات المثيرة، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة رب مالك هنا يكون مملوكا هناك، سيهبط ناس من الأوج إلى القاع، ويرتفع آخرون من القاع إلى الأوج ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (١).

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع، ورد لاعتبار، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيرهم إلى حين - هذا الحين جزء من نظام الدنيا، ومن امتحاناتها الصعبة، ولا بد من مراعاته، ولذلك جاء فى الحديث القدسى، فى إجابة دعوة المظلوم «وعزتي وجلالى لأنصرك ولو بعد حين» وجاء فى انتصار المؤمنين على الكافرين ﴿قَتُلُوا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢).

لقد تكرر هذا الحين وانتظامه مرتين فى سياق متقارب، لأن الله لا يعجل بعجلتنا، ولأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لا يضيع أو ينسى... وحديث الإسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين: الأولى مرحلة الدمار الذى ينزل بهذا العالم، والانهيال الفلكى الذى يحو نظامه ويطفى نجموه! وقد جاء فى السنة: «من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)﴾﴾ (٣) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢)﴾ (٤) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ (٥).

ويظهر أن الهول الذى يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الأفئدة بالفزع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى...

ومجىء الساعة يكون بغتة، والناس ماضون فى أعمالهم العادية، الأكل يرفع لقمته إلى فمه، والبناء يشيد البيت الذى يبنيه، والتاجر يتناول البائع السلعة التى يطلبها، وهذا وذاك فى جدالهم - حول شئونهم، ومستغرقون فيما يعينهم! يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَظْهِمُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦).

(١) الواقعة: ١ - ٣. (٢) الصافات: ١٧٤ - ١٧٨. (٣) التكاوير: ٢٠١. (٤) الانشقاق: ٢٠١. (٥) الانشقاق: ٢٠١. (٦) يس: ٤٨ - ٥٠.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الحساب الذى يشمل الأولين والآخرين ، ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا ، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا!!  
 قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم؟ قال :  
 كما يرزقهم على كثرتهم .

والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء ، وهل الخلود إلا انعدام الزمان؟ وأن رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الإحساس العام بكل ما أسلفوه فى الدنيا ، وكأن أشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملأى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه!

ثم يستعد كل إنسان للانطلاق إلى مصيره العدل ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١٠٣) وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿ (١٠٥)

والجزء مادى وروحانى معاً ، إنه للإنسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله! ولا يستطيع أى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بته ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير .  
 والنظر إلى مادىة الإنسان بأنها معرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثير بفلسفات خيالية لا وزن لها .

نعم إن مع هذه اللذات ما هو أسنى وأزكى ، معها الرضوان الأعلى والاستغراق فى شهود أمجاد الألوهية ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿ (٢٤) جعلنا الله من هؤلاء المكرمين .

## ١٠. ما البرزخ؟ وما دلالاته فى الإسلام...؟

المعروف عند جمهور المؤمنين أن الإنسان مخلوق من عنصرين متباينين .  
 جسمه من هذه الأرض خلق وثما ، وروحه من نفخة من الله سبحانه وتعالى ، فهو ليس حيوانا وليس ملاكا ، وفى كيانه تتجاور المتناقضات ، من غرائز مادية ، وسبحات عقلية وعاطفية!

وعندما يموت يرجع إلى الأرض ما نشأ منها وتغذى على نتاجها ، يرجع هذا الجسد ليبلى ، ويفنى منه ما شاء الله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١)

أما الروح فله مستقر آخر ، لاندري بدقة مكانه ، لاندري كذلك ما علاقته بالجسد الذى كان فيه ، هل انقطعت صلته به انقطاعاً تاماً؟ هل - عند البعث - يعود إليه هو أم يعود إلى جسد شبيه به؟ هذه أسئلة لانبت فى الإجابة عنها ! إنما الذى نبت فيه أن الشخصية الإنسانية لاتفنى بالموت! وإنها رحلت من عالم إلى عالم آخر ، وإنها بقيت كاملة الحس تامة الوعى ، وإنها إذا فقدت الأذن والعين فلم تفقد السمع والبصر ، بل قد تكون أسمع وأبصر مما كانت على ظهر الأرض ... إننا قد نكون مهرة فى المنطق المادى ، أما المنطق الروحى فعلمنا محدود بل صفر ... !!!  
 وقد أخبرنا الله أن الشهداء الذين قتلوا فى معارك الجهاد ومزعت أجسادهم ، موتى فى نظرنا نحن فقط لأنهم غابوا عنا ، أما فى حقيقة الأمر فهم أحياء .  
 وقد أسند إليهم خمس صفات تستحق التأمل .

هم أولا أحياء لا هلكى! وثانياً فى جوار كريم لأنهم عند رب العالمين ، وثالثاً فى منزل خصب حافل بالخير يدر عليهم الأرزاق ، ورابعاً هم فرحون بما نالوا ، مغمورون بالعطاء الأعلى ، وخامساً مطمئنون على أقاربهم وأصدقائهم الذين يخلفوهم فى الدنيا ، إنهم على حق وإلى خير ، وقربها سوف يجتمع الشمل ويلحق أحياء الأرض بأحياء السماء !

(١) طه : ٥٥ .

(٢) المطففين : ٢٢ - ٢٤ .

(٣) هود : ١٠٣ - ١٠٥ .







فَرَعُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١١﴾ وتراه كذلك فى كبراء قريش الذين أدركتهم منايهم وهم يقاتلون النبى ﷺ فى معركة بدر قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٢﴾

وقد رميت جثث المشركين البغاة فى بئر، ووقف النبى بعد دفنهم يقول بصوت جهير: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ وهو يناديهم بأسمائهم! فقال له أصحابه: أتناذى قومًا جيفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون! إننا لا نشعر بما يلقاه الراحلون عنا، بل لا نشعر بشيء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب!

ولن تتأخر نفس أبدا عن أخذ طريقها إلى البرزخ! وملاقة الجزاء المعد لها، مهما كان حب الأقرين والأصدقاء والأتباع! وتدبر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجز من حوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٢) رَأْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨١) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾

لا أريد تفسير الآيات، ولا ذكر من عجزنا عن إيصاره وهو أقرب إلى الميت منا نحن الملصقين به الحائنين عليه!! اللهم إن البشر كلهم أصفار أمام سلطان الموت، وأمام ما يقتزن الموت به من مبادئ الحساب.

إن الموت فضح الحياة، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمى ويصم! وذهولنا عن الجزاء المرتقب أدهى وأمر! ذلك، وقد ورد فى الآثار أن الموتى لا يرجعون إلينا، بذلك سبق القول من الله، وبذلك أجيب شهداء أحد.

ومن ثم فالزعم بأن الأرواح تستحضر فى مجالس خاصة وتقص ماتلقى على الحضور يكاد يكون رجماً بالغيب وقد تتبععت بعض ما نسب إلى هذه الأرواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطاً وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر!!

(١) غافر: ٤٦.

(٢) الأنفال: ٥٠، ٥١.

(٣) الواقعة: ٨٣ - ٨٧.

## ١١. ما طبيعة الجزاء الأخرى؟ وهل هو روحى أم مادى؟

هل خلق الإنسان من روح وجسد شيء يعاب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله، مقترحين أن يكون الرسول ملكاً ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (١)!!

وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون، استنكروا عليهم الزواج، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير، وعليه إذا أراد الكمال أن يكتبتها.

وقد رد القرآن هذه المزاعم، وبين جل شأنه أن المصطفين الأخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجى الغرائز ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٢).

ومع ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لاتزال عالققة بأنحاء الكثيرين من يحسبون السمو البشرى لا يتم إلا بإعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتلوح غرائزه.

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية، وانبنى عليه، إن التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية وأن السمو فى الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك فلا بد أن يكون النعيم الموعود روحانيًا محضًا وكذلك العذاب المرصد للأسقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة، فإنه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج، وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائنًا متميزًا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعًا يثاب أو يعاقب.

أو كما يقول الأستاذ العقاد: «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنسانى إلى ما دون طبيعته، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة

(١) الفرقان: ٧.

(٢) الرعد: ٣٨.

الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه الأمانة هي التي رفعته مقاماً فوق الملائكة ، أو هبطت به إلى زمرة الشياطين .

ليس الهبوط أن يشتبه الإنسان طعاماً أو امرأة . إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت ، أو يتصل بمن لا تحل له .

فإذا طعم من حلال ، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن إليها ، ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شيء في ذلك أبداً .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين في احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامي لا يحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها ، وأن النعيم أو الجحيم منويان ، وحسب!!

وقد سرى هذا الخطأ - كلاً أو جزءاً - إلى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللاً سيئاً في موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة في الجور على الطبيعة البشرية وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة ، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلباً لجنته ، أو تدع عصيانه خوفاً من ناره حتى توهم الناس أن الأمل في الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين!!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير إسلامي ، إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما نحتكم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبداً بالنقل . . . يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلاً مؤمناً بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسوق ، فوجده قد استقر في سواء الجحيم! فحمد الله إن لم يتأثر به : ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴾ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لَيْسَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) .

(١) الصفات : ٥٦ - ٦١ .

التجاة من النار أمل ضخم مثله يعمل العاملون ، فكيف يجيء أحد من الناس ، رجلاً أو امرأة ليقول : بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) .

في الرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، في هذا الجزاء الجزيل ينبغي أن يتنافس المتنافسون! فكيف يجيء إنسان رجلاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلباً لشيء من ذلك .

إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى ، أو العقاب السرمدي .

إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادي والآخر معنوي ، فلماذا تكريم للإنسان يفيض من التجلى الإلهي يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثاني أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

ولكن هل هناك فواصل - في هذا الكيان البشري - بين الإحساسين أو أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعاً؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة فلم الطعن فيها؟

ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاهها ذلك ، ولاحترمتها من أجل هذه النسبة! ولا يأبى الكرامة إلا للثيم ، فكيف - وهي إلى جانب ما وصفناه - تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة ذلك البدن الذي يضره الحرمان ، ويضنيه الفل والذل ، حاجة ذلك البدن الذي يكره الجرع والعطش والعري والهوان .

(٢) التوبة : ٧٢ .

(١) المطففين : ١٨ - ٢٦ .

(1)  $\int_0^1 x^2 dx = \frac{1}{3}$       (2)  $\int_0^1 x^2 dx = \frac{1}{3}$       (3)  $\int_0^1 x^2 dx = \frac{1}{3}$

[illegible]

(1) 15.000 : 100 = 150 : 1000  
(2) 15.000 : 100 = 150 : 1000  
(3) 15.000 : 100 = 150 : 1000

١٠  
 ١١  
 ١٢  
 ١٣  
 ١٤  
 ١٥  
 ١٦  
 ١٧  
 ١٨  
 ١٩  
 ٢٠  
 ٢١  
 ٢٢  
 ٢٣  
 ٢٤  
 ٢٥  
 ٢٦  
 ٢٧  
 ٢٨  
 ٢٩  
 ٣٠  
 ٣١  
 ٣٢  
 ٣٣  
 ٣٤  
 ٣٥  
 ٣٦  
 ٣٧  
 ٣٨  
 ٣٩  
 ٤٠  
 ٤١  
 ٤٢  
 ٤٣  
 ٤٤  
 ٤٥  
 ٤٦  
 ٤٧  
 ٤٨  
 ٤٩  
 ٥٠  
 ٥١  
 ٥٢  
 ٥٣  
 ٥٤  
 ٥٥  
 ٥٦  
 ٥٧  
 ٥٨  
 ٥٩  
 ٦٠  
 ٦١  
 ٦٢  
 ٦٣  
 ٦٤  
 ٦٥  
 ٦٦  
 ٦٧  
 ٦٨  
 ٦٩  
 ٧٠  
 ٧١  
 ٧٢  
 ٧٣  
 ٧٤  
 ٧٥  
 ٧٦  
 ٧٧  
 ٧٨  
 ٧٩  
 ٨٠  
 ٨١  
 ٨٢  
 ٨٣  
 ٨٤  
 ٨٥  
 ٨٦  
 ٨٧  
 ٨٨  
 ٨٩  
 ٩٠  
 ٩١  
 ٩٢  
 ٩٣  
 ٩٤  
 ٩٥  
 ٩٦  
 ٩٧  
 ٩٨  
 ٩٩  
 ١٠٠





[illegible][illegible]



إن معاملتى لسائق السيارة غير معاملتى للسيارة نفسها ، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والمركوب!! والمساواة بينهما فى التكليف حق .

وذكر لى آخر قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وقال : أليست هذه الآية نصا فى سبق الهداية الإلهية والإضلال الإلهي؟ قلت له : أنت واهم تدبر ختام الآية الكريمة تجد مفتاح المعنى الذى غاب عنك ﴿ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن الرجس الذى خنق صدورهم نسا عن عدم إيمانهم ، فلما رفضوا الإيمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والخرج ، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا إليه فقد استحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر .

ذلك ، والاختيار بين النهجين يصحب المرء فى كل يوم ، بل فى كل لحظة وهذا هو السر فى أننا نطلب من الله الهدى فى صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة بالليل والنهار . إن ظروفا هائلة تحيط بنا لاتعرف إرادتنا ولا قدراتنا ما تصنع بإزائها ، وما أشبه الإنسان بزورق هش الصنع ، يعوم فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه سحاب هنا يتشبث الإنسان بالتوفيق الإلهي ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الأقدار التى تحيط بنا وتتحكم فيها ، والأعمال التى طولبنا بها ونسأل غدا عنها!

وأرى أن إنكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية ، وانتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذى نحاوله بهذا المسلك؟ يقول الله سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢) ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ (٣) ثم يقول عن الجزاء الأخير ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (٤) فأين الظلم أو الجبر فى هذا الصنيع؟

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) يونس : ٢٦ . (٣) يونس : ٢٧ . (٤) يونس : ٣٠ .

### ١٣. ما دور المسجد فى الإسلام؟

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ... ﴾ (١) أحيانا أتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران إنما هو للساحات الطهور التى تخصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت أرضا عادية يقشاه أى إنسان أضحت أرضا لا يدخلها إلا متوضئ ، وبعد أن كانت لأى غرض عبادى أضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهادا للمعراج الروحى الذى ينقل البشر من مأربهم البقرية إلى مناجاة الله وتسيبحة وتمجيده!

أليس هذا ارتقاء معنويا للأرض نفسها؟ أحسست ذلك وأنا أطلع ما جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ دخل ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة فقال : يا أبا أمامة ، مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟ قال : هموم لزممتى وديون يارسول الله! فقال له : ألا أعلمك كلمات! إذا قلتين أذهب الله عنك همك ، وقضى دينك؟ قال : قلت : بلى يارسول الله .

قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .... فقلت ذلك فأذهب الله عنى غمى وقضى دينى .

هذا رجل أخرجته الأيام ، وبدل أن يذهب إلى بيت واحد من الأغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قيل :

يسقط الطير حيث ينتشر الحديب وتغشى منازل الكرماء!

ذهب إلى بيت الله يرجو جده ، وينتظر نداءه! فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه ...! لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفسه وحياته ...

وإذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل فى المسجد فى غير وقت صلاة فإنه عزم على المسلمين كافة أن يشربوا إلى المسجد وقت الصلاة وقال : «إن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة» .

(١) نور : ٣٦ .

وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لم يخط خطوة إلا رفعت له بهادر جنة، وحطت عنه خطيئته، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلى عليه مادام في مصلاه، تقول: اللهم صل عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة.

والواجب أن تتوطلد صلاة المؤمن بالمسجد، وأن يكثر التردد عليه صباحاً ومساءً، بل ينبغي أن يتعلق به قلبه وأن يزداد له حبه.

قال عبدالله بن مسعود: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض! إن كان المريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتي الصلاة! وقال:

إن رسول الله علمنا سنن الهدى، وإن سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه، قال عبدالله: وما منكم من أحد إلا وله مسجد في بيته، ولو صليتم في بيوتكم وتركتُم مساجدكم تركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم...

وجمهور الفقهاء يرى الجماعة في المسجد سنة مؤكدة، ولا ريب أن التجمع نزعة أصيلة جادة في تعاليم الإسلام، وأن الجماعة من شعائره العظمى.

والإسلام يحارب بذلك المتدين المهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجعتها، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون أنفسهم أركى وأتقى، وأن مخالطة الناس تنقصهم! فهم يؤثرون العزلة ويهتمون الغير، ويغطون كبراً في صدورهم ما هم بالغيه. ولعل أولئك الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة؟ فقال: هذا من أهل النار!!!

إن رسالة المسجد في الإسلام حشد المؤمنين في صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما يعينهم من شئون!!

وهذا التلاقي المنشود ليس حشر أجساد، إنما هو اندماج الفرد في المجتمع على أساس من الحب وطلب مرضاة الله، وعلى كل مسلم أن يرتفع إلى هذا المستوى، وأن يقتل نوازغ الأنانية إذا حدثته بالعزلة لأمر ما فقد جاء في الحديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مؤمن أى لا يحقد أو يخون: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأنمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعاءهم محيط من ورائهم» أى إن بركة الله على الجماعة تشمل الكل وإن كان بينهم من هو دونهم كما جاء في حديث آخر: «يد الله مع الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار».

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف، وتعويد المسلمين عليه، والغريب أن أمتنا أبعد الأمم عن احترام نظام الصف والخضوع له... مع ما ورد في تنظيم الصفوف بالمساجد من تأكيد وتشديد.

وتأمل في هذا الحديث عن أبي مسعود: «كان رسول الله يسبح مناكبنا في الصلاة ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم».

وفي رواية: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطعه قطعه الله!!»

لقد قرأت في حرب فارس أن صفاً من المجاهدين كان يعبر نهراً، فسقط كوز أحد المجاهدين فترث الصف كله حتى عثر الجندي على ما سقط منه!! إنهم يتحركون بروح الجماعة، ولا يتصرفون كأنهم عقد انفطرت حياته!

وكم يشعر المسلم بالأسى وهو يرى أمته في زحام الحياة تتحرك بروح القطيع، لا يهتم المرء إلا بنفسه ومصالحته!! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات في مناسك الحج، لأن نظام الصف، والإحساس بالغير مفقود عندنا، فالمسجد لا يؤدي رسالته!!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافي للأمة، وذلك عن طريقين: الأول تدبر ما يتلى من القرآن في الصلوات الجهرية وخطب الجمعة، والقرآن كتاب يتحدث في العقائد والعبادات والأخلاق والقوانين والشئون المحلية والدولية ويصف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء.

وقد كان ذلك المصدر الأول للمعرفة عند السلف، إذ أن سليقتهم اللغوية مكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله، والحق أن الذين أنصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغوا شأواً لا يضارع من السمو الفكرى والتربوى، فليس عجباً أن ينطلقوا مشاعل هدى في أرجاء الأرض وينقلوها من الظلمات إلى النور.

أما الطريق الثانى لتشقيف الأمة فهو الدروس التى انتظمت في ساحات المساجد، تتناول جميع العلوم بل إن الشعر كان يلقي في المسجد، وكان الصحابة يستمعون إلى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية!

ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت في المساجد وأن الأئمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها، والفقه الإسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهذ إلى اللحد.

ولما كنت مديراً للمساجد وضعت لأيام الأسبوع الستة غير الجمعة ستة دروس في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والأخلاق ، أما يوم الجمعة فحسبه الخطبة ، وأعددت لذلك كرامات تحضير تراجع بعناية ...

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقرر على إنشاء مستوطنات ، أساسها ثلاثة رجال : إمام مسجد ، ومهندس زراعة ، وضابط جيش ، وتركت اختيار الأماكن للمتخصصين ...

وكان رأيي أن تبنى المساجد في المدن والقرى على أساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان ...

إن المسجد كان القلعة الروحية التي ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الأزهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم ، وقاوم الإنجليز أوائل هذا القرن ، وكان يستقبل الأحرار من أقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون إخوانهم المسلمين .. وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد - أيام الحروب الصليبية - فقصت شعرها ، وأرسلت الصفائر إلى الإمام مقترحة أن تكون فيد جواد لأحد المجاهدين مما جعل المسجد يضح بالحماس ، وأغرى الرجال بالتفاني ..

هل انهزمت أوروبا في حملاتها الأولى إلا بهذه المشاعر ، وهل تراجع الاستعمار الجديد إلا بالروح نفسها؟



## ١٤. لماذا كانت الصلوات خمساً في اليوم؟

### وما هو شكل الصلاة المقبولة؟

كما يحتاج الجسم الناشط إلى وجبات غنية تمدّه بالحرارة ، وتجدد ما بلى من خلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الإنسانية إلى وجبات أخرى تعينها علي التحليق ، وتمنعها من الإسفاف ، وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشتى الأهواء والأقذاء !

إن الإنسان - بجواذب من طبعه - يحب أن يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضع الآخرين ، يحب أن يأخذ ولا يعطي ، وإذا أخذ فالشكر ثقل عليه ، وإن شكر فكللمات خفيفة ... ثم لا حق بعد لاحد!!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهراً من هذه الدنيا ، وتربية على جميع الفضائل التي تصح بها إنسانيتهم ، وتكمل بها عبديتهم ، وتتم بها رسالتهم في هذه الحياة ، وهل خلقوا إلا لعبادته سبحانه؟

وكون الصلوات عدداً معيناً ككون السعرات الحرارية التي يفتقر إليها الجسم عدداً معيناً! لا تتحقق الثمرات المطلوبة إلا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادي والأدبي بمقدار هنا وهناك!

وتنظر إلى حقيقة الصلاة التي شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : إنها أقوال وأفعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ، ومختومة بالسلام على عباد الله جميعاً ...

قالوا : أما الأفعال فقد استوعبت صور التحية التي كان يتقدم بها الناس إلى رؤسائهم وعظمائهم بعد تحريدها من المقاصد الرديئة! الوقوف الخاشع! القعود المؤدب! الركوع والسجود للذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام .!

فأفعال الصلاة أن تقوم لله قانتين ، وأن تركع وتسجد له معظمين ، وأن تقعد مخبتين قائلين له : إن هذه التحيات التي أديناها ، وكل عمل صالح نقوم به في حياتنا هو لك وحدك ياربنا الكبير!!

أليس ربنا أهلا لهذه التحيات اللطيفة نقدمها له - سبحانه - صباحا ومساء؟

بلى! وهو أهل التقوى وأهل المغفرة.. لذلك يقول الله لكل مسلم: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١).

وربما أحس المرء بكلفة في أداء هذا الواجب! واستثقل تكراره ألم نقل الإنسان قليل الشكر؟ لا بأس عود نفسك ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢). وتكتنف أفعال الصلاة أو تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلى حاضر الوعى حين يتكلم ، فإذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه في موقف جدير يجمعه مع الله فلينتبه!

ويسمى الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الإحرام ، كأن الإنسان حرم على نفسه الانشغال بشيء آخر لأنه شرع في مناجاة الله ، والالتفات إليه وحده.. والأقوال التي يرددها المصلى كثيرة ، لعل أهمها تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختصارا في الحفظ! فإن كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبيه ، العبد يتكلم والسيد يجيب!

في الحديث القدسي : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل...»

فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدني عبدي!

وإذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله : أشنى على عبدي..

وإذا قال : ﴿مالك يوم الدين﴾ قال : مجدني عبدي..

وإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل..

(١) هود : ١١٤ . (٢) هود : ١١٥ .

وإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل أي أعطيته ما طلب..

وتكرار هذه المعاني حق ، فإن نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، وأسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا..

وتعهد المصلى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحده هو رب التوحيد . فإذا وفى المصلى بعهده ، وسأل ربه من رفته منحه ما يطلب ، وأفضل ما يطلب الإنسان هدى يقيه الانحراف ، ورضا يقيه الطرد ، ونعمة تقرّبها عينه ، وسدادا يقيه الخيرة...! الظفر بذلك سعادة الدنيا والآخرة..!

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفسه . وفي هذه الزيادة معرفة أكثر بالوحي الأعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها..

ثم يركع المصلى مسبحا ربه العظيم ، فكم من سكان الأرض يشرك به أو يجحد وجوده ، أو يجهل ما ينبغي له من نعوت الكمال ، أما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا وينزه ربه عما لا يليق به من نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صعد إلى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا : سمع الله لمن حمده... أي استجاب الله لمن أشنى عليه وحمده.

وكان رسول الله ﷺ يرفع من ركوعه أحيانا ويقول : اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد. وكلنا لك عبد. لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد..!!

ومعنى الجملة الأخيرة أن المرء لا ينفعه عند الله ما نال في الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة ، فليس في ذلك دليل على الرضوان إلا على ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (١).

ثم يهوى المصلى ساجدا يسبح اسم ربه الأعلى ، ومع كل ركوع سجودان! والإنسان يكن في أركب الأحوال وأشرفها عندما يضع جبهته على الأرض بين يدي ربه ، فليدع بما شاء .

(١) الرعد : ٢٦ .



وكان النبي أحيانا يقول فى سجوده : «سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين، أو سبحان ذى المنكوت والجبروت والعظمة، وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءاً أو ختاماً ..

وفى القعود الأول أو الأخير يذكر المرء لربه أن كل ما سبق من أفعال وأقوال تحيات لوجهه الكريم ، فهو يقول : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ، ثم يلقي السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وأرشد ، وكان هذا السلام إشارة إلى أنه الأسوة الحسنة ، فى إقام الصلاة ، وسائر الشرائع التى جاء بها! ثم يرسل سلاماً آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين ..!

ما أحلى هذه الكلمات كلها ، وما أشرف الصلاة التى يكلف المسلم بأدائها .. والمهم أمران : أحدهما عقلى والآخر قلبى! أما العقلى فيجب أن يعلم ما يقول ، ويعرف ما يتاجى ربه به فقد جاء فى السنة أن المرء لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها! أما أن يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها ، ثم يقف تائها لا يدري ما يتكلم به فهذا هبوط وضياح ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (١).

أما القلبى فإن الصلاة تورث الخشوع والأدب والخشية ، وهى معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملأ الأعلى ، إنها - إن أقيمت كما شرع الله - توبة كاملة تمحو الخطايا محوها ، وتطهر النفس قال عليه الصلاة والسلام : «أرايتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، ما تقولون أبقى ذلك من درنه شيئا؟» قالوا: لا يبقى ذلك من درنه. قذاه شيئا! قال: «فذلك مثل الصوات الخمس يصحو الله بها الخطايا».

والأساس أنها تعصم من الخطايا ، وتحول دون مواقعتها كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢).

بيد أن البشر ضعاف وقد نهى لإرادتهم أمام إغراء مَّا ، ويزلهم الشيطان فهل يأسون من تسام ومتاب وعود إلى الله؟ كلا ، فليفرغوا إلى الصلاة فهى تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم إلى الصراط المستقيم ، المسلم لا يذهب إلى كاهن يأخذ بيده ، فليس الكاهن خيرا منه ، ولو فرضنا أنه خير فما ينفع إلا نفسه ولا مفزع إلا إلى الله ...

(٢) العنكبوت : ٤٥ -

(١) النساء : ٤٣ -

## ١٥. ماذا يرمز إليه الوضوء؟ ولماذا لا تصح

### الصلاة إلا به..؟!

نظرت إلى بعض الأشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها ، وجعل أوراقها داكنة ، فلم تثر انتباهها وخلقتها دون توقف .. وشاء الله أن تمطر السماء بعد قليل ، وكان مطراً غزيراً ، ومررت بالأشجار نفسها فكان منظرها عجباً كانت خضرتها تزهو ، والأوراق تحت أشعة الشمس تلمع! فقلت : ما أحسن النظافة ، أبرزت الخلقة الطبيعية فى جمالها الأصيل ، وبعثت النفوس على الإعجاب ..

كذلك جسم الإنسان ، إن النظافة تجلوه وتزكيه ، والجسم الإنسانى أحوج من غيره إلى التطهير الدائم ، لأن متاعبه لا تجبى من الغبار وحده ، وإنما تجبى من إفرازات الجلد والأعضاء ونفايات الأجهزة التى لا تهدأ حركتها ، ولم أر نظاماً للننقية والتطرية أدق من التشريع الإسلامى فى احترام الجسم وإزالة القذى عنه ، واستئصال ما يشينه واستبقاء ما يزينه ...

والوضوء من شعائر الإسلام المطردة فى الحياة الإسلامية ، وهو من الوضوء أى الحسن الباهر ، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة أنه تخلية وتجليه ، والنظافة قد تعنى إزالة الأوساخ وحسب!

كلمة الغسل فى اللغة لاتعنى إسالة الماء فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض إذا كان المطر بالغ الشدة ، وإذا فرض الإسلام غسل أعضاء معينة فهو يريد تدليكها بما يطهرها ولا يترك أثراً منفراً فوقها .

وقد أوجب الإسلام الوضوء كما فرض جملة من الأغسال التى تشمل الجسد كله! ونستطيع جعل الوضوء رمزا لفلسفة الإسلام فى تكميم الجسم الإنسانى وإعزازة إذ إن هناك عقائد تعلن حرباً على هذا الجسم ، وترى الارتقاء فى إهماله وإنحافه والجور عليه ، وذلك فى زعمها لترقية الروح .

والواقع أن الإنسان معنى ومبنى وقلب وقلب ، وعزل المادة عن الروح صعب .



والمفروض أن يكون المعنى الشريف فى مبنى نظيف ، وأن يكون القلب الطيب فى إهاب نفيس .!

روى مسلم عن عمر بن عبسة رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : كيف الوضوء؟ قال : «أما الوضوء فإنيك إذا توضأت فغسلت كفيك ، فأنقىتهما ، وغسلت وجهك ، ويديك إلى المرفقين ، ومسحت رأسك ، وغسلت رجليك إلى الكعبين ، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك أمك»!

قال أبو أمامة : يا عمر بن عبسة ، انظر ما نقول؟ أكل هذا يعطى فى مجلس واحد؟ قال عمر : أما والله لقد كبرت سنى ، ودنا أجلى ، وما بى من فقر فأكذب على رسول الله ﷺ ، ولقد سمعته أذنأى ووعاه قلبى من رسول الله .

والواقع أن الجزء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فإن الوضوء وسيلة إلى الصلاة ، وهذى وذاك مظهران لإيمان حسن ، ومسارة إلى رضوان الله ، فالثواب الوارد منظور فيه إلى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من أحاديث كثيرة ..

والوضوء وحده لا يصلح إذا كان الجسم بحاجة إلى تطهير تام ، كما فى حالة الجنب والخائض والنفساء ، وقد أمر الإسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لا يبقى أى أثر لنجس ، وكانوا قديماً يستعينون ببعض الأعشاب والألياف لإدراك النظافة المطلوبة ، وفى عصرنا توصل العلماء إلى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض!

إن المعلم كالطبيب ، كلاهما يريد الكمال للإنسان ، والطبيب فى كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لا يستثنى منه شيئاً ، وكذلك فعل الإسلام وهو ينقى البدن ويجمله ، أنه لم يتخرج من ذكر شىء مهم وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : «الفطرة خمس: الختان ، والاستحدا ، وإزالة الشعر حول المواضع الحساسة . وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط» .

أى إن من المحافظة على الفطرة السليمة - وهى جوهر الدين - أن يتعهد المرء بدنه بهذه الآداب ..

ومن أطال شعر رأسه وجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، وفى الحديث : «من كان له شعر فليكرمه» ..

ولا بد من غسل الفم وتعهد الأسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، إن الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر أذى لأصحابه ، وقد أسقط الإسلام

صلاة الجماعة عن الأبخرا! كما ندب لمن أكل ثوماً أو بصلاً أو فجلاً أن يمتنع عن المجالس العامة ، وتعاليم الإسلام فى استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التى تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك ..

والغريب أن الإسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها ، بل ضم إلى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد روى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : «أومات امرأة من وراء ستر ، بيدها كتاب : إلى رسول الله ﷺ فقبض يده : وقال : ما أدرى ، أيد رجل أم يد امرأة؟ فقالت : بل يد امرأة! فقال لو كنت امرأة لغيرت أظفارك ، يعنى بالحناء - أى لظهرت حمرة الخضاب على الأظفار!!

وعن عائشة أيضاً أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ، يا يعنى ، قال : لا أباعدك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفاسبع . أى وحش .!

والتجمل شىء غير التبرج ، التبرج إهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الإثم! أما التجمل فهو إبراز الجمال الطبيعى فى إطاره العادى المعتدل ، وجمال الأنوثة غير جمال الرجولة ، والإسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالآخر ، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دميعة المظهر أو كريهة الرائحة ، كلا فلتنك حسن الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ .!

قلنا : إن الوضوء من الوضوء ، أى الحسن والملاحة والإشراق! والحياة الإسلامية الأولى كانت آية فى النظافة والارتقاء ، فلما ساء معنى لتدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وأن إهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الآخرة! والحق أن الشكل الفوضوى دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لا يؤمن على كثير من الحقوق ..

أما نستحي - وقد أضاف الله الزينة إلى نفسه - أن ننأى عنها؟ ألم يجئ فى الكتاب العزيز : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (١) ؟! إن الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرائحة؟!!

إن الوضوء رمز إسلامى لكل أسباب النظافة والزينة ، على أن يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيف ، وأنب رائق جميل ، فيكمل الإنسان جوهرًا ومظهرًا وحقيقة وصورة!

(١) الأعراف : ٣٢ .

والوضوء ليس شرطاً لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه في أوقاته كلها جنباً أو طاهراً ، بل يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم - فيما أرى - وتستطيع الحائض ذلك . والمؤمن لا ينجس أبداً والجنازة عارض لبسده يمكن الخلاص منه على عجل ..

أما الصلوات المكتوبة كلها ، فيستحيل الدخول فيها دون طهر ، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، أما الحدث الأكبر فلا بد من الغسل ..

وإنما اشترط ذلك حتى لا يتجاوز المؤمن في شئون النظافة ، ويتركها لأى عذر ينويه ، فما أسرع الناس إلى الترخص فيما لم يلزموا به حتماً ، وإذا كانت الصلاة من أركان الإسلام الخمسة ، فإن النظافة تعد من الأركان لأنها تمهيد لامناص منه للصلوة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم وألطف إذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدي الله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِدَّ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾ (١)

والنظافة خلق قبل أن تكون عادة تتبع الغنى أو الفقر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم أية وسيلة تجعله تانياً وسيماً ، وكم من فقير نظيف ، وغنى مجوج ... !



## ١٦. ما حكمة الحج، ولماذا كان الطواف حول الكعبة

### وهي بناء من حجر؟!

سمعت أحد الدعاة يقول : إن الله كلفنا بما نعقل فأطعنا ، فأراد أن يبلونا بأفعال الحج ليرى : أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه؟ قلت له : هذا كلام ردىء ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لا ينكرها العقل ، وقد شرحتها فى موضع آخر ولا بأس من إعادتها هنا .

إن الأمم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد رُبط النصرارى بقبر المسيح وطريق الآلام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقاً ما أنزل الله بها من سلطان! فلماذا يستغرب من المسلمين أن يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطاً - يبدو - عندما يدرس - أقرب إلى الرشد ، وأبعد عن الوهم؟ ..

الكعبة هى البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعندة الصلوات لله وحده ، وقد قيل لإبراهيم وهو يؤسسه ﴿ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (١)

وهذا المسجد الحرام - أعنى الكعبة - هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيص العبادة لرب العالمين .

أليست لهذه الأولوية حقوق؟ بلى . وظليعة هذه الحقوق ألا يشاد مسجد فى العالم إلا اتجه إليه وشاركه غايته فى التوحيد الخالص! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حياً وميتاً !

هذه المعانى هى التى ذكرها القرآن الكريم فى أثناء الحديث عن هذه الكعبة :

(١) الحج : ٢٦ .



وبعد أمد جاء الملك وفجر بثر زمزم، وحامت الطير حول الماء الدافق، وأحس الناس ما جد فأقبلوا على المكان يعمرونه!

إن ثقة هاجر في الله أثمرت الخير، ولم يخذلها الله بعدما آوت إليه ..

والتوكل على الله - مع ضعف الأسباب أو انعدامها - زاد يحتاج إليه المجاهدون، والمضطهدون، يعتمدون عليه في اليوم الكالح كي يسلمهم إلى غد رابح .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا إلى الله، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هنا في أرضهم!

هل يعنى ذلك الساعون بين الصفا والروة؟ وهل عرفوا عقبي التوكل عندما يمثلون الدور الذى قامت به أم إسماعيل وهى تتحرك جيئة وذهاباً بين الربوتين؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان إبراهيم لما ترك أسرته بالوادي المقفر، يقول له : كيف تنفذ أمراً فيه هلاك أهلك، لأن الله أمرك؟! فقذفه إبراهيم بحصيات التقطها من التراب، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

إن مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم . ويكفى أنها تجمّعهم من أطراف الأرض شعثاً غيراً لا تفرق بين ملك وسوقة، ولا بين جنس وجنس، ليقفوا في ساحة عرفة في مظاهرة هائلة، الهتاف فيها لله وحده، والرجاء في ذاته والتكبير لاسمه، والضراعة بين يديه، فقر العبودية ظاهراً! وغنى الربوبية باهراً! ومن قبل الشروق إلى ما بعد الغروب لا ذكر إلا لله ولا طلب إلا منه سبحانه ..

إن الحج من الناحية الروحية إذكاء مشاعر، وتجديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التى تكفل مصلحة المسلمين العليا .

ولكى ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون في السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة . في السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم ..

وفي السنة العاشرة وضعت تقاليد إنسانية وآداب عامة تضمنتها الخطبة الجليلة التى ألقاها الرسول ﷺ في حجة الوداع ..

فهل يسمع المسلمون شيئاً ذا بال عندما يحجون في هذه الأيام؟

## ١٧. ماهى دار الحرب، وماهى دار الإسلام؟

يقصد بدار الإسلام جميع الأراضى التى يعمرها المؤمنون برسالة محمد ﷺ، العاملون بكتابه وسنته، المنفذون لشرائعه، والمنضمون تحت لوائه . ويقصد بدار الحرب جميع الأراضى التى يقطنها الكافرون بهذه الرسالة، المخاصمون لها، المعترضون لدعوتها ..

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الأوطان التى غزانا منها الصليبيون القدامى، أى أوربا كلها تقريباً! وقد تتسع لتشمل كل الأقطار التى أغار منها التتار علينا، فوصلوا من الصين إلى فلسطين!، وقد تضم كتابيين، ووثنيين، وملاحدة!

وقد سميت هذه البقاع وأهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل - كما يتبين ذلك قريباً - فإن أرض الإسلام لم تكن لها حرمة عند أعدائه فلم تصان أرض أولئك الأعداء ..؟

على أنى أشعر بالألم لهذه الجفوة القاسية وأسى لإنسانية انقسمت على هذا النحو الدامى، وتاريخ ملئ بالإحزن والحروب!

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين، ولا عهود تؤمن الأتباع من هنا ومن هناك، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الأحقاد، وتورثها للأحفاد، وليس بين الفريقين إلا ما يقوله الشاعر :

الله يعلم أننا لنحبكم ولا نلومكمموا ولا تحبوننا

كل له نية في بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلوننا!!

من المستول عن ذلك؟ قبل أن أذكر ما عدى أذكر ما قاله أقطاب القانون الدولى عند الأوربيين، وهى أقوال نقلتها عن كتاب «المجتمعات الدولية الإقليمية» المقرر فى معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول لعربية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوماً فى ميدان الدعوة الإسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالى الأسبق ..

كتب تحت عنوان «العائلة الدولية كانت تستبعد دار الإسلام من حظيرتها»



فقال : « منذ نشأة القانون الدولي الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الإسلامية بالحقوق التي يقرها هذا القانون»<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا الأساس لم يكن الفقهاء الأوروبيون راغبين في اعتبار الدولة العثمانية جزءاً من الجماعة الدولية فـ «جروسيوس» أبو القانون الدولي قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية! ومع أنه يرى القانون الطبيعي مجيزاً لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحي إلا أنه نادى بتكتل الأمراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و«جينتليس» هاجم «فرانسوا الأول» ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانوني - الخليفة العثماني - سنة ١٥٣٥ م مع أن هذه المعاهدة أقامت سلاماً بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التي كانت مقررّة على غير المسلمين إذا ما أقاموا في دار الإسلام! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على أساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاوناً بين ملك مسيحي وبين غير المؤمنين!

أقول : وهو تعاون - في نظر رجل القانون الدولي - لا يجوز بل يجب أن يسقى التناكر والتعادى بين الفريقين ، وأن تهيأ الفرص لسفك المزيد من الدماء! ثم نعلق؟ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ ..

يقول المؤلف : بل لقد ذهب فقهاء آخرون إلى أنه من الممكن إقامة سلام دائم في أوربا ، على أساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين - أي ضد المسلمين - وظهرت عدة مشروعات من هذا النوع .

ويستطرد المؤلف - بعد شرح هذه المشروعات - فيقول : إن الدولة الأوروبية في تعاملها مع الشعوب الإسلامية كانت تنظر إليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد الحرب! ولقد اعتبر الاستيلاء على أراضي المسلمين عملاً فاضلاً يدعو إلى الفخر .!!

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعها العلمية والأجنبية وقد أثبتنا كلها في كتابي «كفاح دين» .

(٢) سبأ : ٢٥ ، ٢٦ .

ثم يقول المؤلف : ونخلص بما تقدم إلى أنه حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية أو أية دولة إسلامية أخرى تتمتع بحقوق القانون الدولي .

هكذا كانت النظرة إلينا حتى بدايات العصر الحديث! والواقع أن رجال الحرب والسياسة والقانون ، كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون إلينا ببغضاء عميقة ، وقد ورثوا عن آبائهم كفرة برسالة محمد ورغبة جامحة في تشويهها والقضاء عليها!

محمد مدح لا صلة له بالنبوة! وأتباعه مخدوعون لا يقبل منهم إيمان ، وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادي أو أدبي ينبغي أن يراعى! إنهم خارجون على القانون فمن اغتالهم أو اجتاحتهم لم يرتكب إثماً!

ماذا يفعل المسلمون إذا رأوا هذا الخيف ، وهم موقنون بأن الله واحد ، وأن رسله كلهم - ومعهم محمد - حق؟

إذا اعتبرت أرضهم دار حرب اعتبروا أرض غيرهم دار سلام؟ هذى بلاهة!! كان عباد الأصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد! ويرفضون سماع شيء عنها : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (١)﴾ .

ليكن ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢)﴾ . لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الآخرين يتبعونك ، والسيف هو الحاكم! ويصور القرآن الموقف في هذه العبارة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا (٣)﴾ .

فإذا تجاوزنا الوثنيين إلى أهل الكتاب وجدنا الضغائن أشد ، والأنياب أحر . إنهم لا يطيقون سماع كلمة عن الإسلام ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا (٤)﴾ .

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن تنسلخ عن ديننا وتنبعه! إننا يا قوم أعرف بموسى وعيسى ، وأرعى لتراثهما الصحيح ، وأسرع إلى مرضاة الله الذي أرسلهما ، وأرسل بعدهما محمداً ..

(٢) يونس : ٤١ .

(١) الإسراء : ٤٦ .

(٤) البقرة : ١٣٥ .

(٣) البقرة : ٢١٧ .



ثم قال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسراً كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا !  
﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ وهذا يحصل إذا ظهرت كلمة الإسلام وكان حكم الله ورسوله غالباً ..

ذاك ما جاء في الكتاب الكريم ، أما ما جاء في السنة فقد صح أن النبي ﷺ مر في بعض غزواته على امرأة مقتولة - فكانه كره ذلك - وقال : « ما كانت هذه لتقاتل ! » فعلمنا أن العلة في تحريم قتلها أنها لم تكن تقاتل .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصي بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال ، روى أبو داود أن النبي ﷺ كان يوصي الجيش الذاهب إلى المعركة : « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً ، ولا صغيراً ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم وأصلحوا ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

وقد ادعت طائفة أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا رأى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج إلى دليل وليس في القرآن ما ينقض - الآيات التي ذكرناها - بل فيه ما يوافقها فمن أين يجيء النسخ؟ الصحيح أنها محكمة وأن من ليس معداً نفسه للقتال كالرهبان والشيخوخة ، والزمنى والمكافيف والمجانين ، فإن هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قول جمهور العلماء .

ونحسب نحن في مناقشة القائلين بشيء من التفصيل يزيد الحق وضوحاً ..  
من أعجب ما قرأت أن قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَعْدُوا ﴾ منسوخ بالآية التالية مباشرة ﴿ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ !! ﴾

وهذا ضرب من اللغو كان يجوز إثباته ، لأن القاتل قطع جملة من ﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتَهُمْ ﴾ وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ في دماغ عاقل ، ولذلك نتجاوز هذا الرأي ..

الدليل الذي يعتمد عليه القائلون بالنسخ ما يسمى بآية السيف يعنون مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ (١) .

(١) التوبة : ٥ .

وفي هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذي عينين فإن كلمة المشركين هنا فسرت في الآيات السابقة والآيات اللاحقة بأنهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدّاً لا يطاق ، وأنهم جماعة من الفتاك القاديين تعرفهم عندما تقرأ الآية التي استثنت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهي قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ (١) .

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا أعدائنا ، واحتقروا عهودنا .

ولكى نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم في الآيات الآتية : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٣) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (٤) .

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم في صدر سورة براءة ، وأعطوا أربعة أشهر مهلة ليرؤ ما يصنعون بأنفسهم ! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم ﴾ .

إن القول بالنسخ لا قتال إلا للمعتدين لا مسأغ له أبداً ، ولا يدل على فقه في القرآن الكريم .

قال لى بعض الأخوة : على رسلك ، إن الإطار الذى تريد وضع الجهاد الإسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيث كان ، ويريد غسل الأرض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر . !!

قلت : أين هذه الآيات؟ ألم تقرأ قوله تعالى يغرى طلاب الآخرة بالجهاد : ﴿ فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) إن هذه الآية تحت على خوض الحروب انتصر المرء فيها أو انهزم ومادام يريد إعلاء كلمة الله فله أجره !

(٢) النساء : ٧٤ .

(٣) التوبة : ٨ - ١٠ .

(٤) التوبة : ٤ .

قلت : لعلك لو قرأت الآية التى تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدواناً بل ردّاً للعدوان وكسراً للطغيان!

أليس يقول الله سبحانه فى حفر الهمم لحوض هذه الحرب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (١)

إن هذا القتال من أشرف مدار على سطح الأرض بالنسبة إلى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بأنه قتال لم يرتبط بقيد معين؟

فصمت قليلاً ثم قال : خذ آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّتَاقَ .. ﴾ (٢)

قلت : هذه آية تصف ما يجب عند التحام الرجال فى المعركة ، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فإن أول السورة التى ذكرت فيها الآية يحدد من هو العدو الذى نحاربه!

أول هذه السورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ (٣) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضى فى مسارها ، وإيذاء المؤمنين الذين تنشر صدورهم بها ، وهذا عدوان حقيقى!!

قال : خذ آية أخرى والآيات كثيرة : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) قلت : هذه الآية بين عشرات من الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كى يقاتلوا الروم ، ويحدوا من طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) محمد : ٤ .

(٣) محمد : ١ .

(٤) التوبة : ٤١ .

من أسلم فى مدينة «معان» ونشروا الرعب فى بقاع واسعة كان عملاً مؤمراً يحكمونها ..

وقد حاول المسلمون أن يوقفوا هذا التحدى ، وأرسلوا جيشاً إلى «مؤتة» هزمه الرومان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا الصمود به ، ولم يجد المسلمون بداً من الانسحاب ، فعادوا إلى المدينة وقلوبهم كسيرة .

وازداد الطين بلة ، فإن تيار الدعوة ركذ تحت تأثير السطوة الرومانية المخدورة ولم ير النبى مناصاً من إعداد أكبر جيش فى تاريخ الدعوة لينازل الإمبراطورية العجوز ويلزمها حدودها! إن الحرب كانت واجبة حتماً ، ولم تكن غارة عمياء ، وسوف تزيد الأمر وضوحاً فيما بعد .







يقول ابن تيمية في رسالته عن القتال : كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بذلك ، بل هو متواتر في سيرته ، فلم يبدأ أحداً من الكفار بقتال ... ولو أن الله أمره بقتل أعدائه لبدأهم بالحروب - ولكنه لم يفعل - .

ثم قال : أما النصارى فلم يقاتل أحداً منهم حتى السنة السابعة من الهجرة - يعنى إلى عشرين سنة من بدء الرسالة - فلما أرسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملوك إلى الإسلام ، وكتب إلى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي ، وملوك العرب بالشرق والشام دخل في الإسلام من النصارى من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ «معان» ... !!

قال ابن تيمية : فالنصارى هم الذين حاربوا الإسلام أولاً ، وقتلوا من أسلم منهم بغياً وظلماً!! ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون إلى الإسلام - دعوة مجردة - فمن دخل فيه دخل طوعاً لا كرها ، ما أكرهوا على الإسلام أحداً ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل النبي جيش مؤتة الذي انسحب كما ذكرنا في الفصل السابق بعد مصارع قواده الثلاثة ، ثم كانت غزوة تبوك التي قرر الرومان ألا يشتبكوا مع جيشها لحظة رأوها ..

إن القتال فرض على المسلمين فرضاً ، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين ، واضطروا لحوضه دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (١).

أتري المطرود من وطنه لأنه مؤمن بربه يعد مهاجماً إذا قاتل طارديه؟ إن الدهشة تملكنتني عندما رأيت كتاباً يصفون معركة بدر بأنها دليل على أن الحرب في الإسلام هجومية! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة!

إنه المنطق نفسه الذي اتبع في وصف المقاتلين الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم ودوزهم وأجسوا إلى العراء!! اعتبروا إرهابيين معتدين على اليهود الأمنيين الطيبين!!

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفُتَّتْ صُلُوحَاتُ وَيُوعِ وَصَلَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (١)!!

أيحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية؟ ترى لو أن الرومان نجحوا في قهر المسلمين واجتياح بلادهم أكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن؟ ذلك سر الغضب في نظم الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذي يدعوه فيه إلى الإسلام ، لقد غضب هذا الكسرى غضباً شديداً وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن يأتيه بمحمد هذا؟

وكان الفرس ينظرون إلى العرب بازدراء ، ويحتلون أرض العراق ، ومن ثم أنف كسرى أن يحاول عربي هدايته!! أفكان الفرس يأذنون لمسلم أن يجوس خلال ديارهم يدعو أحداً إلى الله؟

السيف وحده هو الذي يحل تلك المشكلة ، وماذا صنع السيف ، قلم أظافر الطغاة ، وتركهم بعد تجريدتهم من السلاح يفكرون في هدوء! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل! لا إكراه على دين!!

لأنعرف في تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ، ما غضب لنفسه قط ، ما غضب إلا لله وحده ...

فألوا غزوت ورسلا الله ما بعثوا

بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل، وتضليل أحلام، وسقطه

غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به

ذرعا وإن تلقه بالجهل ينحس

## ٢٠. هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة على الدخول في الإسلام؟

هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل في سبيل الله ، ويعد مسيئاً إذا تخلف عنها . .

الموطن الأول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون في بعض البلاد لصنوف من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتدوا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب ، بل يجب كسر شوكة المعتدين وإسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير . ويؤمن من شاء دون خوف! قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْتَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ (٤٠)﴾.

الموطن الثاني تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضاً عادياً لا تقترب به رغبة أو رهبة ، أى رشوة أو تخويف ، فإذا عطلت إذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعائهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، أى جاز لهم أن يكسروا السياج الحديدى الذى تحتمى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين عليه أن يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية في دينه أو دنياه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا (٤٠)﴾.

ويمكن أن ينضاف إلى هذا الوطن جهاد المجرمين الذين يحيون في الميدان العالمى على القرصنة والتفرقة العنصرية وإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا . .

(١) الأنفال : ٣٩ ، ٤٠ . (٢) الشورى : ٣٩ ، ٤٠ .

أما القتال لنصرة جنسية أو لأطماع شخصية ، أو لفرض الإسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض ، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (١)﴾ . وقد وردت في القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الإسلام أساسه الإقناع الهادئ ، والتعليم المجرد ، وترك الناس أحراراً بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها!!

وقد كان الرسول ﷺ شديد الإلحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الأصنام! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتراف الحق وترك الباطل فقال الله له: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢)﴾ .

والواقع أن الإكراه على الحق لا وجود له في الرسالات السماوية كلها ، وتدبر ما جاء في القرآن الكريم على لسان نوح: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلَ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٣)﴾ .

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبى ﷺ في نشر الإسلام ، فكشف أنه ليس حاكماً عسكرياً يفرض على الناس ما عنده أو موفداً من السماء لإرغام مستمعيه على قبول ما يقول. ﴿فَذَكَرْنَا أَنَّكَ مَذْكُورٌ (٤١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٤٢)﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدَ (٥)﴾ . ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (٦)﴾ .

نعم بعد بيان شاف لحقائق الإيمان بالله واليوم الآخر يقال للمستمعين: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا (٧)﴾ .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَٰ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ (٨)﴾ .

- |                        |                    |                  |
|------------------------|--------------------|------------------|
| (١) البقرة: ٢٥٦ .      | (٢) يونس: ٩٩ .     | (٣) هود: ٢٨ .    |
| (٤) الغاشية: ٢٢ ، ٢١ . | (٥) ق: ٤٥ .        | (٦) الشورى: ٤٨ . |
| (٧) النبأ: ٣٩ .        | (٨) الأنعام: ١٠٤ . |                  |





## ٢١. هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة؟

### وما واجب المسلمين اليوم تجاهها؟

ما من أيام الجهاد فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام النحسات التي يذوق فيها المسلمون هزائم في كل ميدان، ويفقدون فيها الأرض والعرض والدنيا والآخرة!! غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما ألف الناس، إنه جهاد الكلمة، وجهاد البحث والدرس، وجهاد المال والقانون... وأخيراً الجهاد بالنفس حتى لانفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والأدبية..

كان العدوان على أرض الإسلام قديماً ينم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد! أما في العصر الحديث فجريمة القتل تتم بسدس به كاتم للصوت، ووسط كلمات معسولة تخفى وراءها الحق الدفين... إن الاستعمار العالمي لم ينس يوماً كراهيته العميقة للإسلام، ورغبته الهائلة في وأده!

وقبل أن أشرح خطته الجديدة أشير إلى خطة قديمة مستغربة:

إن الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لأسباب اقتصادية مجردة!! بل كان لأسباب دينية أهمها القضاء على الإسلام!! وأترك الكلام للمؤرخ العالمي «هريبرت فيشر» لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية، ففي الفاتيكان كانت المشروعات التبشيرية تتناول العالم بأسره، وكانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنها تفضي إلى تنصير الوثنيين فحسب، ولكنها أيضاً ستفضي إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق!! كان المعروف أن نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أن بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الأكبر وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن

تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين، تلك هي خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس - بابا روما - منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤ م في مرسوم بابوي إلى ملك البرتغال، وفي هذا الجو المفعم بالأمال الكبار أقنع كولومبس ليكشف الطريق إلى الهند غرباً<sup>(١)</sup>. نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعماري كما رسمه البابا نقولا الخامس..

لكن القدر لم يقدر كولومبس إلى الهند كما كان يتصور، لقد قاده إلى أمريكا! وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة، إلى أن استولت أوروبا على الشرق الإسلامي وغير الإسلامي في القرن الرابع عشر للهجرة، وشرع الحق القديم يتنفس، أنه يتنفس هذه المرة بنخب هائل، ويعمل بدهاء وأناة داخل حجرات ناعمة، تاركاً خصومه ينيحون في العراء!

وإذا احتاج الأمر إلى البطش أحمد أنفاس الجماهير في صمت كذلك أو بأقل الضجيج!!

وقد شرحنا في موضع آخر من كتبنا الأسلوب الذي اتخذ للقضاء على الإسلام أمته ودولته ولا بأس من الإشارة إليه هنا:

١ - بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص أطرافها وجهت إليها ضربة قاتلة في أعقاب الحرب العالمية الأولى طوت رايتها، وقضت على الوجود الرسمي للإسلام في الميدان الدولي.

والخلافة بين المسلمين تمثل - كما قلنا - أبوة روحية وثقافية مهيبة، وترمز إلى ولاء المسلمين لدينهم، واستمساكهم بوحدتهم الكبرى وأخوتهم العامة. وفي الوقت الذي محا الاستعمار فيه هذه القيادة التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الأديان الأخرى..!

٢ - أكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغة تريجه، وليس لها كيان طبيعي، ولما كان الدين الأول في إفريقية هو الإسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافياً وسياسياً فأنشأ أكثر من خمسين دولة راعى في تكوين كل واحدة ضم كثرة

(١) من كتاب «أصول التاريخ الأوربي الحديث» ترجمة أساندة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لغتني إلى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبي الأمين العام لجمع البحوث الإسلامية.



إسلامية إلى قلة خلقها التبشير، وجعل الحكم في هذه القلة! وأسبغ عليها رعايته وتأنيده، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض .!

٣ - عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة، واجتهد أن تحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز إلى ساستها ألا يجعلوا الإسلام دين الدولة، وأن يحذفوا هذا النص من الدستور .

٤ - في الأفطار التي يعز فيها ذلك، يكون تمويت النزعة الإسلامية بإقصائها عن ميادين التعليم والتشريع، وخلق إعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتذوخ الجماهير .

٥ - فسح الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة، وتركها تنشط لجمع الأجيال الثائرة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم - من حيث لا يشعرون - للاستعمار العالمي، وطريق مختصر للإزراء على الدين وأهله .

٦ - إلغاء التعليم الأصلي إن أمكن، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الإسلام شيئاً، ويلحق بذلك إلحاق هزائم منكرة باللغة العربية في كل ميدان .

٧ - إبقاء التخلف الحضاري والصناعي والثقافي وجعل المسلمين أما مستهلكة لا منتجة، بحيث إذا حدثت صحوة إسلامية - رغم كل حيلة - لم تجد وراءها، ما يمددها بالقوة أو يهيئ لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا: إن الجهاد الإسلامي حق، لكن الوسائل الصحيحة ليست في العنف والنزق والحماس الطفولي، بل في خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبى حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم نرى أغلب الجبهات!!

إن الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة في وجه غارات دائبة لخواج تريد اقتلاع الإسلام عن جذوره، وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب أن الارتقاء الحضاري الحديث قد محا أحقاد الماضي، ويسر للناس جميعاً أن يتعارفوا لا أن يتناكروا، فلما وقعت مذابح لبنان الأخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط! ورأيت جثث الأطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشهد بأن القوم يقتلون في هؤلاء الأطفال امتداد الإسلام للغد القريب أو البعيد!! إنها هي مذبحة بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجري!

ومن المفيد أن يعرف من يجهل أن مذابح صابرا وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة، وأن مذابح سبقتها بين الفلسطينيين واللبنانيين تمت في صمت كتيب، وخرس من شاهدها من الصحفيين الأجانب لأنهم وجدوا أنفسهم فرادى مروعين .

وقد أحصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين ألفاً منذ الهجوم الذي أغضت عنه المنظمات الدولية واكتفت في استنكاره ببيان شاحب خافت . . .

إن من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا، وإنها لسفالة أن يطلب منا طالب أن نرتد عن إيماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا . . .

لماذا يباح لليهودي أن ينتمي إلى توراته، وأن يهتدى بنصوصها على تحديد الأرض التي يريدتها من كياننا ولا يباح للمسلم أن ينتمي إلى نراته وهو يرد هذا الاعتداء؟

لماذا يكون الإيمان - من خلال تعاليم القرآن - رجعية ممقوتة، ويكون الإلحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدماً محترماً؟

لماذا يكون مسجن يهودي في روسيا جرمية يضطرب لها الضمير العالمي ويكون قتل الألوف المؤلفة منا شيئاً عادياً؟

إن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الإسلام بحق الحياة لنفسه وأتباعه دون ضغائن وعوائق، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد أقلية أو قسر الغير على عقيدة بأبائها .!

بيد أن حق الحياة للإسلام وأمتة مطلب منكور بغض لدى الكثيرين، والاستعمار العالمي بشعبه كلها يمتد في فراغ، وسط أم استهلكها اتباع الشهوات، وحب الدنيا وكراهية الموت!! وتوجد حرب دامية الآن بين مسلمي أفغانستان والاتحاد السوفييتي، وأعرف من المجاهدين رجالاً يقارمون ببسالة ما يراد بهم، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية، والآلات الجهنمية في البر والجو؟

إننا ندفع ضريبة تخلفنا العام! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه إلى أسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجربة .

وبذلك نتجح في صد الطغاة ودحر العدوان . . .

## ٢٢. ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطاً؟

قالوا من قديم : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اطرّد هذا القول أم لم يطرّد فإن الحقيقة تضع بين الإفراط والتفريط ، والناس يعانون كثيراً من الغلو الشديد والإهمال البارد .

وعندما ظهر الإسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوي للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الأخرى ، وأن المسيحيين يرون التقوى في الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل في كتبهم : لأن يلج الجمل في سم الخياط أقرب من أن يدخل الغنى ملكوت السموات !! .

وجاء الإسلام فرفض المسلكين ، وعدّ المال وسيلة لما بعده وقال النبي ﷺ : «إن هذا المال خضر حلو؛ ونعم صاحب المسلم هو من أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حق كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة» .

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين في تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكأن مرضاة الله لا تتم إلا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة ، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة إلى عفو الله .

وقالوا : إنه ترك امرأة اقتنيدت متهمة بالإثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها . !

وجاء الإسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس ! وسرّ التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه ! وأقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذي المجتمع بالإصرار عليه !!

أي إنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم لمعصية النادمة وطلب الإصلاح المتواضع الرقيق ! يقول على بن أبي طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يقط الناس من رحمه الله ، ولم يؤمنهم مكره !

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى ، ولكنه كما روى الإمام مالك عنه يقول : لا تنتظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ..

والإسلام دين وسط يأمر الأمة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينا والمنحرفة يساراً .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم؟ ، فقال : تركنا محمد في أدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرفا شتى - وثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت بهم إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (١) .

والغلو في الدين قد ينتج عن خطأ في الفكر أو عوج في الطبع ، وغالباً ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك يقول الله تعالى لنبيه : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٢) .

هناك من يبالغ في التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يساراً بالإهمال المنتهى بالجحود والتمرد . . يقول الشيخ محمد عبدالله دراز : «كأنه أشار باليمين إلى طرف الإفراط والتعمق في الدين ، وباليأس إلى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذي لا يميل إلى أحد الجانبين . ونحن لو تتبعنا أنواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التي أشارت إليها أحاديث افتراق الأمة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التي أشارت إليها أحاديث فتح الدنيا وسطها لهذه الأمة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم ... إلخ ، لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين» .

إن الإسلام يجعل التوسط فضيلة في شئون الدين والدنيا جميعاً ، ففي مجال التعبد يرفض الإسلام الجهد المضي ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله ﷺ :

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) المائدة : ٧٧ .

«إن لكل شيء شرة. حماسا ونشاطا. ولكل شرة فترة. برودا وعجزا. فإن صاحبها سدّد وقارب فارجه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه» .

وفى شئون الدنيا يكره الإسلام التبذير والتقتير، ويحب الإنفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (١).

فى مجال العلم الدينى رأيت ناسا متبحرين فى المنقول والمقول بهم فقه واسع، ومحفوظات كثيرة، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ، تولى أحدهم القضاء، وقدمت إليه امرأة متهمة بالزنى، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له، وحكم برجمها؛ لأنها متزوجة!!

قلت: هذا منهج يهودى، فإن رسول الله ﷺ كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن قراره... ويتحابل عليه لينصرف آمنا... أما هذا القاضى فإنه احتال على المذنب ليقطله! ليس هذا أسلوب الإسلام، والعلة أن جانباً آخر من الثقافة الإسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا، ولو أُلّف «علم القلوب» وذاق الجانب العاطفى من الإسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له!!

والمحزن أن هناك انفصالا فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف، مما جعل المتصوفين يجنحون أحيانا إلى الجنون، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الأصم...

والوسطية فضيلة تبرز فى توجيهات الإسلام الاجتماعية والاقتصادية، ففى العلاقة بين الرجال والنساء مثلاً أبى أن تكون المرأة حبسية البيت أو طريده! وأن تكون نظرة الرجل إليها نظرة السجان أو الصياد!

البيت هو المحضن الذى تتولى المرأة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليد، وليس البيت سجن كما تفهم تلك بعض التقاليد السائدة عندنا، وليس ملتقى عابرا للأيوين والأولاد كما تألف ذلك أوروبا حيث الأمر شكل لا موضوع له.

وللمجتمع العام حظ من حياة المرأة، فهى تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية، وقد تقاتل إن اقتضى الأمر الدفاع، وينبغى أن تكون خبيرة بشئون أمته الدينية والمدنية.

(١) الفرقان: ٦٧.

وهناك من يأبى على المرأة هذا كله أو بعضه... فى الوقت الذى أسرفت فيه المرأة الغربية إسرافاً شائناً فى الذويان خارج البيت، وضد رسالتها الأولى.

لو التزمنا وسطية الإسلام لكان ذلك أرضى لله وأسعد للأمة وأزكى للجنسين معاً. وفى الناحية الاقتصادية أقر الإسلام حق الملكية الفردية، بيد أنه كبح جماحه بنبود الحلال والحرام، وانتقص أطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين..

وبذلك ضمن إنتاجاً غزيراً لأن الحوافز قائمة، وحفظ الجماعة من التفكك لأن التواصل بالرحمة لم يدع ثغرة إلا سدّها، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والرأسمالية الجائرة...

والمفروض أن المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها يطبقونها، فإن الله سائلهم عن الهدايات التى بلغتهم: هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس؟

وما من أمة إلا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١)؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين أنه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله، كما أن المسلمين سيُسالون: هل علموا كما تعلموا؟ إن الأمم كلها مكلفة أن تسمع منهم وتستفيد!

وهم شهداء على الأمم لأنهم حملة الرسالة العامة، ومبلغو «الوسطية» التى شرحناها آنفاً وكما كان محمد أستاذاً لهم فهم أساتذة لسائر شعوب الأرض!!

ذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٢).

والمؤسف أن الأمة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم! بل فرطت فى العمل والتأسى بنبيها، بل لقد أصبحت اليوم ذيلاً لأحزاب الميمنة والميسرة فى الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم.

(١) النساء: ٤١.

(٢) البقرة: ١٤٣.

## ٢٣: كيف يبنى الإسلام الأمة المسلمة؟

ألف الناس في عصرنا أن يكون ولاء الإنسان الأول لوطنه وقومه! حسناً: ما الوطن؟ قطعة من الأرض تربطنا بها حقوق وذكريات! لكن من صاحب هذه الأرض ومالكها؟ ﴿قُلْ لِّبْنِ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>؟ ومن خلق الأقوام الذين يحيون فوقها وشد أسرهم ودبر أمرهم؟ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾<sup>(٢)</sup>.

ألا تكون العلائق أوثق وأسبق بهذا الإله الخالق الملك؟

إن الإسلام حين يبنى الأمة يجعل الإيمان العميق هو الدعامة الأولى في هذا البناء، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الأولى للإنسان الراشد السوي.

إن عواطف من الربانية الغامرة هي التي تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه، وهي عواطف تتنامى كلما سمع الأذان للصلوات الخمس، وكلما حجزه إيمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه إلى عطاء سخي، أو وقفه ليشد أزر ضعيف، أو أغراه بالصباح في وجه منكر...!!

إن الربانية التي صنعها الدين أنفس معدناً وأرجى ثواباً من المواطنة التي صنعها الناس، ومع ذلك فالمسلم أول المدافعين عن الوطن؛ وأول المحامين عن العشيرة، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل إنسان كريم؛ لأنه يأبى الضيم ويرد العدوان. وبديه أنه يكون ذلكم الإيمان هو الروح السارى في كيان الأمة كلها، والمنظم للكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء..

وبعد أن يرسى الإسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الأخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

والأخوة ليست لفظاً أجوف، إنها رحم دينية موصولة تعطى ثماراً أشهى وأزكى مما تعطى الديمقراطية والاشتراكية في الميدانين السياسى والاقتصادى، إنها خلق فردى ونظام اجتماعى، وقد اعتمدت الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى على

(١) المؤمنون: ٨٤.

(٢) يونس: ٦٦.

(٣) الحجرات: ١٠.

هذه الأخوة في مواجهة ظروف الحرب والسلام والإقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الأعباء والواجبات..

ومن ينبوع الأخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحاب..

أساس التناصر أن المسلم لا يدع أخاه أبداً يحرج أو يذل، ويضئ لشأنه تاركاً إياه يواجه وحده ما يقع له.. كلا، يجب أن يلزمه ويثبته ويدفع عنه، يحامى معه أو دونه..

والواقع أن أشجع الشجعان لا يستغنى عن عنصر مادي يسعفه في الشدائد، إن المرء قد يغضب إذا أهين، وقد يستعد للقتال إذا قطع عليه الطريق! ولكنه يغضب ويستعد ويهجم على المعتدى إذا كان معه سلاحه، والمؤمن سلاح لآخيه، وعضد له في الشدائد، والمؤمن بين إخوانه يتحرك بقواهم كلها، لا بقوته وحده، وهذا الشعور الجماعى من معالم الجماعة المسلمة..

قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلطه...» وفي رواية: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، إن أحدكم مراء أخيه!! وقال: «من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة».

على أن لهذه النصرة الواجبة صوراً مختلفة تقتضى التبصر والروية، فليس الأمر عصبية عمياء، كلا، المهم إحقاق الحق وإبطال الباطل فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «انصراخك ظالماً أو مظلوماً؛ لميل: أنصره إذا كان مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره».

والاستعمار العالمى يجتهد في قتل مبدأ التناصر، وفك تضافر الأمة، وقد أعانه على ذلك الاستبداد الداخلى، أو قل: إن الاستعمار سخر الحكم الفردى لإشاعة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشعوب الإسلامية تفقد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر، فأصبح أحد لا يلوى على أحد!!

ولكى نحيا لا بد من إحياء مبدأ التناصر بين المسلمين جميعاً...

أما المبدأ الثانى من آثار الأخوة الإسلامية فقوامه التحاب لوجه الله، وجعل الانتماء إليه عاطفة شريفة تملو كل الصداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء فى الحديث القدسى: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى».



والواقع أن الحب في الله يهون مشاق الحياة كما يهون الحذاء مراحل الطريق ومتاعب العمل ، وعندما يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تحيى هذه العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد في سبيله .

وتقديراً لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه في الحديث القدسي : «وجبت محبتي للمتحابين في ، وللمتجالسين في ، وللمتزاوئين في ، وللمتباذلين في . يعنى من ينفقون أموالهم بسخاء إجابة لهذه العاطفة حين تفرض النفقة !

وليس حب المؤمن لإخوانه نافلة يتطوع بها إذا أراد ، كلا ، إنها أثر اليقين الناضج . ولا يسوغ أن يكون المؤمن ميت الإحساس يتحرك لما يعنيه ويرد لما يعنى غيره ، إن هذا الانحصار الشخصى هدم للجماعة وإضاعة للأمة ، والمؤمن الحق يحب غيره كما يحب نفسه ، في هذا يقول النبي ﷺ : «والذى نفس بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم .

وتحية الإسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء فى انخلاع المرء عن عزلته واهتمامه بإخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم !

ومن اللطائف قول رسول الله ﷺ : «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه» ، وقوله : «إذا أذى الرجل الرجل فليساله عن اسمه واسم أبيه ومن هو؟ ، فإنه أوصل للمودة» !

وفى كل مجتمع بشرى أغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعى فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاق عليهم بالصحاف المتنوعة ، إن العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل ...

أىكون ذلك التفاوت مبعث حق؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لا ريب أنه يخلف فى النفوس آثاراً سيئة! أما المشغولون بأخرتهم - إلى جانب دنياهم - فهم لا يابهون لذلك كثيراً مادام عند كل امرئ ما يكفيه ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس اتجه إلى ناحية أخرى ، فقد شكوا الفقراء إلى رسول الله ﷺ إنهم متخلفون عن الأغنياء فى مجال الإحسان! قد تجمعهم الصلاة والصيام ، ويتساوون فى الأجور ، لكن الأغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادى من أعمال صالحة كثيرة ...

أرأيتم فيم فكر فيه القوم؟ أنهم لم يشكوا عيلة فى الدنيا ولا غبنا نزل بهم ، إنهم يفكرون فى الآخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع ربانى ...

جاء فى السنة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم! قال : «وما ذلك؟» نالوا : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون لا نعتق ، فقال رسول الله ﷺ : «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ إلا من صنع مثل صنعكم»! قالوا : بلى يا رسول الله! قال : «تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثاً وثلاثين مرة دبرة كل صلاة»! قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون أنه بقى لهم تفوقهم - فقال رسول الله ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»!

إن هممة المؤمنين تشد الرضوان الأعلى ومنازل الآخرة ، وهذه الصبغة الربانية صانت الأمة الإسلامية فى ميدانين مهمين :

الأول : فى تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للآخرين ابتغاء وجه الله .

والثانى : فى الجهاد المتفانى لرد أعداء الإسلام ، واستبقاء دولته قائمة مع إلحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها ..

إن النجاح فى هذين الميدانين استبقى أصول الإسلام ومعالمه وغطى عيوباً كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشهوات الحكام .

وأمر آخر يظهر فى ثبات البناء الإسلامى على تراخى الأزمنة ، إن الإسلام عدو العمل للحياة عبادة ، وعدو المال قيام الحياة وسياجها وكان الصحابة يقسمون أيامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبي ﷺ يتعلمون ويقتدون ، والبعض الآخر للضرب فى الأرض يكدحون ويكسبون ، فإذا غابوا عهدوا إلى إخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وسنة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك ، ثم يردون الصنيع لإخوانهم إذا غابوا ...

ومن ثم لم يقع قط أن كان المسلمون فى الشئون المدنية أخف كفة ، أو أسوأ حظاً ، والدين لا يتم تحصينه إلا بدنيا قائمة ، وسناد مدنى متين ... !!

## ٢٤. كيف يبني الإسلام المسلم القوى في مواجهة متغيرات العصر...؟

لا أظن الإنسان المعاصر يختلف عن الإنسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون! ولا أظن إنسان هذا العصر مكلفاً بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الإنس والجن من فجر التاريخ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

إنه هو الإنسان السوى القوام، الخصب المواهب، المفضل على مخلوقات أخرى عملاً البر والبحر، الذى حمل وحده أمانة التكليف، وقدر على الترفع والإسفاف والتقوى والفجور..!

نعم، هناك أمور جديدة فى هذا العصر، فقد تقدم العلم، واكتشف كثيراً من أسرار الكون وقواه، وارتقت الصناعة، واخترعت آلات وأجهزة رفعت المعاش، ويسرت للإنسان فى لحظات ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات.. كما افتن الإنسان فى صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لامست الحروب تؤذن بانتهاء العمران البشرى.. وازدهرت العلوم الإنسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع فى شئونه الأدبية والاقتصادية والسياسية... إلخ.

ماذا يصنع الإنسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله..؟ إننى لخبرتى الحسنة بالإسلام لا أشعر بقلق ما على إيمانى أو منهجى فى الحياة، لكننى أشعر بأن الإسلام هو الدين الأوحى لمواجهة هذا لعصر! أليس عصر العلم؟ بلى، وكذلك دينى دين العلم الذى أهاب بالناس أن يبحثوا كل شىء ﴿وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢).

إن العلم مؤمن لا ملحد، وهو يدعو إلى الإيمان لا إلى المروق! وما كفر العلم - فى

(٢) الأعراف: ١٨٥.

(١) الباريات: ٥٦.

الأعم الأغلب - إلا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات! وأنا أؤيده فى ذلك كله..!

إننى أرى بلادة الكفر ضرباً من الحيوانية! أو هى اقتراب منه! أليس يقول ربى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

وقد تابعت استطلاع الآراء بين جماعات علمية فى أوروبا وأمريكا فرأيت الكثرة الكبرى تؤمن بالله، ووجدت قلة متوقفة حائرة، ووجدت ندرة نافهة زائغة القلب لا عقيدة لها.. فالزعم بأن جمهور العلماء لا دين لهم كذب، أو شائعة تنشر لغرض خسيس!!

إن روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية، ومن محبة العلم يجىء هذا الدعاء ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (٢)، وعلى المسلم إذا أحب مرضاة ربه أن يزداد تضلعاً فى العلم، واستكشافاً لأفاته.

وما يسمى بالعلم المادى - أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله - أرجح موضوعاً وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديماً وحديثاً، ولم تكسب الإنسانية منها إلا الحيرة والجدل، والغرور.

أما التقدم الصناعى الذى نعم الإنسان وأراحه فهو خير كثير! ونعمة جديدة بالشكر الجزيل، ألم تر أن الله تبارك اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة، أسكنه الجنة وقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (٣) أى لا تتكلف الكدح فى وهج الشمس، فتتصبب عرقاً ويحول لونك وراء لقمة العيش.

من قال: إن الإنسان يحب الوصب والنصب وركب المشقات؟ إذا كان هناك ما يغنى عنها!

والمرء الآن ينتقل من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب، تشق الطائرة به الجو فإذا هو بعد ساعات بين أحبته!

(٣) طه: ١١٨، ١١٩.

(٢) طه: ١١٤.

(١) الأنفال: ٢٢.

ماذا كان يفعل أجدادنا عندما يغبرون أقدامهم ، وتتغير ملامحهم ويتعرضون  
للمحتوف في هذه الأسفار المعنتة؟

الحق أن هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه إلا شكر الله على ما هدى وأسدى!  
وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات الحديثة ، وأن يألف استخدامهما  
واستصلاحهما ، وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم : ﴿ هُمْ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا  
يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ  
شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (١)

نعم إن المهارة في تلك الصناعات المدنية مهاد لا بد منه لإجادة الصناعات  
العسكرية التي تحتاج إليها حروب البر والبحر والجو .

إننى أكره الحروب ، ولا أتمنى لقاء العدو ، ولكن ماذا أصنع إذا اجتاحت الطغاة  
دينى وبلدى ، وأرادوا إثبات باطلهم ومحو حقى؟ ماذا أصنع إذا كان هناك من  
يحرق الثمار حتى لا يرخص سعرها ولا يرى أن يطعمها الجياع؟

ماذا أصنع إذا وجد من ملأ من خير الله فعمه ، فإذا حدثته عن الله رد يده فى  
فمى لأخرس عن الكلام ..؟

لا حل إلا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع أدواته ، إن المهارة  
هنا دين ، والصبر جهاد! وكما يقول شوقي :

الحرب فى حق لسديك شريعة ومن السموم الساقعات دواء!

من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذى بلغته الحضارة فى التنظيمات  
السياسية والاقتصادية والإدارية التى تحرك الجماهير ، وتوجهها إلى أهداف مرسومة ...

إن من وراء هذا النجاح تقدماً عظيماً فى دراسة العلوم الإنسانية كلها ، حتى  
كادت هذه العلوم تكون «الشريعة» التى تلتزمها أوروبا فى أحوالها الخاصة والعامة ..  
وهذه العلوم ليست إلا فروع الفلسفة القديمة بعد إدخال المنهج العلمى عليها ،  
أو بتعبير أصح على بعضها ؛ لأن هناك نظرات فى علوم التربية والاجتماع  
والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية ..

(١) سبأ : ١٣ .

وأرى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها فى  
مبادئ الحياة ..

إن ضوابط الشورى هناك نجحت فى محق الحكم الفردى . وإعلاء سلطات  
الأمة ، لم لا نستفيد من ذلك؟

وحماية المال العام - من الساسة المهرة فى اختلاسه ، أو الموظفين المحبين  
للسحت - بلغت منتهى الدقة ، لماذا لا نقلد القوم فى تلك الوسائل الناجعة ..؟  
لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الإنسانية وما نشأ  
عنها .. لأنه يقصر نظره على ما بها من أخطاء ، ولأنه يرى أن هذه العلوم  
تتحدث فى النفس الإنسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلمته فى هذه  
لتواحي كلها ...

ومعاذ الله أن نهمل كلمة الدين فى قضية نفسية أو اجتماعية! إننا نقبض من  
جهود البشر ما يحقق الأهداف التى يتفق عليها العقل والنقل ، وإذا سبقنا غيرنا  
إلى عمل ما يحقق العدالة فتحن أولى به !

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لأنه خطة فارسية ، أو حيلة لم يألفها العرب؟  
كلا ، والحضارة الحديثة - برغم مقابحها الكثيرة - تجاوزت مع العقل والفطرة فى  
ساحات علمية ودستورية واسعة ، من حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها .

وربما يدفعنى إلى هذا أن الدين أصيب بمحدثين عنه يجهلون جوهره ، ويكثرنون  
للمظهر الملصق به ، وليس غالباً منه .

سمعت رجلاً يقول بفخر إنه أفتع أحد الأمريكيين باعتراف الإسلام ، وإن  
الداخل فى ديننا بلغ من تقواه أنه اقتنع بليس الجلباب الأبيض!!

قلت له فى أسى وسخرية : هل اقتنع بليس العقال؟ قال : ما تعنى؟ قلت :  
ما دخل الملايس فى ديننا ، ولماذا لا تترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس  
من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه أنه مسلم؟

إن الإسلام لا يؤخذ من فقهاء البدو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش  
النصوف!







نريد حكامًا لا يعبدون أنفسهم! يسرعون من جنون العظمة وشهوة السلطة، ويعرفون أن كل رئيس يجيء يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء في الحديث الشريف .

إن حكام المسلمين من زمان قريب آذوا الله ورسوله، واستهلكوا شعوبهم حتى فנית أو كادت خصال الإباء والأنفة، لطول إذلالهم لمن أعز الله وأعزازهم لمن أذل الله !!

إن الإسلام وحده هو صانع هذه العناصر التي لا تتم لنا حياة إلا بها، والأمر كما قال الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (١).

ربما استطاعت أم أخرى أن تعيش قصيراً أو طويلاً وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء! لكن أمتنا تحول مزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لا يدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام، وستذهب جميع المحاولات الأخرى سدى، لا محالة .

ثم مَنْ مِنْ أهل الملل والنحل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود في موكب تظله صحائف التوراة والتلمود، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالي والجنوبي هذا الولاء الديني العاصف فما أنكروا له صيحة، مع أنها صيحات جزارين، وديست مدنتنا وقرانا فما رثى لنا أحد !!

فهل كل ولاء مقبول إلا الولاء للإسلام؟ وهل كل حل حسن إلا الحل الإسلامي؟

لقد أن الأوان ليختفى إلى الأبد أولئك الساسة العرب الذين يكرهون الإسلام، ويطلبون من أمتهم أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله، الواقع أنهم ثرثروا أكثر مما يطاق، وطال بقاؤهم أكثر مما ينبغي ..

على أن الحل الإسلامي المنشود يخشى عليه من التزوير في أيام اعتقلت فيها الحقائق، وتجراً المفتون الكذبة على التزوير، وتصوير الإسلام ديناً لا يحترم الشورى مثلاً، أو لا يعترض استغلال النفوذ، أو لا يكثر لهضم الجماهير ..

إن الحل الإسلامي، لا يحتاج إلى عبقرية في تصويره وتصويره، لأنه سهل المأخذ

من مصادر الإسلام المعصومة، والواقع أن العوائق دون تحكيم الإسلام خلقية لا علمية، وأن الحل الإسلامي يعرفه أهل الذكر، ولكن إبعادهم مقصود مرسوم ...

إن «المراكسة» في الصين وروسيا، شكوا من تحكم الفرد، ومع أن نظمهم بطبيعتها استبدادية، فقد قرروا أن تدور شئونهم في وسط جماعي . يتم فيه تبادل الآراء والبحث عن الصواب .. وأسرة الدول الأوربية تأبى أن ينتسب إليها إلا الحكام «الديمقراطيون» .

ليس هناك إلا العالم العربي والإسلامي الذي يعيش وحده في ضباب من الدعاوى والترهات، إنه وحده دون أقطار الأرض كلها هو الذي يقول فيه حاكم : أنا صانع القرار .. وهو وحده الذي يسمع فيه أن الحاكم لا يسأل عما يفعل !!

إن الإسلام غريب في هذا الجو الأسن الكريه، والحل الإسلامي لا يؤخذ من أفواه الجهال والكذبة .



## ٢٦. ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل

### والنفس والمال..؟

ألف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق ، لكننى أرى غير هذا ، فأنا أنادى إلى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزممارات إنذار ، وإنما صوت يشدنى من عقلى .. !

وعندما أنصرف من صلاتى لا أجزى إلا بما عقلت منها!

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية ، تعرفنى أن الله واحد فى الأرض والسماء لأنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١).

وفى القرآن مشات الأيات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة لاستدلاله ، وبعده عن الأوهام والظنون!

وقد أحصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الأبواب ، وترى أنهم هم الناس حقاً! وهل الإنسان إلا عقله؟ ما أصدق قول المتنبى :

لَوْ لَا الْعُقُولُ لَكَانَ آدَمُ ضَيْغَمٍ  
أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة سقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب ، إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق ما يفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم .

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أصبته من العلم وقدرتها على تحويله إلى حضارة مثمرة .. والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى المصحف . أما التخلف العقلى فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف سرا

(١) الأنبياء : ٢٢ .

ولا تدعم حقاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١) .

إن الأمم المتخلفة عقلياً كالأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فى وصاية الكبار حتى ينضجوا! وربما كرهت الأم المتخلفة هذه المنزلة المهينة! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعاً أو كرها ..

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم - لا فى قاماتهم - قصر فشعرت بنخبة الأمل ، لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضرره من حيث أرادوا نفعه ، لأنهم كالدبة التى قتلت صاحبها .. !

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بازدياد المسكرات والمخدرات والمفترقات التى تنال من وعى المرء وكرامته ، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستفهام الرشد واستعداد النور منه سبحانه!!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها ..

ونتقل من صون العقل إلى صون النفس . إن احترام الإنسانية كلها يبدو فى احترام فرد واحد قال تعالى : ﴿مَنْ أَجَلُ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (٢) . وجاء الإسلام فجعل النفس الإنسانية أقدس من الكعبة

المشرفة ومن الأشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام : ... ألا وإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم حرمه يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم ، قال اللهم فاشهد . ثلاثاً ، ويلكم ، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ...

ونظر عبدالله بن عمر إلى الكعبة وقال : ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ، حرمة دمه وماله وعرضه .. !

ومقتضى الإيمان ألا يكون المؤمن مصدر إفزاع أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) المائدة : ٣٢ .

لرسول الله ﷺ «الإيمان قيد الفتك، لا يفتكه مؤمن» يعنى كما تربط الأغلال يدي الرجل فلا يقدر على عمل شيء، يقيد الإيمان يدي المؤمن فلا يعتدى على نفس، المؤمن أشرف من أن يفتك بأحد..!

وفى الحديث كذلك «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا» لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم الله في النار..

ويرى الإسلام من المحافظة على الحياة أن يعتنى المرء بصحته، ويستكمل أسباب عافيته، ويهتم بحواسه. وأعضائه وسائر بدنه، فإن البدن القدير على أداء الواجبات الناهض بشتى الأعباء من أجل لنعم..!

وقد كان من أدعية النبي ﷺ: «اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا» أى استبقها مادامت الأرواح فى الأجساد حتى إذا متنا خلفناها فى أبداننا فورثنا، بدل أن نرثها ونحن على ظهر الدنيا..

ومن المحافظة على الحياة توقي الأمراض، وتناول الأدوية وقد رفض عمر السفر إلى أرض موبوءة بالطاعون! قيل له: تفر من قدر الله؟ قال: أفر من قدر الله إلى قدر الله!

وقد أصاب أمير المؤمنين السنة، وأخذ كلمته أحد العارفين فولد منها هذه الحكمة «الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله».

إن الله يمهّد للإنسان السبيل، وعليه بعدئذ أن يقدم لا أن يحجم، وهذا معنى قول الله فى ذى القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (١).

إن النفس شيء غال، وقد كرمها الإسلام فلم يهنها، وصانها فلم يضعها حتى تؤدى فى الحياة رسالتها.

ويبنى بعد النفس المال، وهو قوام الحياة الشخصية والعامة، فما من أحد يستغنى عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله، ويصون مروهته، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمى كياناتها وتدبر مصالحها، وتستبقى ذاتها.

(١) الكهف: ٨٤-٨٥.

ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته، ونهينا عن جعله بين أيدي السفهاء، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الإفادة منه قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (١).

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الإسلام من صاحبه أن يرد عنه عدوان الغاصبين! ولو بذل دونه دمه!! روى النسائي عن مخارق بن سليم الشيباني أحد الصحابة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يأتينى ليأخذ مالى؟ قال: ذكره بالله! قال: فإن لم يذكر! قال: فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين! قال: فإن لم يكن حولى أحد من المسلمين؟ قال: فاستعن عليه بالسلطان! قال: فإن نأى السلطان عنى؟ قال: قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تصنع مالك تحميه.

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله!!

وإنما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المال، وضرورة حفظه والذود عنه! ترى أیوصى الشارع بهذه الاستماتة فى شيء تافه؟ كلا كلا.. إنه لولا خطورة المال فى الحياة الخاصة والعامة ما فرض القتال دونه.

ومعنى إيجاد المال وتحسينه إيجاد منابعه وتفجيرها، وهل منابع المال إلا الضرب فى الأرض، واستغلال ظاهرها، واستخراج باطنها، واستثارة البر والبحر ليجودا بخيرات الله المودعة فيهما؟

واحق أن المال سلاح رهيب، والسلاح لا يحمى أو يعاب لذاته! ولكن يحمى فى يد الشجاع المدافع عن حقوقه، ويذم فى يد الظلوم المعتدى على غيره!! إنه وسيلة إلى اجنة أو إلى النار، بطريقة استخدامه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَتَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَتَنِيْرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) ﴿ (٢) !!

(٢) الليل: ٥-١١.

(١) النساء: ٥.



## ٢٧. دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني...؟

نظرة الإسلام الأولى إلى القلب الإنساني - أو الضمير كما يقول علماء الأخلاق - فإن سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته إلى الخير ، تعنى الكثير من توفيق الله ورضوانه ، قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. التقوى ها هنا. التقوى ها هنا. ويشير إلى صدره...» .

نعم فالصدر المنشرح بالحق ، المستقر على النهج يؤمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الظهور على كل شيء وتحفه بركات الله ، لأن صلته به قائمة دائمة . . ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليماً أو كيف يكون الضمير نقياً . .

المراء في طفولته ويفاعته قد يحب الظهور ، ويسره سماع الثناء عليه ، وقد يبذل جهوداً شاقة في هذه السبيل . . إن الرياء ليس مستغرباً على الطبيعة البشرية ، فإرضاء الناس هدف حقيقى في المراحل الأولى من العمر ، ثم يكبر المراء وتسمو نظرتة ويتجه إلى الله ، إن المرائى لا يرى إلا الناس ، فهو يعمل لهم ، أما المخلص فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل له .

ويتعهد الدين هذا التسامح ، فهو يوصى بتمحيض العمل لله ، لأن الإنسان إذا أشرك الناس مع الله في طلب الرضا رفض الله عمله!

إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقاً يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنى عليه رؤساؤه أم ضاقوا به ، إنه يحسن الصنيع على أية حال وفى أى وضع .

والإنسان بطبيعته يحب أن يكافأ على عمله مادياً أو أدبياً ، وربما ترك العمل إذا لم يجد له جزاء عاجلاً ، وقد يتراخى فيه أو لا يكثر بإجاده إذا كان الجزاء قليلاً أو مؤجلاً . . لكنه إذا صدق يقينه أحسن أداء واجبه! وأدخر ثوابه عند ربه ، وعد ما يقبضه فى اليوم الآخر أضمن وأبقى . .!

وقد نظر بعض الجهال إلى المال فى أيدي الأشرار ، وكرهوه لأنهم يستعينون به على الفجور والفساد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة فى هجاء المال ، وحسن التخلص عنه! حتى وهم العوام أن المال سر فى كل يد ، وأن البعد عنه غنيمة . .!!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصادر كسبه ، وأسباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الغوغائى بين الجماهير ، فإذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الأرض ، ولا إجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب!

وإذا هم يحسبون الصعلكة تقوى ، والافتقار فى الدنيا هو الاغتناء فى الآخرة ، وسجلوا فى بعض كتب السنة والتصوف أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر!! ونشأ عن هذه الجهالات السائدة فى مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الإسلامى لأن مواهبه الدينية والمدنية تلبدت وفسدت ، حتى الأقطار التى رزقت سعة فى ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الأجانب فى تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها . .!!

إن العقل الإسلامى تحيط به غشاوات سميكة ، ولا بد من تمزيق هذه الغشاوات إن أردنا الحياة ، ولا بد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية ، وهم لا يصلحون لا لدنيا ولا لدين .



عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال للأَنْصار : إنكم ستجدون أثره بعدي ! قالوا : فما تأمرنا؟ قال : أدوا الذي عليكم ، وسلوا الله الذي لكم !!

الواجب يؤدي على وجهه الكامل ، وحسابي على الله والأمر له . !!

إن الانبعاث إلى العطاء يجب أن يكون بدوافع ذاتية ، غايتها استرضاء الله وإن جحد الخلق ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ (٢١)

قال المؤرخون : لاحظ صلاح الدين وهو بقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين في معسكرات الأعداء مخلقة وراءها الدمار والقلق ! وبينما هو يرقب جهة العدو لاحظ أن النار بدأت تشتعل ، ورمق الفاعل - بعد ما بدأ الحريق - بتحيز إلى جند المسلمين ، فأمر فجيء به ، فلما مثل بين يديه قال له : ما اسمك؟ قال الرجل : يعلمه الله ! قال له صلاح الدين مطمئنا : إني أريد مكافأتك ! قال الرجل : لو أردت المال ماجئت هنا ، وانصرف لشأنه !!

هذا جندي باسل حضر الوغى ليقا تل في سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله إليه ، فلما استدعاه السلطان كره أن ينال على جراته ثمنا .. حسبه ما عند الله !!

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الأمة الممزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراغبة إليه ، قامت بعملها في صمت وعزلة وعفة . !

لعل السلطان نفسه كان يضيء الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر أن يشارك في حمل الأحجار على عاتقه بكرة وأصيلا ، ولو شاء لأصدر الأوامر وراقب المنفذين ، إنه أبى إلا أن يسد الشغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه !!

وتتبدر عبارة القرآن في وصف هذه الضمائر البارزة من العلل قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ (٩٢) . سليم من أضرار الغش

(٢) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(١) الليل : ١٨ - ٢١ .

وجنون العظمة ولفت الأنظار ! إن الشخص الذي لا يعمل أو لا يجيد عمله إلا ابتغاء ثناء يسمعه ، أو مال يأخذه لن يعمل شيئا طائلا إذا انقطع الثمن ، وابتعد الناس ! ومعنى هذا أن الخير عنده غرض عابر لا باعث أصيل ، إن قلبه في الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتي إليه ، إنه قلب غير سليم .

وربما خامرت القلب تطلعات دنيا إلى مال أو جاه ، بيد أن الإيمان يطاردها ويبقى الضمير متشبها بربه مؤثرا له وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (٣٣) ادْخُلُوا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿ (٣٤)

إنه ليس غريباً على النفس أن تحب المال واجاه ، بيد أن هذه المحبة يجب أن تنهزم أمام وجه الله وارتقاب جداه !

ولو نقبنا عن أسباب الزلازل التي تهز كيان الأمم لوجدناها تلك الضمائر الميتة ، تلك القلوب التي تبيست ، فهي لا ترشح بنبل ولا تهش لفضيلة ولا تشمئز من قبيح .

وقد ذكرت السنة الشريفة أمثلة للضمير الحي عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوسوس ويسبح بقوة ضد التيار وينجو !!

فعن أبي ذر رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله .

فأما الثلاثة الذين يحبهم : فرجل أتى قوما فسألهم بالله ، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم ، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم ، فأعطاه سرا ، لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه .

وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى ...

ورجل كان في سرية فلقى العدو ، فانهزموا ، فأقبل بصدرة حتى يقتل أو يفتح له .

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشيخ الزانى ، والفقير المحتال ، والغنى الظلوم ...

وظاهر أن الثلاثة الآخرين مانت قلوبهم . فاستمرءوا الرذائل مع ضعف الأسباب التي تدفع إليها .

(١) ق : ٣٣ ، ٣٤ .

ومن صور الضمائر الحية ، ماذكرته أحاديث أخرى ، عن الرجل يقدر على الفاحشة ، ولكنه يدوس مغرباتها ، ويستبقى نفسه طاهرا ، وصلته بالله زاكية .

وصورة هذا الرجل الذى استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل أن يأخذ أجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذى تركه من زمن بعيد!

كان رب المال ، قد أدار الأجرة فى عمله فتمت حتى أمست ثروة! فلما جاء العامل أعطاه الأصل والنماء ، والعامل مدهوش!

إن الإيمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدبانًا صاحبًا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى .!

وبعض الأنظمة تجعل من سلطان الدولة شعبًا رهيبًا يحمل الناس حملا على العمل ، والإتقان! فهل تم ذلك؟ لا ، لأنه ليس فى مقدور نظام ما أن يضع شرطيا مع كل عامل فى الأرض أو فى المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لا يغش ، ومع كل طبيب حتى لا يتهاون ، ومع كل تاجر حتى لا يحتكر ، ومع كل رئيس حتى لا يستبد ويطنى .

وإذا خان الشرطى فهل نجىء له بشرطى آخر؟ قد يقال : إن رفع المستوى الثقافى وتبصير الكبار والصغار بما ينبغى وما لا ينبغى يمكن أن يمنع هذه المحذورات .

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقتربها إلا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وأن النضج العقلى لا يستلزم الطيبة والإخلاص والشرف ، وكم من أذكىاء أساءوا إلى أنفسهم وأممهم .. ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

إن القلب النقى ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للأثرة ، المحب للناس لا يصنعه إلا إيمان وثيق ، وتعلق بالله وحده .

والواقع أن حديث القرآن عن الله سبحانه وتعالى وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، إن ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت إلى الحق والخير .

(١) الجاثية : ٢٣ .

## ٢٨. ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة

### فى بعض الحضارات؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الألمانى «هتلر» يزعم أن الدم الأرى أرقى من غيره ، وأن الشعب الألمانى بطبيعته يرجع غيره من الشعوب السامية - يعنى اليهود والعرب وأشباههم - وتحول هذا الزعم إلى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الألمان ومن على مستواهم .

وهذا كلام خرافى لا وزن له! وإن كان راسيا لا فى نفوس الألمان وحدهم ، بل فى نفوس الأوربيين وأفراد الجيش الأبيض عموما!

إن بنى آدم من ناحية الخلقة يستوون فى أنهم نفخة من روح الله الأعلى حلت فى إهاب من تراب هذه الأرض ، فالبشر كلهم ينميههم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٩) .

لا فروق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر ، إن هذه الألوان اختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف فى ألوان الأزهار والورد ، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة .

بيد أن كثيرا من الناس يسرهم أن يختلفوا من عند أنفسهم هذه الفروق ، وأن يقيموا حولها عصبية ، وأن يجعلوا لها وزنا خاصا فى التقديم والتأخير ، والقبول والرفض!

وقد رأيت البعض يتشبث بهذه الأوهام لأنها رجحت كفته دون جهدها ومنحته

(١) الجثة : ٧ - ٩ .

شرفاً جعله - دون حركة - يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يحسب المرء سيدياً لأنه تكون في بطن معين، ونشأ الناس من ماء مهين، أما هو فمن ماء شريف.

إنه - مع احترامنا لقوانين الوراثة - نقرر أن الوراثة لا تنشئ عظمة ولا تكسب نجاحاً، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعراً مفلحاً من أب لا يعرف شعراً ولا نثراً، وكان أبو العلاء فيلسوفاً متشائماً من أب لا يدري شيئاً من الفلسفة ..

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه في أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة أحببت عبقرية دميماً وعرضت عليه الزواج لينجباً ابناً يرث جمالها وذكاءه! فقال لها الرجل: أخشى أن يرث غياوتك ودمامتي!!

إن القول بأن جنسا ما ذكي بأصل الخلقة، وجنسا آخر غبي بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر، إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب، وهي التي تسمى المواهب أو تقتلها، بل هي التي تحيي الفطرة أو تميتها.

والجنس الأبيض الذي يعمر غرب أوروبا وشمالها، والذي يفرض وصايته على العالم كله، كان أياماً طويلاً يشتهر بالغباوة والانحطاط، وقد نقلنا في كتابنا «مع الله» كلام المستشرق «فيلب حتى» عن تأخر الأوربيين الحضاري وتفوق عرب الأندلس عليهم ... في الوقت الذي كانت فيه جامعة «أكسفورد» ترى الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة ... وبلدنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال - هكذا كان أبائنا يسمون سكان أوروبا - وفكرتهم عنهم ما ورد في كلام عالم «طليطلة» صاعد القاضى المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم: أن إفراط بعد الشمس عن مسامة رءوسهم يرد هواءهم وكشف وجوههم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلطهم فجأة! فعظمت أبدانهم وإبيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم وانعدمت دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلاهة، وفشا فيهم العمى والغباوة!!

أرأيت هذا الوصف؟ إنه لأهل أوروبا الذين يقودون العالم الآن، وليس للهنود أو الزنوج أو العرب .. أو بقية العالم الثالث!!

والعالم اليوم ينظر إلى هزائم العرب أمام اليهود، ويتسم ساخراً ..! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجين اليهودي ويبرءون منه، ويقولون لنبيهم في أول قتال له مع الوثنية: لا تقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون!

بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، إن خضت بنا هذا البحر خضناه معك، ما يتخلف منا أحد!!

إن الإسلام بين أن الأفراد والأجناس يصنعون يومهم وغدهم بأنفسهم، وهم في سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق، ﴿إِنَّهَا لِأَخْذَى الْكَبِيرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِدُمْ أَوْ يَتَأَخَّرَ (١)﴾ فقد يسبق الأسود في الدنيا والآخرة، أو يقع العكس! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس، وتطيش كفة آخر من أبناء الرسل، أو انعكس ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ (٢)﴾.

وجاء في السنة أن النبي ﷺ نبه قومه: لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم وقال: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وهذا مصداق الآية الشريفة ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (٣)﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ (٤)﴾.

ومع كثرة ما نبه الإسلام إلى مبدأ ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ (٥)﴾ لوحظ أن العرب يغالون مغالاة منكرة بالأنساب والحرف، ويجعلونها محور تقدير جائر وعصبيات عمياء.

الزراعة مهنة تافهة، وكلمة فلاح لامرئ نازل المرتبة، وقد كان الفرزدق يهجو جريراً بأن أباه حداد! أما هو فإن الذي سمك السماء بنى له بيتاً دعائمه أعز وأرفع! بم؟ بغير شيء!

(٢) الأعراف: ٩٠، ٨.

(٤) الأحقاف: ١٩.

(٥) الحجرات: ١٣.

(١) المدثر: ٣٥-٣٧.

(٣) المؤمنون: ١٠١.



وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربي ، بل على جانب من الفقه الإسلامي ، فإذا عدد كبير من رجال الفقه يرون أن الهاشمية لا يكافئها عربي عادى ، وأن العربية لا يكافئها أعجمي ، وحكم القضاء الشرعى بتطبيق فتاة من أسرة شريفة التسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة «المؤيد» المشهورة .

أما حديث الرسول ﷺ : «إذا اتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» فقد وضع على الرف!

وكما تسلت هذه التقاليد إلى ميدان الفقه تسلت إلى ميدان الحكم والسياسة ، فكانت عصبية القبائل قديما وعصبية الأسر حديثا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ .

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الإسلامى وانهيار الحضارة الإسلامية عموما ، فتكون هذه الجاهليات من أبرز العلل .

والى يوم الناس هذا لاتزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب! ذلك فى وقت يشيع فى أرجاء العالم تنافس لا حدود له فى البحث العلمى والإنتاج الغزير ، وتحجود السلع ، وكشف المجهول ، ومراقبة الخصوم ، وكسب الأصدقاء ، إنه تنافس ترتبط به مصائر أم ومستقبل رسالات! ترى ما موقفنا؟

جاء فى السنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ألا أنى جعلت نسبيا وجعلتم نسبيا جعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبستم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان! فالיום أرفع نسبى وأضع نسبكم، أين المتقون؟»

وعن جابر خاطبنا رسول الله ﷺ فى أواسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد! ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال: فليبلغ الشاهد الغائب...!»

وروى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «ليبتهين أقوام عن الفخر بأبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحج جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدحرج النتن بأنفه! إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية. أى كبرها. وفخرها بالأباء، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى، الناس بنو آدم وادم من تراب...!!»

## ٢٩. ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة،

### السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها،

### كالرسم والنحت والتصوير؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر ، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضنى والتجارب الغالية! ولم يكن عجبا أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية فى ترقية نفسه وترقية معاشه ، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف فى تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس!

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الأقدمون! الأطعمة الأنعم ، والأشربة صنوف ، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة ، وأدوات النقل أغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان التى كانت تغنى فى مقاصير الأمراء انتقل صوتها إلى الأكواخ ، ونام على لحنها العمال والفلاحون ، والمرء فى المشرق يكلم صاحبه فى المغرب بثمان ميسور ، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة أعلى ، وملكوا غدا أنصبة أكثر .!

ومع هذا كله فالأعصاب مشدودة ، والأطماع طاغية ، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاسد الأفراد والأقطار أشعل البغضاء هنا وهناك!

وقيل فى وصف العالم : إن عضلاته أكبر من فكره ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويجحد حقه ، ويمارى فى لقائه ، ويظن أن هذه الدنيا كل شىء ، فلا امتداد لوجود آخر ، ولا حياة إلا هنا .!!

وأنا رجل مسلم أحب الحياة وأبتهج بطيبتها! إن الله استضافنى فى كونه وأطعمنى خيره فمن السفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلك أن أضن بشكر المنعم!

إن الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب إلا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثمن فادح ؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١) .

على ذلك الأساس أنظر إلى ماقدمته الحضارات قديمها وحديثها ! إنه - كما علمنى الإسلام - لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢) ؟

ومن ثم فالأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بنص قاطع ، والواقع أن نفرا من سوداوى المزاج أولعوا بالتحريم ، ومنهجهم فى الحكم على الأشياء يخالف منهج نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن أثما ، فإن كان أثما كان أبعد الناس عنه ، روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والأديرة ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم . »

وقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتليفزيون» وغيرهما من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وأن المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار . !

لقد كان من المستطاع أن تتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة وتذوق الآداب الرفيعة وحماية الأخلاق ، ودعم لتقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن تدرب الألوف على إتقان حرف نحن محتاجون إليها ، وأن نرفع مستوى الأداء لأشغال كثيرة ، فإن البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا وأوقفت مسيرتنا ، إن وسائل الإعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها انتكليف لأن غيرها يشدها .

(١) سبأ : ١٣ . (٢) البقرة : ٢٩ .

قد يفهم من ذلك أنى أحارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس .. لا ، ولكنى ألحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغنى كثيرا ، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ! وما نحارب إلا غناء هابط المعنى واللحن .

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الإطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (٣) وَإِذَا تَلَّيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا ... ﴿١﴾ .

ولعمري أن من يشتري جد الحديث أو لهوه للأسباب المذكورة فى الآية جدير بسوء العقاب ، أما من يريح أعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للآية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للإضلال فهو مجرم .

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عددا من العلماء يحرمه ، وإلى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى إلى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعارف ..

بيد أنه ليس من الضروري أن تجتمع هذه العناصر كلها عند سماع أغنية . وعلى أية حال فإذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما إذا برئ منها فلا شىء فيه .

والموسيقى كالغناء وقد رأيت فى السنة أن النبى ﷺ مدح صوت أبى موسى الأشعرى - وكان حلوا ، وقد سمعه يتغنى بالقرآن - فقال له : «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» ! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك ..

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج ، ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها؟

(١) لقمان : ٦ ، ٧ .

على أن الألمان تختلف في تأثيرها وصدادها النفسى ، فإذا كان هناك مجال  
لاعتراض فعلى الأصوات الختنة والألمان الطرية المائعة .

وتعود إلى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجة إلى الكثير من الجد والقليل  
من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لا يمكن تحويل الفنون إلى عوامل  
للبناء لا للهدم ، ولإثارة المشاعر النبيلة لا إهانة الغرائز الدنيا .

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : المجسم الذى يصنعه المشالون الآن  
لأغراض شتى! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق وأقمشة وغير ذلك .  
والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والأمن والعلوم الكونية  
والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ، والأصل فيه الإباحة لحديث مسلم  
«إلا رقصا فى ثوب» ، ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجرة كتابة المصحف ، فقال :  
«لا بأس إنما هم مصورون ، وإنهم إنما يأكلون من عمل أيديهم» .

ولم يقل أحد إن صورة الوجه فى المرأة محرمة ، ولا يقول أحد إن إثباتها بطريقة  
أو بأخرى تحول المباح إلى محرم .

ولا يحرم من هذا النوع إلا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الإسلام كصور  
بوذا ، أو إبراهيم ، أو صلبان النصرى ، أو أى شعار دينى يخالف التوحيد .

كما يحرم أى تصوير يخل بالأداب ، ويحرك الغرائز إلى المعصية .

أما التماثيل المجسمة فإن النصوص الواردة تنظاهر على رفضها ، ما لم تكن  
الاعيب للمصيبة أو عرائس هزلية ، كحلوى المناسبات المختلفة ، فإن أحدا لا يفكر  
فى توقيرها أو عبادتها .

ولقد رأيت بعينى من يعبدون هذه الأصنام فى جنوب آسيا ، ورأيت فى مصر  
من يحيى بخشوع تماثلا لعبد الناصر!! وذلك أثناء نقله من مكان إلى مكان . !!

وأعرف أن هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما  
أو كان رسما على ورق ، وأخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملاساتها  
سببا فى ضياع الدين والدنيا معا!

ولنضرب مثلا بالمرويات التى جاءت فى قضية البناء! روى الشيخان عن خباب  
ابن الارت قال: إن المسلم يؤجر فى كل شئ ينفعه إلا فى شئ يجعله فى هذا التراب!

وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «التفقه كلها فى سبيل الله، إلا  
البناء فلا خير فيه»!

وأخرج داود عن أنس أيضا أن رسول الله ﷺ قال : «أما إن كل بناء وبال على  
صاحبه إلا ما لا بد منه» .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : مر بى رسول الله ﷺ وأنا أطين حائطا  
من خص ، فقال : ما هذا يا عبدالله؟ فقلت : حائط أصلحه! فقال : «الأمر أيسر من  
ذلك» وفى رواية: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»! يعنى الموت أو الساعة!! والحديث  
رواه أبو داود وصححه الترمذى!!

هذه الآثار كلها لو أخذت على ظاهرها ما بنيت مدينة ولا قرية! ولعاش الناس فى  
أكواخ لاستر العورات إلا بجهد!

والواقع أنها واردة فى المكاثرة والمفاخرة والاستطالة على الناس! وبناء القصور  
جائر بلا ريب!

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقا يحرمون بناء القصور؟

إنهم فى بعض البلاد لا يزالون يرون الصورة فى التليفزيون محرمة ، وأقمار  
الأجانب تلتقط الصور لنا فى أيام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى  
أولا ندرى .



### ٣٠. كيف أعلن الإسلام حقوق الإنسان...؟

خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان! ومع أن الإنسان يعاني على الأرض ما يعاني فهو مع بنى جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (١).

ولكن التأمل في تاريخ البشر يجد أن جماهير كثيفة طحنها الذل والضياع! ربما أهزلها الجوع والدواب تجد ما تأكله! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة أسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد!

من الذى أنزل بالبشر هذه الكوارث؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن، لم يفعل ذلك ماء ولا هواء!

إن الذى فعل ذلك بعض البشر، ناس لديهم فضول سلطة أو ثروة، استغلوا سلطانهم وغناهم فى إيذاء الآخرين والحيف عليهم.

ومضت قافلة البشرية من قديم تعسف الطريق، وتكاثر الوحى، وتعارض الإنصاف، وتدفن الأخلاق، وتفرض الأهواء... وأخيرا استطاع نفر من أولى العزم وحماة الحقيقة أن يقلعوا الأظافر الحادة، وأن يروضوا الطبائع للنهمة، وأن يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمي الضعاف، وتصون الحقوق فى أسلوب مفصل أوحى به سلسلة التجارب الطويلة فى محاربة الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى والانحراف الخلقى.

وعندما ننظر إلى المواد التى تضمنتها هذه الدساتير نعرف بدقة ما هى الحقوق التى يطلبها الإنسان والتى لا يزال الكثيرون يشكون فقدها!

إن المادة الأولى فى الميثاق العالمى لحقوق الإنسان تنص على أن الناس يولدون أحرارا، يتساوون فى الحقوق والواجبات، وكون الناس يولدون أحرارا متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالا لا إعددا ولا تكلفا، بل انطلاقا من الفطرة الإسلامية!

(١) الإسراء: ٧٠.

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرًا نظرية خيالية! فكم من أناس ولدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم، وكم من وظائف تفاوتت القمص فى شغلها، واختير لها من ليس لها بأهل، ولا تسلك كيف؟ فإن ناسا قبلك تجرعوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر أو عاشوا ناكسى رءوسهم لفرط ما حل بهم، إن القدرة التى يملكها البعض ولا يدرك كيف امتلكها - فعلت ماثم ومناكر لا حصر لها، ومع أنه الله - وهو المقتدر الأعلى - لا يظلم أحدا فى الملكوت الذى تفرد بحكمه، وقال: (يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى فلا تفعلوا)، مع ذلك فإن ملاك السلطة والثروة دأبوا على الظلم فى أقطار كثيرة، وبعد لآى قدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التى وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرة...!!

إن حقوق الإنسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد، فعندما نؤمن بالله الذى لا يعبد غيره ولا يشرع غيره ولا يحكم غيره، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية!!

نعم، إن الإيمان بوحداية الله وقيامه على خلقه وتديره لكل أمر، والإحساس بأنه - وحده - لضرار النافع الخافض الرفع المعطى المانع، إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالي بطواغيت الأرض كلها، لأنهم مهما فحش سلطانهم ليسوا إلا عبيدا لربه.

ونلاحظ أن القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مرة، ذلك لأن الفرعنة مريض نفسى شائع بين الحكام المستبدين، وتأمل قول فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (١) وقوله للسحرة لما آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَنَّكُمْ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ (٢). إن ذلك الفرعون السخيف يرى

ألا رأى إلا رآه! فهو وحده الذى يصنع القرار! ويرى أن من اعتنق رأيا قبل أن يستأذنه مخطئ متمرد!! إنه ملك الضمائر والسرائر، والناس عبيد إحساناته...!!

ولكى تبقى الإنسانية هذه اللوثة: شددت الدساتير الحديثة فى أمر الشورى - وإلزام أولى الأمر بها، كما وضعت قيودا جديدة على التصرف فى المال العام ومنع العيث فيه.

(٢) طه: ٧١.

(١) غافر: ٢٩.



وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل إنسان في محاكمة عادلة ، فلا يحبس أو يعتقل أو يؤذى جوراً وطفياناً ، وإنما يبقى إنساناً مصوناً حتى يصدر القضاء التزيه حكماً عليه فيؤخذ به وحده!

إن الرسول رأى وحشياً الذى قتل عمه حمزة أحب الناس إليه فما استطاع أن يسىء إليه بكلمة بعدما أسلم .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً كان قد قتل أخاه فى الجاهلية ثم أسلم ، فقال له عمر : والله لا أحبك! قال : أذلك بمنعنى حقى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا .. قال : لا حرج إذن ، إنما يأسى على الحب النساء!!

الحق أن سنة الرسول ﷺ وتقاليدهم الخلافة الراشدة كانت غودجا أعلى لاحترام الإنسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبى يدعو من له مظلمة عنده أن يقتص منه ، ويأخذ حقه! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة - خصوصاً قبيلته - للدفاع عنه ، حقناً لدماء من استباحوا دمه!

ولو كان فى الحكم رجل آخر لأهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه!!

فى هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ إلى رجل منهم يقول فى أرض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده! جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام!

كانوا يدركون أن الوجه الآخر لكلمة التوحيد هو حقوق الإنسان ، الإنسان الذى لا ينحنى إلا لربه وحده!

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفذ لتكوين الأمة المسلمة العارفة بربها السيدة فى وطنها التى لا يجار عليها ولا يستباح حماها ، وقد كره الإسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمن أن يكون حمى الأنف عزيز الجانب!

فإن ضاقت به أرض فليرحل إلى غيرها ، وليبق كما كتب الله له قويا أبيا ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ...﴾ (١)

(١) الزمر : ١٠ .

على أن الرحيل لا يسوغ أن يكون فرارا من مقاومة ممكنة ، جاء فى خطبة لأبى بكر الصديق . . . إنا سمعنا رسول الله يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب» . أو أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدر من على أن يغيروا فلم يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب» .

والواقع أن الظلمة من أجبن الناس ، ويوم يحس أحدهم أنه إذا لطم أحداً ارتدت اللطمة إلى خده ، فكر ألف مرة قبل أن يعتدى . إنهم لا يزارون إلا فى الخلاء ، ولا يمتدون إلا فى الفراغ والويل للشعوب الجبابة!!

للإنسان حقوق سياسية تجعده ينقد أى خطأ من السلطات كلها عليها وديها دون أن يلحقه أى ضرر ، وله أن يتولى أى منصب تؤهله له كفايته دون أن يقفه عائق ما . وأساس ذلك أنه ليس لأحد بعد رسول الله عصمة تعلو به على النقد ، وأن المناصب أمانات ينالها الجدير بها ، ويبعد عنها من لا يستحقها .

وللإنسان حقوق مالية تفرضها له الإخوة العامة بين المسلمين ، وقد أشرنا من قبل إلى أن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه! وذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس أزمة أن عمر قال : «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمطر فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم» .

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعا ، ميسور الأخذ ، يستنير به الذكر والأنثى ، والغنى والفقير ، فطلب العلم فريضة كما جاء فى السنة الشريفة ، وما تنضج ملكات الإنسان ، ويخصب تفكيره وشعوره ، إلا بأمداد لا تنتهى من المعرفة . . !

والمستغرب أن الإنسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيداً عن دينه وينبت فى غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكاهم وتبعدهم إن سئمته! أما عندنا فالشعوب تفاجأ بحاكميها كما يفاجأ المريض بعلة لا يعرف كيف الخلاص منها!

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الألوف غضبا فى كل عاصمة إلا فى العواصم الإسلامية ، لأن التظاهرات ممنوعة! من يبرى؟ إن الشجا يبعث الشجا ، فقد تحول هذه التظاهرات ضد أحكام بفعل فاعل!! فالأفضل أن تمتنع ، والرؤساء الغبيون سيؤدون الواجب!

### ٣١. هل مسؤولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله.. كيف؟

معرفتي بالإسلام تجعل ولائي للناس كلهم جزءاً من ولائي للدين الذي أحببته! فأنا لا أشعر بانشطار في هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ في أثناء الدروس يقول : نحن المسلمين أمة الإجابة ، وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة! قلت : ما معنى هذا؟ قال : إن محمداً ﷺ دعا العالمين إلى الله ، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١) فنحن أمة الإجابة!!

أما غيرنا مدعو مثلنا ، ولما يجب بعداً لعل النداء لم يصل إليه ، أو لعله وصل إليه مشوها لا يحرك دواعي القبول ، وأيا ما كان الأمر فهو مدعو!

وعلى أن أبلغه ما يجهل ، وأن أثير فيه دواعي التصديق ، لقد عرفت الحق قبله ، فأمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيراً مني لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض على أن أكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، وإلا كنت مسئولاً عن إضلاله ، أو حاملاً أوزاره؟!

ومن المحزن أن عدداً من علماء المسلمين شغله الترف العقلي فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، وأن عدداً من حكام المسلمين شغله المجد السياسي ، فما أحسن خدمة الحق ولا جذب الانتباه إليه! ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الإجابة وأمة الدعوة كانت مليئة بالخصام ، بل كانت مخضبة بالدم!

قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية؟ وأجيب للفقير : لا .. لا تنس أني حسن الظن بالفطرة الإنسانية نفسها ، لأنني مسلم أعلم أن الصفة الأولى لديني أنه دين

(١) آل عمران : ١٩٣ .

الفطرة! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدركوها .. ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة مني أو أكون أنا قريباً منها .

ولو خلى المرء وفكره لاتجه إلى إله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لأثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والإخاء على الأثرة ، والنصيحة على الغش!

إنني حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادي أنها كالثمر الذي ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، إن هذه الأمراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كي يحموا محاصيلهم ، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الأوثى الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائغين!

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله ، والحياة مادة؟ أو سمعوا أن الآلهة شركة مقرها جبل أولب أو صحراء الجزيرة أو فوق السحاب؟ إنهم يكبرون زائغين .

أتراني أدافع عن ذلك الانحراف؟ كلا ، وإنما أذكر الواقع المجرد ! والذي أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها حق الاعتراض على الباطل الذي يعرض أو يفرض عليها ، وأن هذه الخصائص من القوة حيث يعد إهمالها تقصيراً سيئاً وأساساً لمساءلة عادلة يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١).

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافة ، ويتشبت بالحقيقة ، يجب أن يرفض الضمير البشري الإثم ويتشبت بالبر والطيبة .

(١) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٤ .

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة، جاءت نجات من الخارج لمعاونته كى يؤدي وظيفته، ويبقى الإنسان إنساناً، يعرف ربه ويؤثر حربه!!

وإذا كان الوحي الإلهي غير كاف في إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده، أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترقق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاهـا ومناشدته الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَيْمَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (١).

ومع ذلك فالفطرة وحدها لا تخطئ في كل شئ! إنها تخطئ وتصيب، وتجور وتستقيم! ودورنا نحن المسلمين أن ندعم الصواب، وأن نوهن الخطأ، وأن نذكر بما تنوحي من حق.

وفي ظلمات الجاهلية الأولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضعفين يجار عليهم في الحرم، وتغصب حقوقهم، فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف، وييقوا إلى جانبه حتى يرضى، ذلك هو حلف الفضول الذى تم في دار عبدالله بن جدعان.

وبعد ظهور الإسلام ونزول الوحي، ذكر النبي ﷺ هذا الحلف بإعزاز وولاء وقال: لو دعيت به في الإسلام لأجبت! نعم إن الإسلام الذى جاء به هو الإنسانية في صورتها الوسيمة، ونحن - انبعثنا من هذا المعنى - نرى لزماً علينا في الميدان الدولى أن نحارب التفرقة العنصرية، وأن نخاصم الاستكبار بالقوة، وأن نقر عيننا بانتصار العدالة، وأن نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله.

إننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم «لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الإنسانية التى تجعلهم يرقبون الأحداث في العالم، فإذا وجدوا ظلماً شهروا به، ومزقوا الأستار عنه، وألبوا الدنيا عليه.

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم لقائل «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فريضها كان كمن شهدها!!

إن الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان، ومن أى الناس كان. وأذكر أننى لم أعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الأسرة الجديدة فى الصومال، إلا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع... إن أغلب الإذاعات الإسلامية والعربية أثرت الصمت..!!

قلت: هؤلاء الساكتون أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، أما الأجانب الغاضبون للظلم فيهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر! إن هلاك الأجيال على ظهر الأرض يجيء من شيوع الخبث وسكات العارفين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾.

والانتماءات المزورة لا تخدع ذالـب، كم من متممين إلى الإسلام لو تفرست فى أعمالهم ما وجدت أثراً لفطرة سليمة، أو تقوى حقيقية، وكم تجد مسالكهم إلى الإسلام بعينه ولكن العنوان مفقود..!

أعجبتنى نظم الشورى فى الغرب، ورأيتها تطوراً جيداً لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديماً... فإذا أذنب لولاء الجور الذين أهانوا الإسلام وأمنه يقولون فى صفاقة نادرة: هذا اقتباس أجنبى، والشورى عندنا لا تقيد حاكماً...!!

وتأملت فى أحوال القائلين فرأيت ناساً يخزى بهم الحق، وتستخفى المروءة، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة، وتدين شائته، فقلت فى نفسى: الأوربيون فى نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة، وهؤلاء العرب قلدوا الحجاج والمعصم وبقية السلاطين..!

ما أكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة..

على أن الإنسانية فى غيبة الوحي تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى كما زاحمت الفطرة غرائز وأهواء جامحة، والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها

نقائص ونقائص كثيرة .. وربما اختلف الناس فى مفهوم العدل ، بل فى مفهوم الفضيلة والرياسة ، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع فى وجهات النظر .

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع إلى وحى الله والاستهداء به فى مشاهدات الظنون ، ومتشعبات الهوى ، إنه لا يد من دين لدينا الناس .

ونحن المسلمين غلك الوحى الخاتم ، ومن حقنا وحدنا أن نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فإن كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التى يفتقر إليها البشر ، ليوفوا بحق الله أولا ، ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين فى هذه الحياة .

بيد أن الناس لن يسمعوا حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذى لدينا ، وما بقينا - على غنانا - تتسول من الشرق أو الغرب برامج إصلاح وضرورات حياة .

فلنستعد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق إيماننا ، ولنتمسك بالخصائص التى زكت وارتقت بها أمتنا ، وهى ما قررتها الآية الكريمة : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

إننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم ، إننا الجبهة الأولى فيه ، فلما أزرينا بأنفسنا أزرى بنا الآخرون ، وطريق العودة مهمل لا مسدود!



## ٣٢. ما تأثير القرآن فى الفكر الإنسانى ..؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافى الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليطم دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك ..

وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولا عقلاً سليماً وفكراً مستقيماً ، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟

إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء تحيى أولاً ، ثم تحيى الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك ..

وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهاب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وأن يعيدوا اليقظة إلى عقولهم المغيبة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (١) .

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢) وكان النبى المكافح لإزالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الأعمى ﴿ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ... ﴾ (٣) .

لا بد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون إليها! والحق أنى لم أقرأ كتاباً منسوباً إلى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم ..

إنه يخاطب الإنسان هكذا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَفُصِّحُ



الْأَرْضُ مُخْضَرَّةٌ... ﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مَسَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا... ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ... ﴿٤﴾

لعمري ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون في عصرنا بالمادة وما وراء المادة...

وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين في الشهادة بوحداية الله وعدالته كما جاء في الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥).

وبديه أن العلم هنا ليس العلم النظري الجاف، لا، إنه علم صادق، مطابق للواقع، يمهد لما نسميه العاطفة العانلة! ثم تثبت به وتتعصب له، فلا نرخص قيمته ولا تتنازل عنه، إنها حياة أن تتخفف من الحق عند ثقل الأعباء، أو نستدير له إذا أرهقنا الأعداء..!

وفى القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه، ولنختار هذا النموذج! يقول الله سبحانه وتعالى معرفا نفسه لعباده: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾

(١) الحج: ٦٣. (٢) الحج: ٦٥. (٣) الفرقان: ٤٥. (٤) النور: ٤٣. (٥) آل عمران: ١٨. (٦) المؤمنون: ٧٨ - ٨٠.

هذه إنارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق، ومنهج القرآن في الحديث عن الله جدير بالاحترام كله، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له: فكروا! أنظن الشمس عقدت اتفاقا مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟ أنظن كلتيهما حددت المدار الذي يحصها، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزها؟ إن هذه الأجرام السابحة في الفضاء لا تعقل شيئا، وإنما تديرها حكمة.. (أفلا تعقلون؟)

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

هذه عقيدة التوحيد، وتلك أسانيد العقلية، تابعت في سياق صريح قاطع بثبت لله كل كمال وينزهه عن كل نقص، ويسند إليه الملائح التي تبغى له، وتليق بمجدها! حسنا، فهل وقف الأمر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه؟ لا لقد جاء بعده تيار عاطفي يدفع إلى البراءة من كل شرك وجهل، ويخوف من عواقب هذا الانحدار، جاء هذا التيار في صورة استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذي سينزل بالشاردين المعاندين، وغضب الجبار محذور، ومن شمائل العبودية أن تتوقد، ونأى عن أسبابه ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥)﴾.

والغريب أنه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها حملا، يقول الله لنبيه ﷺ: تمهل، وتذرع بالحلم، وقابل بإحسان من يسف ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)﴾.

هذا نموذج من عشرات تنبئ عليها السور في القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية، والمستشرقون يرون أن القرآن

(١) المؤمنون: ٩٠ - ٩٣. (٢) المؤمنون: ٩٥. (٣) المؤمنون: ٩٦ - ٩٧.

المكى يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر .. فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ!!

ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان، إلا هذا القرآن، إن التفكير فريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد

ومجال التفكير هو فى العالم المادى، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الأمر إلى ما يقبله فى دينه ودنياه، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١).

أولو الألبياب هنا يتفكرون فى خلق العالم! ويستنتجون من قوانينه المطردة، ونظامه المتناسق أنه مخلوق لرب حكيم، فلا عبث ولا فوضى ..

وفى أول السورة نفسها ورد ذكر أولي الألبياب على نحو آخر، إنهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها، إننى شخصياً «أشعر» بأن الله ملك مستو على عرشه، لا يندشئ عن سلطانه، ولا يبعد أمر عن حكمه! لكن كيف ذلك؟ لا أدري!

أنا لا أدري علاقة روحى بجسدى، فكيف أدري استواء الله على عرشه!! الأفضل أن أعجوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع!!

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢) على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولاً للمتناقضات! وكما قيل: ما يعز على العقل فهمه شئ وما يحكم العقل باستحالته شئ آخر ..!

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١ .

(٢) آل عمران: ٧ .

وقد حارب القرآن الأوهام، وكم يعيش الناس صرعى أوهام! وحارب الظنون، وكم من ظنون توارثها البشر، وجعلوا منها عقائد مقدسة، وما كانت يوم وجدت إلا شعائعات لا أساس لها .. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١) .

ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى أن تتبع ما لا نعلم وأن نتأثر بما لا أصل له، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها فى تبين الحق، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٢) ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم المنطق، وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد، فترى الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) بل إن ذلك يراعى عند قصص الأولين، وذكر أسباب الخروج على الضالين المستبدين، فقد جاء على ألسنة الفتية أهل الكهف ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ...﴾ (٤) أى بدليل واضح مقبول!

الحق أن أثر القرآن الكريم فى الفكر الإنسانى عميق، إنه هو الذى أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل!



(٢) الإسراء: ٣٦ .

(٤) الكهف: ١٥ .

(١) يونس: ٣٦ .

(٣) المؤمنون: ١١٧ .



ولا أدري بدقة كم آية نسخها في صفحة واحدة!!

وقد وصل بعضهم بالآيات المنسوخة إلى بضع مئات ، وهذا كلام منكر ، وقد رفضه الراسخون في العلم ، والشبهة التي قامت في ذهن الخازن - غفر الله له - أنه ظن آيات الجهاد تعارض الآيات التي ذكرها ، وهو ظن مستبعد! ..

بل إن البعض يرى قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> ناسخاً لقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ <sup>(٢)</sup> كأن بين الآيتين تناقضاً ، ولا تناقض إلا في دماغه هو!!

لقد رأيت القائلين بالنسخ يتورطون في مهازل ، وعلة هذا أنهم بعيدون عن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة في طول القرآن وعرضه ، أو كان استكشافاً للوحدة التي تشمل أجزاء السورة ، والتي تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم ، متعاقبة المعاني والأهداف ..

وعلى أية حال ، فما من آية في كتاب الله قيل بنسخها إلا كان هناك قول آخر بإحكامها ، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَانِعٌ صَابِرٌ يَغْلِبُوا مَانِعِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> قال كثيرون : كان الحكم الشرعي أن يثبت الواحد لعشرة من الأعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين!

وقال المحققون : الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد أمام عشرة مادام قادراً صابراً آملاً في النصر أو راغباً في الشهادة ، على أن له رخصة أخرى إن عجز ، وهي أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو أبداً دون ذلك ... قالوا : والرخصة هنا كقصر الصلاة في السفر ، فالقصر في السفر لا ينسخ الإتمام في الإقامة ...

وما دام لم يرد قول بنسخ إلا ورد معه قول بإحكام ، فلنستبعد إبطال الآيات ولنقرر أنه لا نسخ في القرآن الكريم أبداً ، إلا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج في التشريع .

قد يقال : أليس يقول الله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ... ﴾ <sup>(٤)</sup>

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق في تفسير هذه الآية ، وتقلت رأيه مع تعليقات لي في كتابي «نظرات في القرآن الكريم» ، وخلاصته أن الآيات نوعان تكليفية وتكوينية .

والمقصود بالآيات التكوينية خوارق العادات التي يجريها الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

أما الآيات التكليفية ، فهي كلمات الله المتضمنة هداه لعباده ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ <sup>(٣)</sup> يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا <sup>(٤)</sup> وقوله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

والنسخ يقع في الأولى ولا يقع في الأخرى ، فإن المعجزة التي تصلح لامة ، لا تصلح لأخرى ، ولا شك أن المعجزة الأخرى ، التي أيد الله بها خاتم أنبيائه تغاير الخوارق الحسية التي أيد بها الأنبياء السابقين .

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية محددة ، وجاء بعد قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَهَا ... ﴾ الخ . مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ <sup>(٦)</sup>

بل إن آية ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ... ﴾ اتصل بها قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ <sup>(٧)</sup> ؟ وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس في آيات تكليفية أو أحكام شرعية ، وإنما هو في حقيقة المعجزة التي تصحب رسالات المرسلين وتشد أزرهم أمام أعدائهم ، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الإنسانية التي ميز الله بها محمداً ﷺ ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال!

(٣) الجاثية : ٧ ، ٨ .

(٦) البقرة : ١٠٨ .

(٢) الإسراء : ٥٩ .

(٥) البقرة : ١١٨ .

(١) الأنعام : ١٠٩ .

(٤) يوسف : ١ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

(٤) البقرة : ١٠٦ .

(١) التغابن : ١٦ .

(٣) الأنفال : ٦٦ .



### ٣٤. هل الاستدلال القرآني في قضية الألوهية على

#### الوجود أم على التوحيد؟

إن الطفل الذي يودع في أحد الملاهي قد يفكر في أبيه عندما يكبر، وقد يبحث عنه، ولكن لا يجري في خاطره أبداً أنه جاء الدنيا من عدم، أو ظهر على الأرض من غير أب!!

والبشرية في أغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما أخطأت الطريق إليه، فقد تعبد اسماً لا حقيقة له، وقد تعبد حجراً موهوم الضر والنفع، وقد تعبد عجلاً أو تقديس بقرة أو توله نهراً، وقد يجيء من يرفض هذه الألوهة المزعومة كلها وينكر أن يكون للوجود سيد!!

إن قضية الألوهية في التاريخ الإنساني يكتنفها قدر من الغموض، وجمهرة الأمم رنت إلى إله كبير، ثم رمزت إليه أو تعرفت عليه عن طريق التماثيل، أو الكائنات التي تنتمي إليه على نحو ما، ويخيل إلى أن رفض عقيدة الألوهية من الأساس لم ينجم إلا بعد شيوع التدين الخرافي، ورفض العقل السجود لحجر أو حيوان أو إنسان..

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع في عصرنا الحديث، مع التقدم العلمي وانتشار تدين مغشوش، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا أنصفوها.

وحديث القرآن الكريم عن الألوهية يتسم بالوضوح الشديد، فهو ينفي الشركاء بحلة وحسم، وينفي أن يكون هناك أحد فوق مستوى العبودية لأن له بالله صلة خاصة، لا، هو إله واحد، وكل ما عداه عبد له ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٦) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٥) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٧).

(١) مريم: ٩٣ - ٩٥.

ومن الشائعات التي انطلقت في ميدان النسخ أن هناك قرآناً أنزل ثم سحب! والمعروف في ديننا أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر الذي يفيد اليقين، وأن خبر الواحد لا يثبت قرآناً أبداً، فالزعم بأن قرآناً كان، ثم رفع كلام لا يلتفت إليه..

والقرآن الكريم قد ينسخ أحكاماً جاءت في السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة باستقبال المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (١).

واستقبال بيت المقدس لم يكن ينسخ قرآني، وإنما كان بالهام إلهي عن طريق السنة التي يهدي إليها قلب الرسول الكريم، ولم يكن ذلك اجتهاذاً شخصياً، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ (٢).

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم، منع تسليم النساء المؤمنات إلى قريش، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن إلى مكة، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (٣).

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) البقرة: ١٢٣.

وخلال الحديث عن الوحدة، وكشفه الحسنی، وأوصافه العلی، تشعب الاستغناء العالم عن ربه، وقيامه بنفسه. أى إن شرح حقيقة التوحيد في شبهات الملحدين، وبذلك تتعاقب أدل نسق فذا!

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز، يه سألْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُوْا مِنْ خَلْقِهِمْ يَقُوْلُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُفَكُّوْنَ (١) أوجد العالم من عدم، فهو بارئه ومبدع أن العالم مخلوق أنه برز من العدم إلى عالم... إلخ، إن الصفر لا يصنع شيء العالم كان معدوماً ثم عراه الوجود من غير الخلق! من لا شيء ليس عملاً تافها مغفل! إن الخلق عمل هائل وإذا كان متخصمين مهرة - وهذا عمل دون الخ أجنح إلى خيال بعيد، ولكنني أسأل: لم تعرف لها إلى اليوم نهايات، أفلا يكر والله أكبر!

الأمر هنا ليس نفياً للشركاء! فإن الش يزعموا لأحجارهم شيئاً، والمصابون بجنو خلقوا شيئاً، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ وَلَا يُسَوِّغُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْتَظِرَ مِنَ الْقُرْآنِ هِي مَوْضِعُ الْأَخَذِ وَالرَّدِّ وَالْقَبُولِ وَالْإِنِّ يتناول أوهام الجهال بما يدمغها، وأن يدور

(١) الزخرف: ٩.

(٢) الزخرف: ٩.

القضية ، إنه يبنى العلائق بالله على نحو يربط الناس بخالقهم ، ملك الأسماع والأبصار والأفئدة مدبر الأمور كلها ، الذي لا راد لحكمه ، ولا مهرب من قضائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجير عليه .

ومن رحمة الله بخلقه أنه يفتح عيونهم على آياته ليعرفوه من خلال نظرهم في هذا العالم الذي يعيشون فيه ..

يقول تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

الجملة الأولى فيها تأسيس لعقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والآية كلها تمهيد للحديث عن مجالى الوجود الإلهي في آفاق العالم ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

في هذه الآية تنبيه للعقلاء إلى أن كل شيء في الكون يشير إلى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على أسلوب السرد المجل ، لكننا نرى التفصيل في مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٣) وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله ليلسين (٤) بعد هذا التفصيل لنزول الغيث إلى مترقبه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للإنسان : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾ (٥) ؟ كأنه يقود المرء إلى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بين سمعه وبصره ! هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القدرة ، وهذه مظاهر العلم . وهذه ... إلخ ، كل شيء يشهد لله ويوجه إليه !!

(٢) البقرة : ١٦٤ .

(٤) الروم : ٥٠ .

(١) البقرة : ١٦٣ .

(٣) الروم : ٤٨ ، ٤٩ .

وكما قال للإنسان انظر .. قال للناس : ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِذَا فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وما يعين على فهم الأسلوب القرآني أن نتذكر حقيقة فلسفية معروفة هي أن العالم ليس له من ذاته وجود ! إن وجوده طارئ عليه من الخارج ! أترى المصباح الكهربائي عندما تغمز «الزر» فيضيء؟ إنه لا يضيء أبدا من ذاته ، لا بد من تيار خارجي يسرى فيه ليتوهج ! إنه معد فقط للاستقبال ، وإشعاع ما يجيئه من جهة أخرى ، كذلك الكون ، إن وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من أعلى ، وإذا انقطع التيار الذي يمدد تلالشي ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢) .

وعندما يلتفت القرآن الكريم نظرنا إلى آيات الله في الأرض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الإيجاد والإمداد معا ، ولا بأس أن يضم إلى ذلك إشعارا بأنه الله الواحد ، وأن ما عداه من آلهة مزعومة إفاك مبين ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ... (٤) .

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الأعلى في ثنايا توحيد الله وتمجيده ، فالله أعظم وأعز من أن يكون إثبات وجوده أمرا يفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفتقر إلى البرهان .



(٣) غافر : ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) فاطر : ٤٦ .

(١) الأنعام : ٩٩ .

## ٣٥. ما أهمية القصص في القرآن،

وهل لها أصل تاريخي،

وما الحكمة في تكرارها؟

لابد من دراسة الماضي والتفرس في أحداثه ، فإن هذه الأحداث ليست ملكاً لأصحابها ، وإنما هي ملك الإنسانية جميعاً ، يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ، ويستخلصوا منها النتائج ، يضعوها نصب أعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء ...

وظاهر أن سير الأفراد والأمم يخضع لسنن دقيقة ، وأن ازدهار الحضارات وانطفائها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء! وإنما يقع وفق قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطراداً ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الآثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذولب ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ (١) وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين ﴿ أَقَلَّمْ يَهْدِي لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ (٢) وقال : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣)

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية في عمومها وانطباقها على شتى الأمكنة والأزمنة ، فقانون الأجسام الطافية مثلاً يشمل جميع الأنهار والبحار ، وأنهار الأمم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الأجناس والعصور ، وقد هدد الله العرب

(١) طه : ٩٩ . (٢) طه : ١٢٨ . (٣) الأعراف : ١٠١ .

بالمصير الكالنج إذا بقوا على عنادهم ومكرهم ﴿ ... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (١) .

وسنن الله الكونية لا تحابي أحداً ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهي منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة أحد لأن المسلمين لم يلتزموا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وإن واثته مؤقتاً ظروف مساعدة . قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٢) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (٣٨) ولا تهنؤا ولا تحزنؤا وأنتم الأعلىون إن كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس (١٤٠) .

وقد تضمن لقرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها في تضاعيف القصص التي ذكرها أو في خواتيمها مثل قوله سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يُفْثِرُ الْأَرْضَ لِيُنْصِفَ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥) ... إلخ .

إن القصص لقرآني سرد واع موجه للتاريخ الإنساني ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق! بل لغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع أدب القصة في عصرنا شيوخاً يستحق الدهشة ، وامتلأت الأيدي بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض! وجملة هذه الروايات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون إثارة وضعية .

والبون شاسع بين هذه الأقاصيص ، وبين التاريخ الذي يجسده القرآن الكريم ويغزو به الأبواب والفتائر ليمحو الغفلة ويرفع المستوى ويضيء السبل ، البون بعيد بعيد .

(١) ماطر : ٤٣ . (٢) آل عمران : ١٣٧ - ١٤٠ . (٣) القصص : ٨٣ . (٤) يوسف : ٩٠ . (٥) الزمعة : ١٧ .





انظر مثلاً إلى قصة هود مع عاد، إنك ترى هوداً في سورة الأعراف بدأ هادئاً طويلاً الأناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ (٦٥) قال الملأ الذين كفروا من قومه إننا لَنراك في سقاية وإننا لنظنك من الكاذبين ﴿٦٦﴾

فإذا تأملت في القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبي الخليم يبدأ مندداً بوثنية قومه وحاسماً في كشف كذبهم على الله ومنذراً بسوء المال إن هم بقوا على جبروتهم ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾ (٥٠) يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون (٥١) ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قورتكم ولا تتولوا مجرمين ﴿٥٢﴾

وتفسير هذا أن لقاء أى نبي مع قومه لا يقع مرة واحدة، إنه لقاء يبقى عشرات السنين، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة، بل يأخذ صوراً كثيرة!

وحتى لو وقع لقاء واحد - كما حدث لموسى مع السحرة - فإن كل ما دار من حوار لا يثبت في عرض واحد، بل توزع أجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة...

ومن ثم كان القصص القرآني مجالا رحبا لمعالجة النفوس والجماعات من عللها المتنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحى حتى قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، ليس المهم تحديد موقع، أو حتى تحديد الشخص! فما يعنيننا أن نعرف «هوية» ذى القرنين، أو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى!! المهم تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق.

### ٣٦. ما تفسير الآيات التي قد تصف

الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا؟

مثل ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾

جلست يوماً أفكر: ما أنا بين الناس؟ قلت: واحد من ألوف مؤلفة تسكن هذه الأرض! سألت مرة ثانية: ما أنا بين من سكنوها منذ الأزل ومن يسكنونها آخر الدهر؟ فشعرت بأنى أتضائل، وأن وجودى يصغرا!

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم؟ إن أرضنا التى نحس ضخامتها ذرة محقورة بين أسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة، وما يقدر العلماء أبداً على معرفة حدود هذا الكون، ولا أن يعرفوا ما يزخر به من أحياء...

وشعرت بأنى ازداد تضائلاً...! وقلت: يجب أن أعرف قدرى، وألا أعدو حدى، إن الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية...

وراقبت بعض الحشرات السارحة فى عالمها الخاص بها وقلت: أتدرى عن عالم الإنسان شيئاً؟ أتعرف ما يجول فى فكره؟ أتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب؟؟ كلا كلا أتى لها هذا؟

قلت: إن علمى بحقائق الألوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتى! ينبغى أن أعرف قدرى وألا أعدو حدى! إننى نقطة مغموصة فى مساحات رهيبة من الزمان والمكان، كيف تحاول قطرة فى ترعة أن تستوعب البحار والمحيطات وتشرف على اللجج والأنواء؟

ورحت مع أبى القاسم القشيري أناجى ربي بهذه الأبيات:

يامن تقاصر شكرى عن أياديه	وكل كل لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فرداً.. بلا شبه	علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه	لا كشف يظهره، لا سر يخفيه
لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه	لا حد يقطعه، لا قطر يحويه
لا كون يحصره، لا عون ينصره	وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزلى لا زوال له	وملكه دائم لا شىء يفنيه!!!



العلماء المتأخرون بأنها تعنى القدرة، وهو استعمال مجازى مشهور يقال لا يد لك بكذا، أى لا قدرة لك عليه، أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم لا يؤولون هذه الظواهر بل يأخذونها على الحقيقة. والواقع أنهم لا يمتنعون أصل التأويل، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علمياً متيناً يدل على علو كعبهم فى الفهم، وأنا أحب أن أفسره لكم لأنه ينفعكم فى مواضع كثيرة.

قال: «إنه لما دلت الأدلة القاطعة على مخالفته تعالى للحوادث، كان هذا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي المعروف لنا، فإذا هى مصروفة عن هذا الظاهر، وكأنه يراد بها معنى مجازى، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى فى أغلب الآيات، هل المراد به القدرة، أم الإرادة، أم صفة لا نعرفها؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به إلى صفة معينة وإنما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس؟ كل ذلك سائغ فى النظر، وليس ثم دليل يعين واحداً بخصوصه! لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل، فلنثبت له تعالى ما أراد من كلامه على الوجه الذى أراد مع تنزيهه عن المعنى الذى نألفه من صفات المخلوقين!».

قال: «ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب إليه المتأخرون على أنه احتمال يحتمله الكلام، ولكنهم لا يلتزمون التزاماً؛ لأن القول بالتزام قول بغير دليل، من أجل ذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر، واكتفوا بمعناها الإجمالى المصروف عن الظاهر... أما طريق الخلف - وهو الخوض فى تحديد التأويلات - فإنما ألجأهم إليه - والله أعلم - ظهور بدع التشبيه والمجسمة وغيرهم، فأرادوا سد باب الإبهام، ودفع الوسواس عن العوام، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيراً بما قصدوا، وغفر لهم تحديد ما حددوا».

قال: «وجملة القول أن طريق السلف هو الأليق بالعلماء، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام!!».

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير، إنتى فى دروسى وعظائى أتبع مذهب السلف، وعندما أجادل أهل الكتاب والمادين أنتفع بمباحث الخلف! وفى كل الأحوال أرفض تحريد الفلاسفة، وتحسيم اليهود والنصارى، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير..

### ٣٧. كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع

#### والأرضين سبع مع حقائق العلم التى ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء؟

ذكرت فى أكثر من كتاب أنه يستحيل أن يقع تناقض بين الدين والعلم، فإن العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله، والدين الحق توجيه أت من عند الله خالق هذا الملكوت، فكيف يحدث بينهما تكاذب؟

ما أثار التساؤل يرجع إلى أن الناس سمعت شيئاً ما ديناً وليس بدين، أو سمعت شيئاً ما علماً وليس بعلم! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصياً من أحد المتكلمين فى الدين أو أحد المتكلمين فى العلم، وما أكثر أخطاء الفريقين!

قال لى أحد الناس: ثبت أنه لا حياة إلا فى أرضنا، وأن الكواكب الأخرى ميتة لا حياة فيها! قلت: هذا التعميم خطأ، يمكن أن يقال: لا حياة بشرية، أو لا حياة نباتية، أو لا حياة لكائنات تعتمد على النفس وتعجز عن الوجود فى درجات حرارة معينة!!

ومن قال: إن المخلوقات كلها على غرارنا؟ ﴿لَمَّا أَشْهَدَتْهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضْلِينَ عِزْدًا﴾ (١) إنها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلم فينتطق بالجهل، ويبدو أن الأمر كما يقول العقاد: هناك مقلدون فى كراهية التقليد!

قال: تعنى أن هناك حياة فى الكواكب والنجوم؟ قلت: لا أمتنع أن هناك حيوات أخرى، وأستبعد أن تكون الأفلاك حجارة صماء موحشة تسبح فى الفضاء، ليس على أديمها إلا الخراب!!

إن علماء الفلك متفقون - تقريباً - على أن أرضنا تشبه حبة رمل فى صحراء مترامية الأطراف! فهل هذه الحبة وحدها التى سعدت بالعقل - أو شقيت - وأما بقية الحيات فلا حراك ولا فكر ولا قيمة... هذا بعيد!!

الذى أشعر به من كتابى أن هذه الأفلاك مشحونة بكائنات راشدة، تسبح بحمد الله، وترثى لسكان الأرض، وتأسى لمأسيتهم ومعاصيتهم، وتسال الله لهم المغفرة،

(١) الكهف: ٥١.











## ٣٩. ما الفارق بين القرآن، والحديث القدسي، والحديث النبوي؟

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى، المسجل بين دفتي المصحف الشريف، وهو المعجزة التي أيد الله بها نبي محمد ﷺ، وتحدى مكذبيه! وهو منقول بالتواتر، ومتعبد بتلاوته، ومعصوم إلى آخر الدهر من أى تحريف.

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الألباب والأفتدة، وجاء على ألسنتهم: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى...﴾<sup>(١)</sup>، لا، هذا القرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات، ويكلم به الأحياء!

وقد وقعت الخوارق التي يطلبون نما آمن منهم أحد لأن العناد أعماهم.

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليٍّ رضي الله عنه فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أما إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى..

فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة: ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ (٢)﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

(١) الرعد: ٣١.

(٢) الجن: ٢٠، ١.

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسبق دراسة السنة أو بتعبير آخر: لن يكون فقيها في السنة قصير الباع في فقه القرآن الكريم، والكتاب والسنة معا دعامتا الدين.

أما الحديث القدسي فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية، فليس معجزاً في عبارته ولا وقع به التحدى، ثم إنه لا يتعبد بتلاوته، فلا تصح به صلاة.. وأخيراً لم يصل إلينا بطريق التواتر القطعي، فالأحاديث القدسية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف، بل قد يكون فيها الموضوع كحديث (عبدى أظننى أجعلك ربانيا تقول للشيء كن فيكون). فإنه لا أصل له..!

ويرى البعض أن الحديث القدسي من كلام رسول الله ﷺ، عبر فيه الرسول عن مراد الله تعالى، وكأن لسان الحال يقول كذا، والجمهور على الرأى الأول، وأنه يشبه الوحي النازل في صحف إبراهيم وموسى، أى كلام إلهي غير معجز ولم نكلف بتلاوة ألفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم..!

من غاذج الحديث القدسي الصحيح ما رواه مسلم عن أبى إدريس الخولاني عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال:

«يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..»

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم!

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني!

يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً..

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد



وسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر!

يا عبادى إنصاهى أعمالكم أحصوها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه..

ومن غاذج الحديث القدسى الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى :

«يا بن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى!!  
يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى!!  
يا بن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة!!»

فى هذا الحديث جرعة منعشة للإرادة التى غلبها اليأس من طول ما انهزمت فى الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها إلى الله، وتلزم الصراط المستقيم، فالحديث هنا يشبه قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٢) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾ (١).

وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشىء آخر، نلفت البصائر إليه أن آفة الكثيرين من العصاة هى عبادة النفس! أعنى أنهم يعبدون أنفسهم من دون الله، أو يشركون أنفسهم مع الله، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برئ من هذه الأثرة الغبية، ووقف أمام الله، أو لقيه هاضماً نفسه، بآدى الفاقة إليه وحده، فهو أهل لأن يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السرفى رفض الله سبحانه لآى شىء يعتبر شريكاً له، إن أى شىء يعكر حقيقة التوحيد، مهما كان أمره، بشراً أو حجراً أو مالا أو جاها هو

صدع هائل فى الإيمان!!

(١) الزمر: ٥٢، ٥٤.

أما الحديث النبوى فهو ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حكم أو تقرير، فإن الرسول الكريم إمام الأمة، وأُسُوتها الحسنة، وله عليها حق الطاعة، كما بين الله ذلك فى كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١) ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢).

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ﷺ، ويحسب أن القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عبادته، وهذا خطأ بالغ، فإن القرآن ليس نقطة عثرنا عليها فى فلاة، ولا كتاباً نظرياً يستطيع كل امرئ أن يفسره على هواه ضارباً عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه!! .

والحق أن تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر أعظم رجل فى تاريخ الإنسانية الطويل . إن محمداً - لو لم يكن رسولاً - لكان لنفاسة معدنه، وطهر سريره، ومجادة نفسه، أهلاً لأن يسمع نصحه! فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها - قد اتصل بالملأ الأعلى، وأضحى معصوماً فى كل ما يصدر عنه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣).

إنه عندما يتكلم يُبلغ عن الله! ويصدر عن فؤاد موصل بنور السموات والأرض، وكما قال الله له : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٤).

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف، عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال، قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم:

رجل على فضل ماء بقلادة يصنعه ابن السبيل، يقول الله له يوم القيامة: اليوم أمتعت فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك...»

(١) النور: ٥٦.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) النجم: ٣.

(٤) الشورى: ٥٢.

ورجل بايع رجلا بسلمة بعد العصر فحلف له بالله تعالى: لقد أخذها بكذا وكذا  
فصدقه وأخذها وهو على غير ذلك!!

ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لندى، فإن أعطاه منها ما يريد وقى له! وإن لم يعطه لم  
يقبله!!!

وجمهور المسلمين على أن طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه، وأن من قرر  
عصيان رسول الله، ورفض ما أمر به أو نهى عنه، فقد خلع ريقه الإسلام من  
عنقه..

والواقع أن من يترك حديثاً ما من الرويات التي بلغتنا، لا يفعل ذلك تمرداً على  
صاحب الرسالة، وإنما شكاً منه في صدق ما نسب إليه، أو في المعنى المراد  
منه..!

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله، كلاماً جمع بطريق الجزاف  
أو سجل دون وعي!! لا، إن جميع الضوابط التي يمكن حشدتها لضمان الصدق  
والدقة قد اتخذها علماء المسلمين.

ثم إن السنة العملية، وصلت إلينا بطريق التواتر، الذي وصل به القرآن نفسه،  
فلا مجال لإنكار صلاة أو زكاة من الصلوات المكتوبة، أو الزكوات المحسوبة.



## ٤٠. ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبداً! وما يبدو حيناً من تعارض هو من سوء  
الفهم لا من طبيعة الواقع، وذلك مثل حديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» وقوله  
تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

الفهم الصحيح للموضوع كله، أنه لا بد من عمل ينال به المرء رضا ربه،  
ويستحق رحمته، فالجنة ليست للكسالى والأراذل، بيد أن العمل المقبول هو  
المقرون بالتواضع لله، وإنكار الذات، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل  
المتقرب به لأن عيوبه لا تخفى عليه، أو لأنه دون حقه، أو لأى سبب آخر.

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف، ليس في حسابه إلا أنه قدم العمل المطلوب  
للجنة، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعدما امتلكها بعمله!! هذا المغرور  
لا يقبل منه شيء، ولا مكان له في الجنة.

أما من جاء خاشعاً خفيض الجناح، شاعراً بالانكسار لأنه لم يقدم ما الله أهل  
له! فإنه يدخل الجنة بعمله!

والدلائل على هذا المعنى كثيرة، وما يعقلها إلا العالمون!

إن السنة بحر متلاطم الأمواج، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيه يدرك  
ملايسات كل قول، والمراد الحق منه! فإن النبي عليه الصلاة والسلام ظل يكلم  
الناس ثلاثاً وعشرين سنة، اختلفت فيها الأحوال، وتباين الأفراد وتشعبت القضايا.

ووضع كل حديث بإزاء المقصود منه، أو معرفة النطاق الذي يصح فيه، هو عمل  
الفقهاء، وهو عمل لا مناص منه ولا حرفة الكلم عن مواضعه!

والحزن أن ناساً لا يفقه لهم تكلفوا ما لا يحسنون من قراءة للسنة، وإفتاء بها،  
فأساءوا ولم يحسنوا، وهم الآن حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية!

بعضهم فهم أن الإسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة  
إلى دين!

(١) التحل: ٣٢.

وبعضهم فهم أن مستقبل الأمة إلى ضياع لأنه لا يحىء يوم إلا والذي يليه شر منه! وبعضهم فهم أن الغنى مضاد للفقير وأن الفقر أخو اليقين وطريق الآخرة! وبعضهم فهم أن القدر تحويل قسرى للمرء من طريق النجاة إلى طريق الهلاك أو العكس ، لأن العلم الإلهى سبق بذلك!!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة ، دون أن يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية! ودون أن يكون لديهم ذوق أدبى بأساليب الأدب العربى ، ودون أن يكون لديهم بصر بأغوار النفس الإنسانية ، وأحوال المجتمعات البشرية ، ودون دراسة عميقة للسيرة الشريفة ، وما حفل به ربع قرن من أحداث جسام وشئون وشجون! ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى .

فالسنة عندهم الأكل على الأرض ، لا على مائدة ، وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالأحجار لا بالأوراق ، وإرخاء ذيل العمامة على الأقفية ، وإيثار الأبيض من الملابس الفضفاضة ، وضرب لثقاب على الوجه حتما ، وذاك بالنسبة إلى النساء!

والواقع أن العادات البدوية غدت سنة نبوية ، ولما كان العرب يؤخرون المرأة فى المكانة فقد مُنعت باسم الإسلام من التردد على المساجد ، ومن تلقى العلم فى المدارس ، ومن جهاد الكلمة ، أى جهاد الأمر والنهى! ومن أى مشاركة فى جهاد عسكري ... إلخ .

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد ، ومنافاتها للكتاب والسنة ، ومع ذلك فإن الدهماء المتحدثين فى الإسلام يقاومون الحق بعصبية ، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة .

والذى أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم ، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء ، ومن يعينهم الأمر من الولاة والقضاة والدعاة ، والمتخصصين فى أى مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل .

أما رجل الشارع أو الشخص العادى ، فإن أربعين حديثاً تكفيه وتغنيه .

وعلى أية حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يحدث الناس أو يتصدر للفتوى فى شئونهم! لقد رأيت أغيلة تشتغل بالسنة ، انتهى أمرها بالهجرة إلى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة إسلامية!! نهضة بعيدة عن فقه الحياة والاستمكان من الدنيا! لعل صالحى الجن سوف يمدونهم بالتفجرات فى ميادين الحرب ، أو بالغذاء والكساء والدواء فى ميادين السلام ... والجنون فنون!!

نحن نستمد معاهد الإيمان وأركان الإسلام وأعمدة الأخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه ، وعلى ضوء هذا نصلى الخمس ، ونحج البيت ، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية ، وهناك أحكام كثيرة فى الفروع أجمع عليها الفقهاء ، ولا يخرج على هذا الإجماع مؤمن ، أما ما كان موضع خلاف ، فالأمر فيه على الاتساع ، يعتنق أى مسلم ما شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج .

قال الفقهاء : والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن ، فالأولاد مثلاً يرثون أباهم بنص الآية : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ...﴾<sup>(١)</sup> وقد جاءت السنة بأن القتال لا يرث أباه الذى قتله . كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث أباه المؤمن ...

وقد تقيد السنة نصاً جاء فى القرآن الكريم مطلقاً ، فالآية تجعل الأم من الرضاع محرمة كالأم نفسها ، وكذلك الأخوات قال تعالى : ﴿...وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرُّضَاعَةِ﴾<sup>(٢)</sup> وجاء فى السنة أن ذلك ليس على إطلاقه ، فلا تحرم رضة ولا رضعتان ، ويرى عدد من الأئمة أن أقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم !!

وبقى أبو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق! والذى أميل إليه أن الأمومة لا تتكون من رضاع كثير ، فإذا ورد فى السنة أن الحد الأدنى لذلك خمس رضعات ، أو عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية!

وقال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾<sup>(٣)</sup> ، ولكن السنة بينت أنه لا يقتصر للفرع من الأصل ، فإذا قتل أب ابنه عوقب بغير القتل! ، والسبب أن هذا القتل شذوذ عن سنن الآباء الذين قد يقتلون أبناءهم بحياتهم ، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة!

لا بد أن هذا القتل لا تصحبه نية الإجرام ، وأنه وقع تحت ضغط جنونى طارئ!

ويرى مالك أنه لا قصاص إلا إذا كشفت التحقيقات أن الأب رجل متوحش مجرد من مشاعر الخنو ، فكر ودير لغرض خسيس! ويرى غيره إلغاء القصاص مطلقاً إمضاء للسنة!

وهذا التخصيص أو التقييد هو تفسير من تلقى الوحي للمراد الإلهى ، ومن أحق من نبى القرآن بتفسيره! ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم ، بل هو بيان وتوضيح .

(١) النساء : ١١ . (٢) النساء : ٢٣ . (٣) البقرة : ١٧٩ .

وتستقل السنة بإنشاء أحكام إلى جوار ما شرع في القرآن ، وأى ضمير فى هذا! قالوا: مثل المسح على الخفين بدل شريعة الغسل! ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال... إلخ .

والتحقيق أن تشريعات السنة كلها داخلية فى نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة ، وعندى أن المسح على الخفين ليس من إنشاء السنة بل هو معنى القراءة الثابتة : ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ <sup>(١)</sup> بكسر اللام عطفًا على ما قبلها ، والتعبير مجازى كما يقول علماء البلاغة ، أطلق الحال وأراد المحل !!

أما تحريم الذهب والفضة فسدًا لأبواب الترف! وأظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الأذان ، وإلا فلا مانع من استعمال الجرس للإنذار أو فى الساعات المنبهة ، أو فى الهاتف أو فى أعناق الدواب مثلاً .

ولفقهائ الحنفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لأنى ميل إليه ، إنهم يرون أن الفرض والمحرّم لابد فى إثباتهما من نص قاطع ، ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على إثبات حرمة أو إثبات فرضية .

ويعنى هذا أن الأحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الأئمة الآخرون!

الأئمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمحرّم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمندوب ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه ، والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك .

ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلام على تركه ، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع إلى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله ، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية ، وهم يطلقون هذا الحكم على ما انفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلاً .

لا فريضة عندهم إلا بنص قطعى ، ولا تحريم إلا بنص قطعى ، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمى ، وشذ بعض الخابلة فروى عن إمامه أنها تفيد القطع ، وهذا فهم مردود!

## ٤١. هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟ وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»!

ظاهر أن الذى أوحى بهذا السؤال ما كتبه «داروين» عن أصل الأنواع ، وما أعلنه من رأى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع أن النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع أن هناك من علماء الأحياء من رفضها جملة وتفصيلاً ، فإن أعداداً من الناس لا تزال تروج لها ، بل إن هذه النظرية لا تزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك أن سدنة المذاهب وسماسرة الإلحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون إقناعنا بأننا من الأرض وحدها تخلقنا ، وأن الروح الذى نسمو به ونسود بقية الأحياء لم يجرى من الله! فهم لا يعترفون به!! إنه ظاهرة أرضية بحتة!

وأنا رجل مسلم ، أشعر بأن نسبى السماوى أركى من نسبى الأرضى وأحق بالتقديم ، وأننى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الأرض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الإيجاد ما كان له شأن يذكر !

إن آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد أن نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية أضحى كائناتنا جديراً بأن تسجد له الملائكة ونحى فى وضعه الجديد الإبداع الإلهى وحسن التقويم وعبقورية العقل وسناء المواهب!! ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْتُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ <sup>(١)</sup>



لولا هذه النفخة لكنت نوعاً من الأنواع التي تحدث «داروين» عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الأفراد من زواحف وسباع ومن طيور وأنعام!!

إننى أؤمن بأن الله خلقنى ونفخ فى من روحه ، وإذا كان أبى آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المدى ، وقد قال الله فى وفى أخوتى من أبناء آدم ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ (٩) 》

والنفخة التى سرت فى أوصالى وجعلتنى خلقاً آخر تستحق التأمل العميق ، إننى الآن واحد من خمسة آلاف مليون بشر ، هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد! كلا ، إنه كما تختلف بصمات أصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية ، ومشاعرنا النفسية .

لكل قلب همومه وأشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أى إن النفخة ها هنا!

فإذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة؟ وماذا عن أجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الأرض ما شاء الله؟

إن الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الإنسانية المذهلة شئ صغير بالنسبة إلى ما خلق من عوالم لا ندرىها! أليس القائل : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢) 》 .

إن الشبه واحد بين أسمع الناس وأبصارهم أى بين مظاهر الحياة الإنسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول :

يسانفس مثل الشمس أنت أشعة

فى عامر، وأشعة فى بلقع

فإذا طوى الله النهار تراجعت

شئ الأشعة والتفت فى المرجع

(٢) غابر : ٥٧ .

(١) السجدة : ٧ - ٩ .

إن الغروب الذى يطوى الأشعة فى رأى العين فيبدأ الليل ، كالموت الذى يسترد السر الإلهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع فى أخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تخفى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر!

وكان النبى ﷺ يشير إلى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه النشور» وعندما يقول فى كل مساء «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا إله إلا هو وإليه المصير» .

ومع البعث تبدأ الخصائص الإلهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، وكل امرئ حسابها على قدر ما أعطى من مواهب وإمكانات ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا (١) 》 ﴿ فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٢) 》 .

وعلى أية حال فإننى قد أدركت أن جسمى يتكون من تراب هذه الأرض ، لكننى لن أصدق أبداً أن الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبئت مع العشب والكلأ ، وجاءتنى من تراب هذه الأرض!

ثم شئ آخر يجعلنى أحس بأبى آدم ، وبأنه حقيقة لا يليها تطاول العصور ، ذلك هو وحدة الشعور والفكر بينى وبينه ، إن الله أسكنه داراً حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها ما يغنى ويكفى وقال له : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (٣) 》 بيد أن الإنسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافهاً ، يريد الحصول على الممنوع وإن كان مؤذياً! فى الحلال الطيب سعة ، أو فى دائرة المباح مقنع! لكن آدم أبى إلا الجرى وراء الوهم .

وكانت له آمال باطلة يود لو تحققت ، إنه يحب الخلود ، ويحب أن يكون ملاكاً!! يا أبا ناس ما تبعى! إن الله أسجد لك ملائكته فكيف تنزل دون مكانتك؟

وجعل إلى مشيئتك البقاء فى الجنة والتقلب فى رياضها فماذا تخاف؟ وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس أبينا الطامع! فحلف له بالله أن أمانيه سوف تتحقق إن هو أكل من الشجرة المحرمة . . وكان صوت النهى قد بدأ يخفت ،

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) النجم : ٣٢ .

(٣) البقرة : ٣٥ .





أدلة الشريعة ، ومع أغلب الفقهاء فى رعاية للصحة المرسله ، واحترام جملة القواعد التى تحكم الفكر التشريعى عندنا .

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الإسلامية .

لكن علم الأصول مجمد فى كتيبه ، والمسيرة فى القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه ! والعالم الإسلامى تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التى لقيت حظوة عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليد هى الإسلام بعينه ، واعتبر تركها خروجاً على الدين ، وربما وصف تاركوها بالارتداد!!

إذا كان ذلك ما دعا إلى الكلام عن النص وروح النص ، والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وإن لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير سكانهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حبت فيها ألوف الفتيات لأن الكفاء لم يتقدم ! من الكفاء المرتقب ؟ أستاذ فى العلوم ؟ محام قدير ؟ أديب رائع ؟ تاجر ناجح ؟ شاب تزينه التقوى وخدمته المثل ؟ لا ، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها ! المهم النسب الفارع ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير ! .

وقضية الكفاءة يسندها فقه معين ! ، لكن هناك فقها إسلامياً آخر يقول إن الزمى المسلم كفاء لبنت الخليفة الهاشمى ، لا ، هذا فقه مهمل ! لماذا لا يكون الإهمال نصيب الاجتهاد الأول ؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة . يزدري بسبب هذا الذى حدث ؟ إنه لا شكاة من نص معين ، لا شكاة من أمر أو نهى عن محرم ، الشكاة من فهم ضيق لأحد النصوص أو من واجب لم يرد به أمر ، أو من تحريم لا يسند نهى !! وعلاج هذا الخلل ميسور ، بل هو عمل اجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين .

قال لى أحد الناس : إن إعطاء الأنثى صف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين فى الغرب ! وهم يرون المساواة بين الجنسين ، وإهمال هذا النص !

قلت : إن هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعل نفقة الفتاة مسئولية الأسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغرب بين الذكر والأنثى فى طلب الرزق ، وخرجت الفتاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث ؟

إن الغربيين يجب أن يخجلوا من الأدران الجنسية التى تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء فى الغنى والغرم .

وأنا لا أزال حائراً فى تعليل هذا الرضا العام ، بانتهاك الأعراض ، وإشباع الرغبات ، وتقديم الأجساد فى المراقص والحدائق !

وعلى أية حال ، الرجل ملزم بالإفراق على زوجته إن كان زوجاً ، وعلى ابنته إن كان أباً ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كى تعيش ، فإنها ستفقد نفسها فى مأزق كثيرة !

ولها يقينا أن تعمل وتكسب فى أوضاع متخيرة مضبوطة ، لها وليس عليها ! ومع ذلك فما ناله الرجل من زيادة فى ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه ! ولولا أتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدى لقيادة الإنسانية ، لما بقى الغرب فى مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه ! إنه باق لعدم وجود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم الله آياته ، ويسر فهمها وذكرها ، وما تشابه من آيات القرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية ، والمسالك الفردية والاجتماعية . !

وليس هناك أية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيذ ، أو تعطيل عملها ، تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحدود والقصاص ، فهناك عيب أشد على نفر من المنتمين إلى الدين ، أنهم أطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

إنهم صلوا لأن الصلاة عمل لا يجز وراءه المتاعب .. أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴾<sup>(١)</sup> فأمر فرق طاقة الجبناء الحريصين على منافعهم ومناصبهم ، هنا يمكن اللجوء إلى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجز عقلاً ، والجن حكمة ... !

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار .

(١) المائدة : ٨ .



## ٤٣. ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟

إذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن أحد! فإن توارث الذهول عنها ألمات الشعور بها ، حتى قال الحسن البصري عن الموت - وهو أول مراحلها - ما رأيت حقاً أشبهه بباطل من الموت..!

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصاً عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطئ عميقاً ، ثم تترك غراً لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فإنك قاتله !!

قد نستغنى عن بعض الحقائق وإن كان الجهل بها عيباً ، مادامت لا تمسنا ، أما إذا ارتبط كيانتنا المادى والأدبى بشيء ثم غفلنا عنه فهنا الطامة .. !!

إننى أتخيل فجيعته الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس أمام غيب تحول إلى شهادة! أمام أمر كان يهزأ منه فإذا هو جدار يصدر دماغه! لقد وقف وجهها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢٢ ﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٢٣ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٢٤ ﴾ .

ليت ! وهل ينفع شيء ليت ؟ إنه أضاع ماضيه فى الحياة الأولى سدى ، وما هو ذا يحصد مازرع ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التأوه والندامة يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، وهيهات .

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقاً إلى المسجد ، يغمض عينيه عن المفاتن المبدولة ، يستعف عن المحرمات وإن كثرت حولها المغريات .

(١) الفجر : ٢٢ - ٢٤ .

إنه - يوم الحساب - يتلقى نبأ نجاحه فيصبح جذلان . مسمعا كل إنسان ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّة ٢١٩ ﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّة ٢٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٢٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٢٢٢ قُطِرَ عَلَيْهَا دَانِيَةٌ ٢٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٢٤ ﴾ .

إنها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود! شتان بين مصير ومصير !  
وأثر الإيمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، إنه يتحمل حيناً ليظفر بالراحة بعد حين! كما قيل لأعرابى : تصوم فى هذا اليوم الحار؟ قال : أصومه ليوم أحر منه !

وتعليل النفس بالأمال عون على الرضا بالمتاعب ، وجبها على ما تكره لتنال ما تحب! وكما قال الشاعر :

منى إن تكن حقاً تكن أسعد منى

وإلا فقد عشنا بها زمننا رغداً!!!

وهذا الاستثناء بالنسبة إلى الآخرة مرفوض ، فإن الدار الآخرة أحق وأثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٢٢٥ ﴾ . والحيوان كالفيض من مصدر على سعة المعنى .

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تركيته وترقيته ، فعندما ضاقت زوجات النبى ﷺ بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما ألفتن قديماً ، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع إلى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

إنه بيت الكفاح والخشونة ! بيت التلاوة والتهجد ! لا بد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الإسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا إلى الآخرة وسعى لها سعيها

(١) الخاقية : ١٩ - ٢٤ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

فليبق موطننا نفسه على حياة ناشفة! ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾

وجمهور الناس قد يحس غصه وهو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحددين المجرمين يرحون في طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وأمانة القوة .

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يحو ذلك محواً عندما يقول : ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيُبْسِ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (٢١)

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر في القرآن كثيراً ليحارب ظاهرة مؤذية تسود الأمة العربية والإسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهاف حولهم الأتباع ليؤازروهم على ظلمهم ، ويشاركوهم في منافعهم الحرام .

إن التبعة في الفساد والإفساد بقسمة على الفريقين قسمة عادلة ، لأن هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون ، الرعوس والأذناب شركاء في اقتراف الجرائم ، وفتنة المستضعفين وإثارة الفتن ، ومن هنا جمعهم مصير واحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوار! ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضَعِيفًا فِي النَّارِ﴾ (٢٢) إن الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم في دار الجحيم تسوؤهم اللقيا ، ويصيحون مستنكرين مرآهم! لطلما هشوا لهم في الدنيا وسارعوا إلى لقاءهم ، أما اليوم فإن الفريقين يتبادلان السخط ، والتشاؤم وعدم الترحيب !!

(١) الأحزاب: ٢٨ ، ٢٩ - (٢) آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨ - (٣) ص: ٥٥ - ٦١

ويتذكر الفريقان أنهم كانوا يتفقون على إهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ويتظاهرون على اضطهادهم وأذاهم ، أين هم الآن؟

وقالوا : ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتُخَذُنَاهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنْ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ﴾ (١)

تسجيل هذا المنظر الذي سيقع حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذي أرققه الاستضعاف والاستهزاء! أما الكافرون فإنهم لا يعونه ولا يصدقونه!

ومنظر آخر جدير بالتأمل ، يقوم بعض أهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديماً من أهل الضلال والكفران! ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتُنْكَلِ مِنْ الْمُصْذِقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ﴾ (٢٣)

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو يقول لصاحبه : أتصدق أننا بعد فئتنا نبعث ونحْيى؟

ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط أهوال! ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ (٥٤) فَأُطِّلَعُ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٢٤)

وعبارة إن كدت لتردين ، تشعر المؤمنين في يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق ، لأن التهوين فيه طريق السقوط والضياع ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم ، إذ شرح صدورهم لهذا واستدامهم عليه!

وفى دنيانا الحاضرة ، ينفر المنافقون من أهل الإخلاص واليقين ، ويهجرون مجالسهم ، ويبعدون عنهم إذا جمعتهم المصادقات في طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه ، ما يأنسون إلا بهم . . . بيد أن الحال تتغير تغيراً عميقاً في الدار الآخرة ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ

(١) ص: ٦٢ - ٦٤ - (٢) الصافات: ٥١ - ٥٣ - (٣) الصافات: ٥٤ - ٥٧

ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ  
مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١١﴾

إن القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره ، ويعالج  
عليهم بما يسوق من صورته !

إنه يذكره لإصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعلق الهمم بالأبقى والأجدي لا  
بالسراب الخادع .

أما الماديون الذين يزعمون الآن مشارق الأرض ومغاربها ، فما يعرفون إلا هذا  
الشراب ، وما يعولون إلا على أيامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء ، وما  
يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان .

مررت يوماً بأحد شوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ،  
وتجاوزت صاحبها الحزين على ضحيته ، ونظرت إلى الدابة الميتة عند أقدامه وقلت  
فى نفسى : انتهى أمرها ، إن كثيراً من القادة والساسة لا يرقون بحياتهم فوق هذا  
المستوى الحيوانى ، يظنون أمرهم انتهى عندما يتفقدون كهذه الدابة ، ألا ما أحقر  
الكفر ، وأسوأ تصوره للوجود !



## ٤٤. ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير ، على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع إنكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار  
الكون ! إنها حضارة ذكية العقل واسعة المعرفة ، وقد طوعت ما بلغته إلى تقدم  
صناعى باهر طفر بالإنسانية طفرة رحيبة ورهيبية ، فى جميع المجالات المدنية  
والعسكرية . . .

ولكن هناك إحساساً عاماً بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقدم روحى ، وأن  
إنسان العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن إنسان العصر الأول فى غرائزه وشهواته !  
وإذا كانت ثمة فروق ففى الوسائل لا فى البواعث والغايات ، بل لقد قبل فى  
إنسان العصر الحاضر : إن عضلاته أكبر من عقله .

والواقع أن الإنسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما  
رددنا أن الإسلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة !

إن الكمال الحقيقى امتداد ونضج فى جميع الملكات الإنسانية ، وهذا التوازن  
أساس لا بد منه لقيام مجتمع رشيد . وحضارة يانعة الثمار ، مديدة الظلال ، فهل  
الحضارة الحديثة - بعد تلك المقررات - جديرة بالخلود؟ أو هى أرجح من غيرها فى  
موازنة متصفة؟ الحق ، لا . . !

فالرجل الأبيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، إنسان طافح الأنانية ، يشده إلى  
منافعه ألف رباط ، وقبل أن نشرح شرهه المسعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر أحد  
مظاهر الحضارة الإسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الإسلام للأعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة إلى النور ،  
وبعد ربح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون  
عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء . .

فالبخارى هو المحدث الأول ، وأبو حنيفة الفقيه الأول ، والحسن البصرى المربى الأول ، وسيبويه اللغوى الأول ... إلخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم «قطز» فى معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج فى أن يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين فى حطين .

إن الإسلام محا النعرات الجنسية فى أغلب الميادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الأبيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ، ويقدمون مصالحهم ولا تحكمهم إلا شرعة لغاب !

اكتشف الإنجليز أستراليا فماذا فعلوا بسكانها؟ شرعوا يطاردونهم من مكان إلى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ، وأخبرنى صديق قادم من أستراليا أن البيض ييسرون أردا الخمر لهؤلاء السكان الأصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الأخير ، وتبقى أستراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وإيثار ... !

أكان سكان أمريكا الأصليون أسعد حظاً من أستراليا ؟ لقد تتبعته حرب الإبادة من بلد إلى بلد ، وكان المكتشف الذى يسيل ريقه للذهب ينظر ، فإذا وجد هندياً أحمر على رأسه تاج من ذهب ، قطع الرأس ، وعاد بالتاج ... !

قد يقال : كان ذلك فى الأيام الأولى لاكتشاف العالم الجديد ، وقد ارتقت اليوم البشرية ، وضائق بما كان يفعله المستعمرون الأولون ، واستنكرته !

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الأبيض ، وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان ألقي قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكي فقتل نصف مليون إنسان بين طفل وامرأة وشيخ وشاب ، ولا ريب أن عشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذى كان يمكن أن يجند فى الحرب ... !!

المأساة أن هؤلاء «المتحضرين» ارتقوا علمياً وهبطوا خلقياً ، وأنهم عبيد لذاتهم العاجلة ، وأن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم ، أنهم لم يسمعوا يوماً من يقول لهم : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءَ (٤٢) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ... ﴿١﴾ .

إن الإنسان يتحول إلى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما إذا كان هو واضع القانون ومطبقه ! إن القانون يومئذ يحرس الأقوياء ويحتاج الضعفاء ، وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطينى ويحى وجوده فوق أرضه ، ويجاء بالكوف مؤلفة من اليهود لتحميا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى مكتم الفم ، لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على إبطال الحق وإحقاق الباطل ... !

إن الغرائز المهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت إلى جموع المستشرقين - وهم قوم ذو ثقافة واسعة - لفتهم ضغائن غبية ضد «محمد» ﷺ ، فأذاعوا عنه أنه كبنى جنسه محب للنساء ...

إن هؤلاء المستشرقين قرءوا فى العهد القديم أن سليمان جمع فى عصمته ألفاً من النساء ، سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الإماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده؟ لا ! نصف العشر؟ لا ! ربع العشر؟ لا !

ومع ذلك فليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشيد الأنشاد الذى لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول أو المعلوم ، أما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه إلا جوار

يدفع البشر إلى ربهم ، ويذكر بيوم لقائه ، ومع ذلك فمحمد لا يوحى إليه ، والأشواق وراء الحبيب المنشود هى الوحي المعصوم ! ما قيمة العلم إذا لم يكن معه إنصاف ولا عدالة ؟ إننى أمقت الذكاء الخبيث ، والثقافة المسفة ، وعندى أن امرأة حصاناً غافلة أشرف من موسى عبقرية ، وأن رجلاً ساذجاً يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه ؟ !

وقد أفهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : «النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأصنام» فيقولون : يبدأ بنا قبل عبدة الوثن؟ فيقال لهم : ليس من يعلم كمن يجهل (١) .

والحضارة الغربية ، كما قلنا أنفاً ، اتسع علمها وضاق أديها ، أو طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع أجيالاً لا تعرف إلا الحياة ليومها فوق هذا التراب ،

(١) إبراهيم : ٤٢ - ٤٤ .

(٢) الحديث رواه الترمذى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرابته له شاهد من الصحيح .





وإنما نحترمهم؛ لقول رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

وأحب أن أعرض غاذج متناثرة للخلاف الفقهي تومئ إلى طبيعته وعلته، أما التأصيل العلمي لأسباب الخلاف فقد شرح في أماكن أخرى.

هل القاذف الكذاب نقبل شهادته بعدما تتم توبته؟... من الأئمة من يرفض شهادته أبداً وإن تاب، ومنهم من يقبلها بعد توبته.

وأصل المسألة تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ الْمُحْصَنَاتُ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا (٥)﴾.

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق، وبقي الحرمان من الشهادة على التأييد. وقال آخرون: بل الاستثناء يلحق الجملتين معا، وتقبل شهادته ليكن هذا أو ذاك، فلا حرج على فهم!

والثائبون من جريمة قطع الطريق، إذا استسلموا قبل إلقاء القبض عليهم، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦)﴾ فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة، أو الزنى؟ إذا تاب؟

من الفقهاء من أعمل القياس، واستشهد بالسنة، وأوقف الحد، جاء عن أنس بن مالك: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إنني أصبت حدا فأقمه عليّ. قال: ولم يسأل عنه. فحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ، فلما قضى النبي الصلاة قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله، إنني أصبت حدا فأقم فيّ كتاب الله!! قال: «ليس قد صليت معنا؟ قال: بلى! قال: فإن الله عز وجل قد غفر لك ذنبك»!

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة إقامة الحد رافضين القياس ومؤولين الحديث الوارد.. لكل رأيه ولا تثريب على أحد..!

وفي فقه الأسرة نقرأ شريعة الخلع! ولا أدري لماذا أهملت؟ ولماذا كان القضاء يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارهة إلى بيت زوجها لتسلمه جسدها!

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية؟ خلاف بين الفقهاء، وظاهر القرآن أن الخلع فسخ؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (١)﴾ ثم يقول: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ (٢)﴾ وفسر التسريح بعد ذلك بقوله: ﴿... فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ (٣)﴾.

وقد توسط الخلع أحكام الطلاق بقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ (٤)﴾.

فالظاهر أن رد المرأة للمهر الذي قبضته عود في العقد! ويحكم القضاء بالفسخ.

ويرى آخرون أن الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للإشهاد عليه، والحق أني حائر في ذلك مع قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَظَّعُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٥)﴾.

كيف يكون الإشهاد نافلة مع هذه التوكيدات؟ ويغلب على ظني أن التقاليد التي ضامت المرأة من قدم لها دخل كبير في هذا الاضطراب.

إن التحقيق العلمي يوجب احترام شريعة الخلع التي أهملت، كما يوجب ضرورة الإشهاد على الطلاق.

وتترك فقه الأسرة إلى طرف من فقه العبادات، إنني قضيت ردحا من الزمان أعمل في المساجد، ورأيت مظاهر الخلاف بين الأئمة الأربعة: هذا يقنت في الفجر وذاك يصمت! هذا يصلي نافلة قبل المغرب وذاك يأبى! هذا يحيي المسجد في أثناء الخطبة وذاك يجلس! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراء الإمام وهذا ينصت! هذا يقبض يديه إلى سرتة، وهذا يقبضهما إلى صدره، وهذا يسلمهما إلى جنبه!

قال لي صديق: أيسرك هذا التفاوت؟ قلت: كنت أوتر وحدة الصورة، لكنني أدع الوضع كما ترى؛ لأن عنايتي بالموضوع أكثر من عنايتي بالشكل، الآن هناك وجهات نظر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت، أكره الاصطدام بها...!

(1) 15.00 : 1.1

والتدين المخترع والفساد شديد المهارة فى صرف المؤمنين عن العمل العقلى والقلبى ، وتعليقهم بأشكال ورسوم وأوراد ما أنزل الله بها من سلطان .

مع أن هذه الأعمال ركن فى الإيمان ، وغيرها إما بدع ، وإما نوافل لا تقبل إلا بعد اكتمال الفروض !

ليس هذا استطراداً ، وإنما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التى اطردت الآيات فى القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها ... ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها ..

وقد ظفر أسلافنا بأنصبه كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زماناً طويلاً ..

ورأى أن هذه الحرية خرجت على نفسها أو تحولت إلى فوضى خلقية فى بعض الميادين ، فليس من حرية الفكر أن ينشد أبو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الأدب العربى ..

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الإسلامى بالبحث فى ذات الله - متأثراً بالفلسفة الإغريقية - ويترك البحث فى المادة وخصائصها ، وعندى أن الجانب الطبى فى ثقافة ابن سينا ألع وأضوأ من الجانب الفلسفى ! وأن الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد ، وامتدت حيث يجب أن تنكمش ، على أنها اعتلت فى العهود المتأخرة ، وكادت تموت ، وذلك تبعاً لاضمحلال الحرية السياسية فى حياتنا العامة ، وغلبة الحكم الفردى .

والحريات كالفضائل يقوى بعضها بعضاً وينميه ، ومع ما أصاب الحريات إجمالاً من علل ، فإن الحرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصارى والباطنية دون حرج ، وما أحسب داراً أخرى غير دار الإسلام ، يقع فيها هذا التسامح ! لقد كانت الحرية الدينية أعصى الحريات على النقص ، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض ، وكان يهود اليمن مرعى الزمام مصونى الحقوق ! ويقوا وافرين حتى التحقوا بإسرائيل !

ومن الطرائف التى يحكيها الأدباء أن الخوارج اعترضوا نفرًا من الناس ، وأحبوا أن يتعرفوا هويتهم ، وكان فيهم أبو حنيفة ، فأسرع يجيب الخوارج : نحن مشركون

مستجبرون ! فلما تركهم الخوارج يمضون لشأنهم قال الإمام الفقيه : إن القرآن يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١) فأسمعونا كلام الله وأبلغونا مأمننا . !! وفعل الخوارج ذلك ، ونجا أبو حنيفة ومن معه من الفتك !

والقصّة تستدعى التأمل ! ولئن كانت مشاريية عند البعض ، إن التاريخ الإسلامى يصدق دلالتها ، ويكشف عن العلة فى بقاء الطوائف الكافرة بالإسلام وسط بحر مانع من الأمم الإسلامية ، مما لا نظير له فى القارات كلها ... !

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض : هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة ، فإذا نال مبتغاه منها وتحولت عاطفته عنها رجع إلى دينه الأول ؟ .. أو من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء أمته ، وينقل إليهم أسرارها ، ويتأمر معهم على مستقبلها ؟

إنه لابد من التفريق بين العبث بالأديان أو خيانة الأوطان وبين حرية الفكر ! فالمسألة شاسعة بين المعنيين !

وقد ذكرنا فى موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هذه الحرية المتاحة لضرب الإسلام وصرف الناس عنه ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) ! فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع هذا العبث أو ينجح هذا التلاعب ؟

إننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد ، وسر الموقف الحاسم منه ...

معروف أن الإسلام عقيدة وشرعة ، أو بتعبير عصرنا دين ودولة ، والدولة التى تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول فى أرجاء الأرض ، فهى تنشر الأمان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله تبارك وتعالى ...

وهى تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الأخرى ...

(١) التوبة : ٦ . (٢) آل عمران : ٧٢ .





## ٤٧. ما الاجتهاد؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابيه؟

### ولماذا؟

يعلم المسلمون أن دينهم باق ما بقيت السموات والأرض ، وأن به تبيان كل شيء يحتاج الناس إليه! أى إن كتاب الله وسنة رسوله هما النور المبدد لكل ظلمة ، الكاشف لكل حيرة ، وهما الدواء الشافي من كل علة والساد لكل خلة ..

والاجتهاد هو بذل الجهد فى استخراج الحكم الشرعى من هذه الأصول ، وفى ضبط مسيرة المجتمع بها ، وهو عمل لا يقدر عليه بداهة كل إنسان ، بل لابد من أهلية علمية عالية له .

فالقرآن الكريم هو خلاصة الوحي الإلهي من أزل الدنيا إلى أبدها ، صيغ فى أسلوب يعجز الإنس والجن ، والسنة المطهرة هى توجيهات إنسان ملهم استدرج النبوات الأولى كلها بين جنبيه ، وشرع يصوغ العالم كله باسم الله فى قالب جديد ، وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذى أحدثه برسالة الخاتمة كان حاسماً فى سير الفكر والضمير ، وأنه فتح صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الإنسانية ..

ومن ثم فإن فقه الكتاب والسنة لا يرشح له إلا أهل النباهة والتقوى!

وفقهاء الإسلام يرون أن مصدر التشريع - كما يقول الشيخ الكبير محمود شلتوت - «هو القرآن الكريم نصه ومحتمله ، ثم السنة وهى أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته ، بشرط صحة النقل ، ثم رأى العلمى المستمد من النظر فى الكتاب والسنة والحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص» .

ويعنى بذلك القياس ، ثم فى تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضايا الخاصة .

وهذه القواعد مثل «الأصل فى الأشياء الإباحة» «منع الضرر» «رفع الحرج» «سد ذرائع الفساد» «الضرورات تبيح المحظورات» «ارتكاب أخف الضررين» «دفع

المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» «ما أدى إلى الحرام فهو حرام» «ما قارب الشيء يعطى حكمه» ... إلخ .

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة ، وهو نهج فقهي غايته حماية النفس والمال والعرض والعقل والدين ..

والواقع أن الفقيه فى الكتاب والسنة ، الذى يعيش فى جوهما يقدر على استنباط مبادئ تنطلق الحياة منها ، ورسم مسار تشريعى يضمن الرشد والخير للناس كافة ، كما يستطيع أن يواجه القضايا المتجددة بأحكام إسلامية سديدة ..

والفقه الإسلامى الذى ورثناه مع مطالع القرن الخامس عشر للهجرة بعد أغنى فقه فى العالم ، والمهاد الذى يتحرك فوقه لا نظيره فى دنيا الناس .

قال الفقيه الكبير الشيخ محمود شلتوت : «استقبل أصحاب رسول الله بعد موته حياة أوسع ، إذ عرضت لهم شئون احتاجوا إلى تعرف أحكامها ، فكانوا يرجعون إلى القرآن ، فإن لم يجدوا فيه ما يدل على حكمها بحثوا عنه فيما يحفظه العدول الثقات من بيان الرسول واجتهاده . فإن لم يجدوا الحكم نظروا وبحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وما عرفوه من هدفها ، وما ترشد إليه قواعدها العامة التى أصبحت لها مكانة النصوص البينة» .

وكان الشأن العام فى عهد أبى بكر وعمر التحرى الشديد فيما يروى عن النبى ﷺ ، والنزوع فى الشئون العامة إلى استشارة كبار الصحابة المقيمين معها فى دار الخلافة! والمعروفين بدقة الرأى ، وعمق النظر ، فى إدراك المصالح ، وحسن الفهم لروح الشريعة ، وجودة التطبيق على القواعد العامة .

وكانوا إذا أجمعوا على رأى ، وجب تنفيذه .. وبذلك كان أخذ الرأى بطريق الشورى مصدراً جديداً ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، أو فيما فيه نص محتمل .

وترجع حتمية الرأى فى التشريع إلى أمور :

أولاً : تقرير القرآن مبدأ الشورى ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (١)



أيعنى ذلك أنى لا أريد فتح هذا الباب؟ كلا!

إن الاجتهاد التشريعى، خصوصاً فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية!

والذى أدعو إليه أن تقوم مجامع كبيرة، من علماء راسخين، لا يخافون فى الله لومة لائم، يحيون الاجتهاد الجماعى القديم، ويقومون بعملين مهمين ..

الأول: إنعاش أو إحياء الفقه الدولى لتحديد أوضاعنا العالمية، وإعادة النظر فى أنظمة الحكم الداخلية لإنقاذ المسلمين من مساوئ الحكم الفردى، ومظالم المستبدين، وإنشاء شرائع إدارية تضبط شئون العمال وتوزيع الأموال، وتضبط الحقوق الخاصة والعامة ..

إننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجال، ولا يجوز ترك الإسلام يفترسه هذا الموت الأدبى!

أما العمل الثانى: فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة، وغربة أحكامها، فمن الغرور القول بأن مذهباً ما انفرد بالصواب كله، ومذهباً آخر يغلب عليه التخليط ..

إن المذاهب المشهورة وغيرها تحتوى على تراث نفيس من الأفكار وجهد عقلى ونقل قد يقصر أغلبنا عن بلوغ مستواه، بيد أن القول المشهور شئ والتحقيق العلمى شئ آخر ..

وقد نبّهت فى مكان آخر إلى أن ابن تيمية رد فقه الأربعة فى إيقاع الطلاق البدعى، والحق معه عند التأمل، وأن ابن حزم هدى إلى أحكام فقهية أولى بالحياة من غيرها ..

ووجوه مجمع فقهى إسلامى عالمى، يجتهد فيما جد من قضايا، وفيما عانينا من فرقة وضعف أمر لا بد منه ...

## ٤٨. ماذا عن تجديد الفكر الدينى فى الإسلام؟

جرت على الألسنة كلمة تجديد الإسلام، وظن البعض أن المقصود منها ترقيع ثوب لحقه البلى أو تحريك آلة أدركها العطب! وقد يتطلب ذلك إهمال شعبة من شعب الإيمان، أو التجاوز عن حد من حدود الله، أو إرخاص الماضى غروراً بالحاضر، وتثنيا مع المدينة الحديثة ...!

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم، ولا يفكر فيه إلا لصيق بديننا لا يدرك عنه شيئاً ..! إن التجديد المنشود حماية الأصل مما عراه وتنقيته مما شابه وعكر رونقه، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى، أو إزالة الغبار عن صبرة غطى الإهمال ملامحها ...

قلت فى أول كتاب الفقه من نحو أربعين عاماً ...! إن حقائق الدين من متابعه الفريدة ما إن أخذت تسير فى مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة، ونزوات الحكام ما ذهب بالكثير من نقائها وصفائها، حتى لتشبه ماء النيل فى مجراه الأدنى، لا يصلح للشرب إلا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية ترده سماءاً كما كان!

هل إمداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئاً إلى جوهرها الأصلى؟ لا، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء! وأملنا فى تجديد الإسلام قريب من عملنا فى تنقية مياه الشرب ...

وقد نبه رسول الله ﷺ إلى جلال هذا العمل عندما قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين!!» والكلمات الثلاث فيها من إعجاز النبوة المحمدية ما يبهر ويسحر! قديماً رأينا عبادة غلاة يكرهون الحياة، ويقررون عدم الزواج، وصيام الأبد، وقيام الليل وهجر النوم، ثم رأينا كيف تعلموا الاعتدال، وترك الغلو ..

وقديماً رأينا من يضع الحديث فى فضائل السور فإذا قيل له: كيف تفعل هذا والرسول يقول: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»؟ فيقول: كذبت له ولم أكذب عليه!!



هذا لون مفضوح من انتحال المبطلين، ومثله كل ابتداع في الدين، وخلق لتقاليد رديئة كبلت الأمة وأفعدتها في عالم يجرى كالريح المرسلة أما تأويلات الجهلة فما أكثرها في تاريخنا القريب والبعيد! وآخر ما وقع في يدي كتاب مؤلف من الجزيرة العربية زعم أن به نيفا وأربعين دليلاً على أن الأرض واقفة والشمس هي التي من حولها تدور ..

ونظرت في هذه الأدلة فإذا هي تفاسير خاطئة لأكثر من أربعين آية قرآنية، مال بها الكاتب المسكين عن وجهتها ليشعر الناس بأن الإسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان!

والواقع أن حركات التجديد والإصلاح تخبو أو تضيء وتكبو أو تضيء بمقدار موقفها من هذه الآفات، تحريف الغالين، وانتحال المبطلين .. وتأويل الجاهلين! ولما كان تجديد الإسلام عوداً إلى الأصل النازل من السموات، فإن المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد وصحبه!

إن محمداً عليه الصلاة والسلام، والرجال الذين جمعهم حوله ورياهم على يده هم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الحق، وهم أفضل القرون وأجدرها بالاتباع .. وقد وقع انحراف عن خطهم، وبدأت زاوية الانحراف تتسع أضلاعها بمر الزمان . فإذا جاء اليوم من يريد العودة إلى القرن الماضي، والقرن الذي سبقه، فهو لا يزيد الأمة إلا خبالاً، ولن يصنع شيئاً أكثر من مد زاوية الانحراف، وتوسيع الشقة بين الصراط المستقيم وموارث العوج التي نشكو منها، والتي انتهت بنا إلى أن صرنا في مؤخرة العالم ...

إن سوءات الحكم الفردي في مطالع القرن الخامس عشر هي سوءات الحكم الفردي خلال القرن الثالث عشر، وقرون كثيرة قبله ..

والمنار الذي نمتشى على سناه هو جو الشورى أيام الرسول ودولة الخلافة، عندما كان الحاكم - تأسيساً برسول الله - يوجل من الكبر، ويستكين للحق، ويستشير أهل الذكر، ويرى أنه أجبر للأمة يكدر لمصلحتها، ولا حق له في أكثر من مرتبة المفروض له، ويشعر بالرهبة عندما يقال له: اتق الله، ويرى أسرته بعض الرعية الذين لا حول لهم ولا طول، ويقتص من نفسه إذا أخطأ، أو يترك لأمناء الأمة ومشيرتها أن يقتصوا منه، كما قال عمر بن الخطاب - وهو يؤذّب كبار الموظفين -: لقد رأيت رسول الله يقتص من نفسه !!

هذه التقاليد السلفية في فن الحكم لها نظائر في شئون المال، والقضاء، وشتى الأوضاع الاجتماعية، بل لها نظائر في شئون العبادة ...

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلاً حتى أمسوا سواد العالم الثالث، أو حثالة البشرية التي تملأ الأرض ...!

وذلك لأنهم ذهلوا كل الذهول عن سنة نبيهم وتقاليد سلفهم، ولم يعوا من دينهم شيئاً ذا بال ..

وبديه أن ما حدث قديماً يتضمن مبادئ ويرسم اتجاهات، وأن صور التنفيذ قد تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذي يصون المبدأ والوجهة .

فالجهد حق، وندب الناس إليه قد يكون بإعلان عادي، أو بصيحة «الصلوة جامعة» .. فهل ذلك الإعلان أو تلك الصيحة هما الآن وسيلة إعداد الجيوش وحشد المقاتلين؟ إن الوسائل تتغير، والمبدأ ثابت .

والشورى حق، وكان تنفيذها قديماً يعتمد على وسائل قليلة الكلفة، أو على طلب الرأي من الحاضرين، لكن الأمر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتيب واسعة .. والمشغولون بتجديد الفكر الإسلامي ينبغي أن ينظروا في هدف الوسائل المطلوبة، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف، ويبرز محاسن الإسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك ...

قال لي أحد الناس: أليس عيباً عليك وأنت من دعاة الإسلام أن تعجب بالديموقراطية وتدعو لها؟ قلت له: الحق معك! ينبغي أن أدع الكلمات الأجنبية، وأستخدم الكلمات العربية ...!

قال: الأمر أكبر من أن يكون اعتراضاً على كلمة، إننا نرفض تنويهك بنظام! قلت له: إنني مسرور بحبك للإسلام، وأؤكد لك أنني لست أقل حباً له منك! فاسمع ما عندي ...

عندما وقعت مجزرة «بيروت» الشهيرة، وعندما وقعت مجازر قبلها تحركت الجماهير في عواصم كثيرة تتظاهر ضد الجزاير وتتند بجرائمهم! كان ذلك كله بعيداً عن أرض العروبة والإسلام التي لم تنطلق فيها مظاهرة احتجاج واحدة! ما السبب؟ إن الناس فقلوا - أو كادوا - ملكة الشجاعة تحت ضغط النظم الاستبدادية .



والخبرة بهذا البحر المتلاطم من المعارف تحتاج إلى عبقرية فذة... ثم ينضم إلى ذلك ما قرره المسلمون - بإجماع - أن العلم النظري وحده لا يكفي في إعطاء قيمة أدبية لإنسان! لا بد معه من مجرد لله ، وصلابة في الخلق ، ونزاهة في السلوك واستعلاء على إغراء الحكم والمال !

إن الفقه والفقهاء أسس شامخة في حضارتنا ، ولا يضير البحر أحياناً أن يحمل موجه بعض الغناء !

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية أليمة! ومع تسلط الغزو الفكري على أقطارهم حسب البعض أن الدين صلة خاصة بالله ، وأن الصلات الإنسانية بعد ذلك موكولة إلى الفكر الإنساني العادي ، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته ، وينحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين !

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالإسلام ، بل هو ارتداد حقيقى عنه ، فإن القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والأخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية ، ورسم للأسرة ، وللدولة جميعاً ما شاء الله من شرائع وتوجيهات ، وسيرة محمد ﷺ لم تكن سيرة رجل يعيش في صومعة ، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق ، كما يشرف في الوقت نفسه على توزيع المال في المجتمع ، والإمسك بدفة الحكم ، وشئون الحرب والسلام ، أى أن صومعته كانت الدنيا كلها ...

وموضوع الفقه الإسلامى بعد العقائد والأخلاق يتناول أعمال المكلفين دون استثناء ، وبيت فيها وفق توجيهات الكتاب والسنة ، وما يعتمد عليهما من دلائل ... ألا ما أرحب هذه الدائرة وأغناها ...

وأرى أن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصاً كثيرة للتصرف في نطاق الشريعة على هدى من مبادئها ، ولنضرب مثلاً بما يقع في عصرنا هذا الذى تقاربت فيه الأزمنة والأمكنة والشعوب والممل ...

يقول الشيخ محمود شلتوت : « من مسائل الخلاف أن أبا حنيفة يرى مسؤولية المسلم - وتغريمه - إذا أتلّف مالاً لذمى . إذا كان هذا المال مما يحرمه الإسلام كالخمر والخنزير ، ولو كان المسلم قاصداً بإتلافه وجه الله وثواب الآخرة » .

وخالفه الشافعى في ذلك ، وقال لا مسؤولية ولا غرامة عليه إذا أتلّف ما حرمه الشارع !!

ويعتمد أبو حنيفة في تقرير الضمان على المثلث بأد الإسلام أمرنا بترك أهل الكتاب وما يدينون ، وقد روى أن عمر بن الخطاب سأل عماله : ماذا تصنعون بما يمر به أهل الذمة من الخمر؟ قالوا : نعشرها!! فقال : لا تفعلوا ، ولولهم بيدها ، وخذوا العشر من أثمانها ! قال أبو حنيفة : « لولا أنها متقومة - أى لها قيمة - وأن بيعها جائز بينهم لما أمرهم بذلك ! ومن المعلوم أن التقوم أصل الضمان والمسئولية ، أما إهدار تقومها فإنما هو بالنسبة إلى المسلمين وحدهم » .

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصاص من المسلم إذا قتل كافراً من أهل الذمة ، ويحكم بقتله ، ويخالف في ذلك الفقهاء الآخرين ...

وكلام الأحناف هو الذى يمكن إمضاؤه في عصرنا ، وتستطيع الدولة الإسلامية به أن تتعايش مع الأسرة الدولية ، وتستطيع من خلال هذه المعاشة أن تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الأرض بما عندها ...

وكل ما يتطلبه الأمر إذا اختارت الحكومة مذهب الأحناف أن يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بغير اكتراث ، وألا يفكر بعضهم في اللجوء إلى عصيان مسلح!! إن ضيق الخلق والأفق يجبر على المسلمين البلايا ، وما كان الفقهاء قديماً يرون الخلاف مشارقة ، بل وجدنا الشافعى يقول : « للناس في الفقه عيال على أبى حنيفة » مع رفضه لكثير من آرائه !

كنت أسمع برنامجاً فقهياً في إحدى الإذاعات العربية ، فعجبت لإجابات المفتى على الأسئلة التى توجه إليه ، وقلت : هذا كلام أقرب إلى الهدم منه إلى البناء ..

سئل - عفا الله عنه - عن أخرج زكاة رمضان نقداً؟ فقال : لا تقبل ، إلا أن تكون شعيراً أو ثمراً أو شيئاً من غالب قوت البلد! ثم استطرد يصف إخراجها نقداً بأنه مخالف للسنّة ، وأن رسول الله ﷺ يقول : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »!!

وبدا من حديث المفتى أن إعطاء الفقير مالا - ربايات أو جنيهاً - بدعة ... وأن الأحناف بهذا المسلك أصحاب بدعة!

وقد رفضت كلام الرجل جملة وتفصيلاً ، فإن مصلحة الفقراء هى التى ترعى ، وأخذ المال أجدى عليهم وأطيب لأنفسهم . وجمهرة المسلمين تخرج زكاة رمضان نقداً تبعاً لمذهب أبى حنيفة ، وهو أقرب إلى العقل ولا يصادم نقلاً ...





وينهض القانون بدور التنفيذ الصارم لتطلبات الوضع الجديد .

وفى أغلب عواصم العالم العربى يكلف المسلم أن يصم أذنيه عن نداء الكتاب والسنة ، يكفى أن يكون للإسلام وجود رمزى لا يتخطى حدوده ، أما زمام الحياة الخاصة والعامة ففى يد أخرى تحو وتثبت كيف تشاء ..

وعلى القانون أن يلوى عنق المجتمع وتقاليد وموارثه نحو هذا الهدف الجديد .. نعم ، على القانون الذى وضعه الاستعمار أن يصرف البصائر والأبصار عن شرع الله وهده حتى يعمل الزمن عمله فى غيوت الإسلام كله بعدما مات تشريعه فى كل ميدان !!

إن للقوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه وظيفة مقررّة ، وظيفه أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكريا وسياسيا ، وفرض إرادة الغالب عليها! إن القوانين الوضعية هنا تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية ، أو مسخ حقيقى لكيانها الروحى والعقلى ، والهدف 'الأخير الإتيان على الإسلام من القواعد !

وعندما نقيس المسافة بين الدين ومطالبه وبين القوانين المجلوبة وأثارها ، تبدو الشقة بعيدة .. بعيدة! خذ مثلاً قضية الخمر - وهى نموذج للتقاليد الغربية الوافدة - أن المسلم يراها رجسا من عمل الشيطان ، ويراها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويرى شاربيها ساقط المروءة واجب العنوبة ، ولكنه ينظر إلى أرجاء المجتمع فىرى مصانعها تقام وحوانيتها تفتح وأسعارها تقدر ، وأحفالها تبرز ، وإعلاناتها تكثر وشاربيها يكرمون ولا يهانون! فأى تحد لإيمانه أبلغ من هذا التحدى ؟

إن ولاءه لله ولأحكامه يصدم ، ومبدأ السمع والطاعة يهتز ، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الأخرى يمهّد !!

ومن حق المسلمين فى كل شبر من أرضهم أن يرفضوا القوانين الوضعية وأن يعلنوا عليها حرباً قائمة فى الوجه الرسمى لغلبة الجاهلية على دولتهم ، وهى الأساس الموضوع لقسرب بقايا الإسلام الخلقية والاجتماعية ، بل هى الجرثومة المتحركة نحو الإيمان من القلب وجعل الولاء لله ورسوله صفراً ...

ومن حق المسلم الذى ولد فى عصر لهزيمة الإسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن

يشعر بالدهشة والتساؤل : لماذا كتب على آيات المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقها إلى الحياة ؟ ولماذا تركت آيات أخرى يستطيع من شاء أن ينفذها وأن يهملها ، وهل هذه الاستطاعة باقية أم إلى حين؟ ثم تلحق بالآيات المعطلة أى الميتة!؟

إن تطلع أى مسلم إلى طاعة ربه فى كل ما أمر به أو نهى عنه شىء عادى أو هو الشىء المرتقب الذى لا يرتقب غيره . ولذلك فمن السحاحة التى لا قرار لها أن يستغرب أحد المطالبة بحكم الله ، وأن يعرقل سير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء .

ولكنه الغزو العسكرى تحول إلى غزو ثقافى خبيث ، وسخ مخ الجليل الجديد وضلل سعيه ، وخلق عصابات من الأدباء والمترجمين والإعلاميين والمؤلفين والفنانين ، هجموا على تراثنا يبتغون سحوه لينحلوا محله أردأ ما فى الحضارة الغربية ..

بذلك ينتهى وجودنا الأدبى باسم التجديد ، وتتحول هزيمتنا السياسية إلى فناء باسم التقدم .

بيد أن الله أحيط كيد الخائنين ، ونشأت فى العالم الإسلامى شرقة وغربة نهضة عارمة تنشذ العودة إلى دينها وتزدرى ما أدخله الاستعمار علينا من قوانين ما أنزل الله بها من سلطان !

ومع المطالبة بعودة الشريعة الإسلامية إلى المجتمع الإسلامى ، نحب أن نلقى نظرة فاحصة إلى هذه القوانين الوافدة .. أن المستعمرين الأوائل الذين فرضوها كانوا نصارى ، فهل هذه القوانين نصرانية؟

الواقع أن الأناجيل ليست كتب تشريع ، وأن عيسى عليه السلام بيّن أنه منفذ لتعاليم التوراة فى الجملة ومعنى هذا أن شرائع العهد القديم هى التى يجب تطبيقها ، فهل طبق النصارى هذه الشرائع؟ كلا ! لأن اليهود أنفسهم أهملوا أغلبها فكيف يجىء غيرهم ليرد إليها الحياة ؟ بل إن «بولس» داعية النصرانية الأكبر وسع دائرة التعطيل ، فالقى الختان وهو مقرر من عهد إبراهيم الخليل ، وأباح أكل الخنزير ، ونصوص التوراة تأبى ذلك .. !!

وأتباع النصرانية فى العصور الأخيرة ينظرون إلى شرائع التوراة نظرة ريبة وتهمة .. فبعضها يستحيل علميا قبوله لقسونه وشناعته كتهديم بيوت بعض المرضى ونقصها من أسسها ، وبعضها حف به ما وقف تنفيذه كشرعية الرجم .. !!

وعلى أية حال فإن اليهود والنصارى جميعاً أمانوا أغلب الأحكام السماوية وشرعوا لأنفسهم قوانين أرضية تحكم شئون الأموال والدماء والأعراض ..

وظاهر أن عدداً من القوانين والنظرات الرومانية ساد المجتمعات الأوروبية وساقها إلى وجهته ، والقوانين الرومانية وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء .. وإنما تستمد وجاهتها من تقاليد ينبغي - لأمر ما - أن يحتكم الناس إليها !!

وعند التأمل نشعر بأن واضح القانون كان يتخيل نفسه مكان المنحرف ثم ينشئ العقوبة المناسبة فتجىء ، وكأنها اعتذار عن المجرم أو تقدير لوجهة نظره ، أو إتاحة لفرص النجاة أمامه ..

أعنى أنه ينظر في حال القاتل ، فإن كان الدافع إلى القتل شعوراً مفاجئاً تملكه ، أبعده عنه القصاص ومهد أمامه طريق الحياة !

إن واضح القانون في الحقيقة كان ينقذ نفسه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان المجرم ، أما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يتجاهلها .

وقد مضى هذا الشعور المعتل بى طريقه حتى أبطل أو كاد عقوبة الإعدام لجماهير القتلة .. وأمسى من العدالة أن يغتصب رجل ذئب بضعة عشرة فتاة ، ثم يقتلهن جميعاً ، ثم يقضى بقية حياته فى سجن مهذب !!

وفى نظر القانون الوضعى أن الجسد ملك صاحبه ، ليس لله حق فيه ! فإذا زنى إنسان بملء إرادته فلا حرج ولا جريمة ، وإذا كان هناك حق لزوج ، كانت المؤاخذه محدودة ، تذهب بتنازل الزوج !

والمال أخطر من العرض ، فسن الرشد المالى إحدى وعشرون سنة ، أما سن الرشد عندما يتصرف امرؤ فى عرض ، فثمانى عشرة سنة . والقضاء فى شئون المال ملزم بما كتب ، فلا تسمع الدعوى فى دين شقوى زاد على عشرين جنيهاً ، ولا مكان لضمير القاضى هنا فى محو أو إثبات .. أما فى شئون الدم والعرض فللقاضى أن يتصرف بما يراه أدنى إلى الصواب ، والصواب هنا وفق مقررات البيئة ، وفى قضية الثرى المصرى «على فهمى» الذى قتلته زوجته الفرنسية ، رأت المحكمة أن القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقدير لظروفها النفسية !!

وانقطاع الصلة بين التوجيه الإلهى وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة إلى القضايا الدولية فإذا قتل يهودى فى روسيا قامت الدنيا وقعدت ، وإذا قتل ألف مسلم فى بلد آخر لم يتحرك أحد .. !!

ومظالم الزوج فى جنوب إفريقيا قد تشير قليلاً من التعليق ، ولكن هذا التعليق يختفى عندما تبلغ القضية مجلس الأمن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب إفريقيا! أن الدول العظمى كلها تستغل حقها فى الاعتراض لتبقى جنوب إفريقيا ملكاً خاصاً للرجل الأبيض - يقترف ما يشاء دون حرج - ويحتاج حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الأم السابقة ؛ أنهم إذا سرق الضعيف قطعوه وإذا سرق الشريف تركوه : أى أن العدالة تتلون مع القوة والضعف ، وذلك ما يحدث الآن مع التقدم الحضارى الكبير ، إنه تقدم علمى حقاً ، ولكنه مشغل بأوزار الهوى وأحوال الشهوات ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه ، ولا يتبع هداة .

ولا نزعم أن القوانين الوضعية شر كلها ، فهى من صنع الإنسان الذى يصيب ويخطئ ويضل ويهتدى وربما تضمنت أموراً جديدة بالقبول خصوصاً عندما تعمل فى الميدان الإدارى أو الدستورى .. لكن ذلك لا ينسيتنا أمرين : أولهما أنها جعلت إقصاء الإسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير ، والآخر أنها تنقل إلينا قيم وأعراف أفتار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر !

ومن ثم كان الخندق عميقاً بين هذه القوانين الغازية المفروضة كرها ، وبين جماهير لم تنس ولاءها لله ورسوله ، ولم تتنكر لماضيها الإسلامى الثابت .

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظمتهم .. وبين حراس الإسلام والأوفياء لتراثه وتاريخه وأمت ..

ولما كان الإسلام ديناً متعدد الشعب ، له فى كل ميدان توجيهات ومعالم فإن رعى المعركة تسع يوماً بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد كما تتناول الزواج والحضانة ، وقد رفضت الجماهير أن تقسم ولاءها بين ما تريد وما يراد لها .

وكل يوم يزداد صوتها علواً بضرورة تحكيم الإسلام فى كل شئ ، وإنزال العبادات والمعاملات جميعاً ، على شرائعها المقررة فى الكتاب والسنة ...

وأعداء الإسلام أيقاظ لموقف أمتهم من شريعته المهدرة ، وهم يضعون العوائق علنا وسرا أمام عودة الشريعة الإسلامية ..

وأمل الفريقين لا يخفى ، فأعداء الإسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية تمهيدا لإزالة الإسلام كله ، حتى من مجال الأخلاق ، فالأخلاق المدنية لديهم أفضل من الأخلاق الدينية ..

وأنصار الإسلام يبيغون من عودة التشريع الإسلامى حماية الإيمان ذاته وحراسة آثاره فى شئون الحياة كلها ، ورد ما انتقص منها وإرغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الإسلام المناوئة لشعائره وشرائعه .

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهة العدو لا نريد أن ندافع عن أنفسنا بالباطل ، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهنا ألف عام ، وأخذنا نطحن فى الماء خلال تلك القرون ، ما نزيد ولا ننقص . وكأنما أثبتنا الفلك وأغمضنا عين الزمان ..

وعندما أرغمنا على الحركة شرع لفيف منا يبدأ العمل من حيث وقف الآباء غير معترف بأن شيئا ما قد حدث فى طول العالم وعرضه .

إنه لا بأس أن نغالى بما عندنا ، على شريطة ألا نبخس ما حققه الآخرون فى فترة غيابنا عن قيادة العالم .

وشىء آخر لا بد أن نراجع أنفسنا فيه ، أن الشمال الإفريقى لا يعرف إلا فقه الإمام مالك ، وأغلب الأتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف إلا فقه الإمام أبى حنيفة .. ولكل إمام كبير أتباع متحمسون ..

وهؤلاء الأئمة الأعلام صنعهم الإسلام ولم يصنعوه ، وما أتردد فى اعتبارهم قمما مرموقة . لكن مسلمى العصر الحاضر لا يجوز أن يلقوا حضارة العصر وفكره الموارى بوجهة نظر واحدة لإمام لا يعرفون غيره .. الإسلام أكبر من ذلك .

الفقيه المسلم فى هذا العصر يجب أن يستوعب ما قاله رجال الإسلام فى تفسير نصوصه ، وأن يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طلع به العصر من نظرات ومبادئ !

إن التعصب المذهبى منكور بين العامة ، وأرى أنه بين الفقهاء جريمة غليظة .. فإذا شرعنا نرد القوانين كلها إلى فقهنا الإسلامى ، فسنبجد أنفسنا أمام يتابع دقافة وثروات طائلة ورجال مهودوا الطريق واستحقوا التقدير .. وما علينا إلا أن نحسن التأسي ونسرع المسير .

## ٥١. ما معنى الإجماع وما مكانته فى الإسلام ؟

للإجماع معنيان نحب أن نوضحهما : فهناك إجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أى أن هذا الإجماع يعتمد على نص هو الذى أثبت الحكم الشرعى ويستوى فى هذا النص أن يكون من الكتاب أو السنة ، مادامت دلالة قاطعة !

والمجمعون هنا هم الأمة كلها من عامة وخاصة ، الأمة الإسلامية إذا اتفقت كلمتها على حكم شرعى من هذا القبيل فقد زادت الحكم قوة ، ومنعت للأبد أى شغب عليه «ولما كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يعد انفلاتا من الإسلام وخروجاً عن الدين» !

أما الإجماع الآخر فهو اتفاق أهل النظر ، أو أرباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصلحة أو تطبيقاً للقواعد الفقهية المعتمدة ، أو ما أشبه ذلك من أدلة .

ويجب احترام هذا الإجماع ، والتزام الأفراد به ، وإذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه فهو ينسخ بإجماع آخر ، من أهل الذكر ، وأصحاب الحل والعقد ، وليس لأحد أن يتصرف متجاهلا هذا الإجماع ، والأمة التى تحترم نفسها ، والأفراد الذين يحترمون أمتهم لا بد أن يتقيدوا بهذا الإجماع ؛ لأن الخروج عليه قد يكون فسوقاً أو عصياناً ، وربما لا يسه ما يؤدي إلى الكفر .

ونعود إلى شرح الإجماع بمعنييه ، وضرب الأمثال التى تكشف حقيقته !  
أمر الله بالصلاة فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (١)

ثم علم الرسول الأمة كيف تصلى وبين عملياً أن الصلوات المفروضة تحتوى على سبع عشرة ركعة . موزعة على الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأن كل ركعة بها ركعتين واحد وسجودان ... إلخ .

وأجمع المسلمون إجماعاً مؤكداً منذ القرن الأول على هذه الحقائق ! ما شد أحدا !

(١) البقرة : ٢٣٨







وفى صدر السورة يقول الله لنبيه محمد: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

إن الكتاب الجديد الذى يحمله النبی العظیم، يخرج الناس من الظلمات التى عاناها بنو إسرائيل من قبل، كما يخرجهم من ظلمات الجاهلية الخيمة على كل قطر، إنه يحو الوثنيات الدينية والسياسية على سواء.

الناس يسجدون لإله واحد، لا يسجدون لغيره! ومشاعر الخوف والرجاء والرغبة والهبة ترتبط قبل كل شيء وبعدة بالخافض الرافع الضار النافع!

وكل تقليد سياسى أو اقتصادى يربط المشاعر السابقة ببشر ما، فهى ذرائع شرك وأسباب فساد، ومحوها من الإصلاحات الأساسية للنظام الإسلامى.

ومعروف أن شبكة التشريعات الإسلامية تتناول الفرد من المهد إلى اللحد، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق الى عقد المعاهدات، والأمة الإسلامية بهذا المنهاج أمة رسالة تعمل بها وتدعو إليها وقد قال الله لنبيه: ﴿وَرَفَعْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢).

ومعنى هذا أن الحكم الإسلامى ليس دعوة إلى سيادة جنس من الأجناس، ولا هو محاولة لنشر فلسفة أرضية، ولا تعاون بين أفراد شعب ما؛ كى يعيشوا فى مستوى معين من الغذاء والكساء!

إنه دولة تحمى عقيدة وتقيم شريعة، وكما يصلى الناس وراء إمامهم فى المسجد يعبدون الله، ولا يعبدون هذا الإمام، يمضى الناس وراء حاكمهم لإرضاء الله وإقامة دينه، لا لإعلاء الحاكم، وإشباع نهمه فى السلطة، أو تعلقه طلباً لدنيا، وارتقاباً لمغنم...

تلك هى السمة العامة لنظام الحكم الإسلامى، وللتفاصيل مكان يجىء بعد. والأمة الإسلامية - وقد بينا وظيفتها - مصدر السلطات التى تنشأ بين ظهرانيها، أعنى أنها وحدها صاحبة الحق فى اختيار الرجال الذين يلون أمرها وفى محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال، وفى ذمهم أو الثناء عليهم، وفى معاقبتهم إن أساءوا، وفى عزلهم إذا شاءت...

(٢) النحل: ٨٩.

(١) إبراهيم: ١.

وكلمة «مصدر السلطة» من مصطلحات العصر الحاضر، ونحن لانهتم بالاسم وإنما نهتم بالحقيقة والمثلول، كما أننا نرفض التلاعب بالألفاظ.

إن المسلمين أثبتوا حقهم فى اختيار الخليفة، أو رئيس الدولة، بعد وفاة الرسول مباشرة، وتبين من مسلكتهم أنه لا خلافة بالاغتصاب أو الانقلاب العسكرى، ولا خلافة بالوراثة، ولا خلافة بعصبية ما تفرض نفسها بأى لون من ألوان الإكراه المادى أو الأدبى.

إنها بيعة حرة تعتمد إلى أكفأ رجل فتقدمه وتراقبه، فإن صدق ظننا فى خدمتها وخدمة رسالتها كانت طاعته ديناً، وتوقيره تقوى، وإن صدق عليه إبليس ظنه فلا طاعة له ولا كرامة...

ولأى مسلم بأنس من نفسه القدرة على هذه الرياسة أن يرشح نفسه، وإذا أنس القدرة فى شخص آخر رشحته، وعرض على الناس اسمه!...

إن يوسف الصديق رشح نفسه لشئون المال، وقال للملك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكَ﴾ (١) ورشح خالد بن الوليد نفسه لقيادة المسلمين أول الاصطدام بالروم فى معركة اليرموك؛ لأنه رأى نفسه أبصر بأسباب النصر، ورشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الصحابى الكبير أبا بكر الصديق لرياسة الأمة وتمت مبايعته...

وما روى مخالفاً لما قلنا فله ملاساته الصحيحة... إن أبا ذر رضى الله عنه رغب فى الإمارة ورشح نفسه لها، بيد أن النبى ﷺ أفهمه أنه ضعيف وأنه - مع تقواه - لا يقدر على أعبائها.

كما أن النبى رفض ناساً من عشاق الإمارة، طلبوا منه أن يعينهم فى بعض المناصب...

إن المتطلعين إلى المناصب الكبيرة كثيرون، وكذلك الذين يحسنون الظن بمواهبهم! والأمة وحدها هى التى تنتخب من تنوَسَم الخير على يديه، وتراه أقدر على مقاليد الحكم، وأجمع خلال القوة والأمانة...

(١) يوسف: ٥٥.







كيف يقال هذا ، مع قول رسول الله ﷺ : «ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة حتى يفكه العدل ، أو يوبقه الجور ، وإن كان مسيئاً زيد غلاً إلى غله» .  
إن واحداً من الخلفاء الراشدين لا يمدح بهذه الكلمات الحمقاء ، فكيف بغيرهم من حكام الجور؟ ..

ومن الذى أعطى الحاكم مهما علا شأنه حق الاعتراض على رأى الجماعة أو رأى الكثرة ، فإذا رفع يده رافضاً سكوت الناطق ، وحم القضاء؟ وما قيمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ مع هذا الحق؟

إن أجهزة الشورى المنظمة ، المحترمة الملزمة هى التى تحفظ حدود الله ، وهى التى تأخذ على أيدي الظلمة وتقى الأمة شرهم ، وتنفذ قول الرسول الكريم «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك يعمهم الله بعقاب منه» .

• وقد حكم التاريخ الإسلامى قريب من مائة خليفة من بضع أسر تعد على أصابع اليد! أكدت سيرتهم حاجة المسلمين الماسة إلى أدق أجهزة الشورى ، وأشدّها محاسبة لولاء الأمور ..

ومن معالم الدولة فى الإسلام حفاظها الشديد على حقوق الإنسان المادية والأدبية ، وتوفير الأمن للأفراد والجماعات ، والترهيب من إيذاء أحد أو ترويعه! وجعل الدماء والأموال والأعراض فى مثل حرمة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام أو أشد! . وإقرار العدل مع المؤيد والمعارض والقريب والغريب والغنى والفقر ، وتهديد الأمة جمعاء بالهلاك إن هى تبعت الهوى ، واستمرت الفساد ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١) .

ولما كانت للسلطة ضراوة كضراوة الخمر ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام حذر الحكام من الميل مع الهوى فقال : «صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلم غشوم ، وكل غل مارق . والغلول الاختلاس من المال العام .

والغريب أن الفساد السياسى والاستغلال الشخصى لا يفترقان ، فقلما نجد مستبداً إلا سارقاً لمال الأمة ، متخوضاً فيه بغير حق ، هو وأقاربه وأتباعه !!

ومن هنا نفهم ما رواه ابن عباس أن رسول الله بعث معاذاً إلى اليمن - أميراً عليها - وقال له : «أتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» .

ويستوى أن يكون المظلوم مسلماً أو غير مسلم كما جاء ذلك مصرحاً به فى روايات أخرى ..

ولمألة الحاكم إغراء! وكما يتساقط الذباب على الحلوى ، يتهاوى الطامعون عند أصحاب السلطة ، ولا يحتاج ذلك إلى دليل! وقد نبه النبى ﷺ إلى عواقب هذه المسالك ، فقال : «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم! ولكن من رضى وتابع» .. ولم يذكر النبى جزاءه ؛ لأنه معروف ، ثم رأى أن يذكر جزاء مؤيدى الباطل وأذئاب المفسدين فقال : «يكون أمراء تغشاهم غواش أو حواش من الناس ، يكذبون ويظلمون ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست سنه! ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه» ، وفى رواية أخرى : «فمن صدقهم بكذبهم فأعانهم على ظلمهم فأنامته برئ ، وهو منى برئ»! والروايات كثيرة فى هذا الموضوع الحساس فى حياتنا وتاريخنا ..

ونعل ذلك سر الخصومة الممتدة بين أئمة لفقهِ الإسلامى وبين جمهرة الحكام الذين تسموا خلفاء ، وهم ملوك من شرار الملوك!

وقد كانت جماهير الأمة تعرف عدالة لفتقيه بقدر قربه أو بعده من باب السلط وما ذلك إلا لشعورها العميق بأن هؤلاء السلاطين قطاع طريق ، لا خلفاء راشدون! ..

أما ليس الدولة - أو الخليفة الصالح - الوفى للأمة ورسالتها فإن محبته عبادة ، وتوقيره دين ، وتأنيده واجب على جمهور المؤمنين! أليس الساهر على مصالحهم التهاوى بأعبائهم؟ أليس الحامل للرأية القائد للجهاد؟

لقد جاء فى السنن أنه أول السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله!! .. كما جاء عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رقيق ، وشر عباد الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق» - أحق!

## ٥٤. ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة؟

أجدني بحاجة إلى تأكيد أنه لا فرق بين مقتضيات الفطرة السليمة ، وتعاليم الدين الخفيف !

إننى أحيانا أصحح بعض الأفكار الدينية الماثلة على ضوء سلامة الفطرة ، كما أصحح بعض المسالك التي يزعم الإنسانون سلامتها على ضوء الوحي المعصوم .. وقد بحثت عن المقصود بأسس الدولة الحديثة بعد ما ذكرت أن الحكم عندنا يقوم على الاختيار الحر ، وأن الشورى تلزم الحاكم ، ماذا بقى؟

قالوا بقيت أمور نعرضها واحداً واحداً! هل يقبل الإسلام أن يختار الخليفة لأجل محدود؟

قلت : ليس هناك نص يمنع ، فإذا وجدت الأمة أن ذلك أحفظ لمصالحها ، وأصون لحرّياتها ، وأبعد عن إساءة السلطة ، وأدعى إلى تواضع الحاكم ، فلا حرج عليها فى تقريره! ..

قد تقول : إن ذلك لم يعرف فى تاريخ المسلمين الطويل! ونجيب بأن تاريخ الخلافة غير الراشدة ليس أسوة ، بل قد يكون مثار لوم ومؤاخذه لذويه!

أما تاريخ الخلافة الراشدة فإن اختيار الخليفة فيه لم يتخذ نهجاً واحداً ، فأبو بكر - رضى الله عنه - انتخبه أهل الحل والعقد انتخاباً مباشراً ، وعمر عهد إليه الخليفة القائم بعد مشورة عامة ، وذلك للظروف التي كانت تمر بالدولة ، فهي مشتبكة فى قتال ضار مع الروم والفرس جميعاً .. وعثمان أختير من بين ستة عينهم عمر ، ثم أقبل الناس يبايعونه حتى تم استخلافه .

وعلى يابعتة الجماهير بعد مقتل عثمان مبايعة حرة لا ثغرة فيها !

وهذا الأسلوب المتجدد يشير إلى جواز كل ما يمنع الاستبداد الفردى ، مهما اختلفت صوره ، ولا يجزئ مسلم على تحريم تصرف لم يجزئ فى تحريمه نص ، من الكتاب أو السنة ، أو القياس الجلى ، أو الفوائد المحرمة ، بل الذى يقال هنا : إذا وجدت المصلحة فثم شرع الله !

وعندما نراجع تاريخ الخلافة غير الراشدة ، وجنائيتها الشديدة على الإسلام ، نميل إلى توقيت زمن الخليفة ، وتعريضه لانتخاب عام بين الحين والحين .

ولا يחדش هذا الحكم أن الأجانب سبقونا إليه فى معالجة الاستبداد السياسى الذى أصيبوا به ، ونجوا من عقابله وما نجونا !

وأعرف أن هناك قوماً لم ينطقوا بحرف فى التعقيب على ظلم قديم أو حديث ، يضيقون بتقييد المدة التى يبقاها الحاكم فى الحكم لماذا؟ لعلهم لم يقرءوه فى متن ، أو شرح !

وهؤلاء لا يجوز أن يوزن لهم رأى ! ..

قال صاحبى : يمكن القول بأن تقييد زمن الخليفة مسألة لا يأمر الإسلام بها ولا ينهى عنها! فما رأى الإسلام فى وجود أحزاب سياسية تسعى للحكم وتستعمل له أهبتها وهى بعيدة عنه ، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية ، إذا جد ما يستدعى ذلك؟ قلت : هى كسابقتها ، لا يوجبها الدين ولا يحرمها ..

إن تكون المذاهب الكثيرة ، واختلاف وجهات النظر ، أثر طبيعى للحرية الفكرية التى وفرها الإسلام لاتباعه ، وعرفها الناس بعد صراع مرير مع الجباية والأدعياء .. وإيغال الحكم الفردى فى الاستئثار بكل شىء هو الذى حظر على الناس حقاً طبيعياً لهم كان يمكن أن يمارسوه فى سلام وسماحة !

قال : كيف يسمح الإسلام بمعارضة لولى الأمر؟

قلت : إن المعارضة فى نطاق الشورى ، وطلب الحقيقة واحترام حق الكثرة ، لاشىء فيها ، وهذه المعارضة نفع فى تفصيلات تشريعية واجتماعية ليس لأحد أن يفرض رأيه فيها بالعنف ، سواء كان حاكماً أو محكوماً ، ولنضرب لك الأمثال ! ..

هب أن جماعة من الناس تخيرت من مذاهب الفقه الإسلامى أن تؤخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار ، وأن تبقى المناجم ملكاً لأصحابها على أن يؤخذ منها الخمس ، وأن يسوى بين ذية الرجل والمرأة ، وأن تباشر المرأة عقد زواجها ، وأن تقبل شهادتها فى الدماء والأعراض كما تقبل فى الأموال ، وأن يقبل التفاضل فيما وراء الأصناف الستة ... إلخ ثم وضعت هذه الجماعة منهاجها هذا وعرضته على الأمة ، وذكرت أنه أساس حكمها إذا منحت التأييد من الجمهور ، أ يكون

هذا التصرف ارتدًا عن الإسلام! يُكون عصيانًا مسلحًا للحاكم الموجود؟ لا هذا ولا ذاك !! ..

نعم إنه خروج على الخلف من تقليد لحكم الفردى عندنا .  
ألا لعنة الله على هذه لتقليد التي قتلت الدين وأمتته ، وجعلت دار الإسلام نهبا للذئاب والكلاب !

لقد ذكرت عوقد خلاف لفقهي لشي يخفى وراءه الغوغاء .  
وهناك ما يسويه في القضية . هب ق جماعة من الناس رأيت أن تضع منهجا لتصنيع البلاد . في سنة زراعية . أو لاتحادها مع غيرها ، في أقاليم منفصلة أو لإنشاء سيد إسلامية مشتركة . أو تحوير أساليب عرض الإسلام ، مستغلة في ذلك إمكانيات حكم . قد لم يتبع من إنشاء حزب ما ، لتحقيق ذلك؟ سواء ضاق به الخيفة أو عي !

أليكون شك نقض لبيعة وخروج عن جماعة؟ لا هذا ولا ذاك ؛ لأن الأمة ستقول كلمتها . وسترفض ما تراه خطأ . وتقر ما تراه صوابا ، ومن فاز بثقتها اليوم يمكن أن يحرم منها غدا . مع نجاح معارضين في كسب الرأي العام .

أليس هذا قصير من لاغتيال والكت والاحتيايل ، والصفاق التهم بالأبرياء ، وتمكين الجهل من الإسلام بحقه لأمر من ظن ما ينبغي؟

قال صاحبي : كنتك معجب لمنظم لالتحدي السائد في الغرب !

قلت : به نظام فقد صحبه كثير بوقيل . بيد أنه فسد عندئذ ؛ لأن الاستبداد السياسي يؤد . جعله غير محود . باسم لإسلام . أحارب الاستبداد بكل ما لدى من صفة . إذ تضمنت لعبة ولعسكرية أهينت طويلا في أمتنا ، وبطش الحكم القوي في غير حجة . حجة . أغرى : لماذا يقتل فاتح السند محمد بن القاسم بقة كبرت لند يقضي وقع لأسر بقة عمره مهانا منبوذا؟ لماذا يقتل أبو حنيفة سحبا يجب ؟ لند يضرب ملت ويجلد ابن حنبل؟ ويموت ابن تيمية محبوبا؟ لند يقتل حسن لند يضرب صحابه من بعده؟ لماذا يضرب رئيس مجلس لبيعة عبد الرزاق السهرري ليعر موت من بعد مشلولاً؟ لماذا؟ لماذا؟

إنني أستطيع البقاء ساعات أتساءل وأتساءل ، فإذا فكرنا في تغيير هذا البلاء ، ورسنا أوضاعا تطيح به ، جاء نفر من الغوغاء الذين يلبسون زى الفقهاء ، ليقولوا باسم الإسلام : لا ، وهم - من الناحية العلمية - أشد الناس جهلا بالدين ، وخبرة بآربهم ودناياهم؟

قلت ومازلت أقول : إن مبادئ الإسلام معصومة ، أما الذين حكموا باسم الإسلام ، وهم عشرات الخلفاء من ثلاث أو أربع عائلات ، فأمرهم فرط ، ونريد إنصاف الإسلام منهم ، وحماية حاضره ومستقبله من لوثتهم ..

لقد سقطت هذه الخلافة على أيدي التتار في القرن السابع الهجرى ، ثم سقطت الخلافة مرة أخرى على أيدي الصليبيين في القرن الرابع عشر الهجرى .

الأولى كانت حكرا على أولاد العباس! والثانية كانت حكرا على أولاد عثمان ، وهو من وجهاء الأناضول في القرن الثامن! هل هذا الوضع هو الذى يستبقيه الإسلام ، ومن أجله يرفض تقبيده مدة الحاكم ، ويرفض وجود الأحزاب السياسية .



## ٥٥. كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(١)</sup>. هذه الآية أدل شيء على صفة أمتنا وفحوى رسالتها. إنها أمة أورثها الله كتابه وأوصاها أن تعمل به وتدعو إليه، وأن تجعل وجودها المادى والأدبى مربوطاً بحقائق الوحي الأعلى، وترجمة عملية لمراد الله من خلقه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد بقيت علاقة الأمة المصطفاة قائمة برسالتها تلك على تفاوت مشير، أحياناً تقوى فلا يعجزها شيء! وأحياناً تهين فيغلبها الذر!!

ومع التأمل فى التاريخ الإسلامى أستطيع القول: إن بقاء المسلمين إلى يوم الناس هذا يرجع قبل كل شيء إلى حفظ الله تبارك اسمه! ثم إلى وفاء الجماهير العميق لدينها ثم إلى جهاد الفقهاء والدعاة والمربين!

أما التاريخ السياسى فركام من الأقداء نما على مر الأيام وبلغ ذروته فى هذه السنين العجاف!..

وإن كان يظهر بين الحين والحين خليفة أو ملك يمسح القذى، ويمهد الطريق ويكبت العدو!!

لقد شقت الأمة طريقها بقوة على عهد الخلافة الراشدة، وكانت الجماهير والحكام جسداً وروحاً لا فكاك بينهما.

ثم اضطربت أجهزة الحكم العليا، ودخلها خلل مزعج أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية، ومع ذلك رأى جمهرة العلماء والدعاة أن يبقوا الأمة موحدة الصف والهدف وراء أولئك الحكام، فكان المسلمون أمة واحدة وخلافة واحدة تقريباً..

ثم نبتت إلى جوار الجذع الغليظ سيقان أخرى ما لبثت أن اشتدت وتحولت إلى جذوع قوية، ومن هنا قامت دول إسلامية شتى، فشاعت الفرقة والضعف!..

(٢) الحج: ٤١.

(١) الأنبياء: ٩٣.

والحق أن مأساة الإسلام الأولى لم تجئ من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين وندرة مواهبهم، وسقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لإدارة قرية صغيرة أو شركة محدودة!!

وما بد من كيان سياسى وثقافى موحد للمسلمين، حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم، إلى جانب ما هو معروف من أن الإخاء الدينى بين المسلمين، يسبق أخوة النسب، وأن الولاء للمعتقد فوق الولاء للنزعات العرقية والأرضية!

وقد يظن ظان أن هذا ضرب من الغلو! لكنى بعد ما درست التاريخ الدولى للعلاقات بين المسلمين وغيرهم شعرت بأن هذا الترابط الإسلامى ضرورة حياة، ونداء البقاء بين ملل وتجل تنظر إلى المسلمين بكره، وتود لهم العنت، بل الضياع! ولا تزال الضغائن الأولى تتوارثها الأجيال، وتزيد جذوتها وهجاً، حتى مطالع هذا القرن الخامس عشر، فمع عمق الفجوة بين الهندوكية والشيوعية والصليبية واليهودية، رأيت الكل يعالجون الوجود الإسلامى بالقتل.

المذابح الطائفية فى الهند، والحرب الكيماوية فى أفغانستان، ومجازر صبرا وشاتيلا فى لبنان، ودير ياسين فى فلسطين المحتلة، إنها النقمة على الإسلام وأمتة حيث كانت، قاسم مشترك يجمع بين الأضداد على اختلاف الزمان والمكان، وغيرهم بانتهاز فرصة الضعف السائد للإجهاد على هذا الدين إلى الأبد...

فهل يلام المسلمون إذا فكروا فى وحدتهم وخلانتهم بعد ما فشلت النزعات العالمية والصيحات الإنسانية فى حقن دمائهم وحفظ حقوقهم؟..

وسؤال آخر؟ من من الوثنيين وأهل الكتاب نسى عقيدته، أو أصم أذنه عن ندائها؟ حتى يقال للمسلمين: انسوا ما لديكم!!

إن التحالف المكتوب وغير المكتوب ضد الإسلام يجعل الإنسان يهتف بين الحين والحين بالبيت المشهور:

كل يوم تبدى صروف الليالى

خلقاً من أبى سعيد عجيباً!!..

فلنقم للإسلام دولته الجامعة ولتعد إليه خلافته الضائعة، ولتعلم المسلمون من أخطائهم الماضية كيف يحترمون الصواب ويلتزمونه..

سمعت من يقول: كيف يمكن حشد المسلمين فى دولة واحدة، وتحت راية واحدة، وهم ألوف مؤلفة موزعون على أقطار فيحاء؟.



قلت : إن المسلمين يبلغون ألف مليون نسمة ، وقد قامت للصين دولة وهى مثل ذلك العدد .. فإن قلت : إن الصينيين على أرض واحدة ، ومساحة مشتركة . قلت : إن الاتحاد السوفيتى قدر على بناء دولة واحدة فوق أرض تأخذ نصف أوربا ، ومثل ذلك من آسيا مع تعدد الأجناس واللغات !!

إنه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين ، بل إن هذه الدولة ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، ما يخرج عن نطاقها إلا عدد محدود ، يرنو إليها يستظل من بعيد بحمايتهم .

إن العوائق دون هذه الدولة نفسية ، ومعنوية ، واستعمارية ، وهى ترجع إلى المسلمين قبل أن ترجع إلى خصومهم .

إن البعد عن الإسلام ، والموت الأدبى الرهيب الذى حاق بشعوبه كانا من وراء سقوط الخلافة ، واقتسام الأقوياء لثرائها ، بل إن المستعمرين فى أقطار شتى من إفريقيا وآسيا خرجوا من الأرض التى احتلوها طوعاً لا كرها ، ودون أن تسفك قطرة دم ! وتركوا فى هذه الأرض حكاماً محليين يحرسون مصالحهم ونستحى أن نقول : تركوا حكاماً حزنوا لانسحابهم !

ومن هنا نؤكد أن عودة الدولة الإسلامية الواحدة تحتاج إلى تمهيد واسع ، يعيد المسلمين أولاً إلى دينهم الحق ، ويملاً أفئدتهم وألبابهم برسائله وعقائده وشرائعه وفضائله ... كما تحتاج إلى بصر حاد بأخطاء الماضى وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها ، بلباقة ومقدرة ، فتنبنى الدولة الجديدة على قواعد لاتنال منها الأيام ..

وغنى عن البيان أن هذه الدولة الجديدة ، ليست مركزية ، إنها مجموعة من الأقطار أو الولايات لها حكوماتها المحلية ، ومجالس شوراها ، وضرائبها ، وشخصيتها المعنوية ، يتكون منها بعد ذلك ، كيان الدولة الكبرى ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطانه العامة ..

ويستطيع الأخصائيون وضع القالب القانونى لهذا البنيان السياسى ، ولا حرج عليهم أن يقتبسوا من الأنظمة المطبقة فى دولة مشابهة بعد إشرابها روح الإسلام ..

إن العنصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنثورة ، إنه عصر التكتلات الكبيرة القديرة على الحياة والمقاومة الذاتية !

إن العالم الإسلامى ضم أجناساً كثيرة ، من عرب وفرس وترك وهنود وزنوج ... إلخ وهى أجناس سعدت بهذا الدين ، وأرضت به ربها ، وحقت به وجودها ، ولكننا

نقول بصراحة وصراحة : الإسلام استفاد سياسياً وثقافياً من فضائل هذه الأجناس ، كما نكب ثقافياً وسياسياً من معاييبها الأخرى !! ..

ولما كنت عربياً مسلماً فإننى سوف أتحدث عن بنى قومي وأتحدث إليهم ..

ما هذه العروبة التى اخترعوها ، وكابروا بها الإسلام ، وحسموا الولاء له ، وجعلوا قوميتها فوق الدين ، ويعثها بعيداً عن هداها؟ ..

هل العرب بلا إسلام يصلحون لشيء؟ أو يقدمون للإنسانية أى شيء؟

تفرست فى وجوه العروبيين الجدد ، ورايت منهم ضغن على محمد ، وهو أعلى قمة فى التاريخ واستهانة بصحبه ، وبما حملوا للعالم من وحي ! أكان مطلوباً من هؤلاء الأصحاب ألا يبلغوا القرآن؟ وأن يتلوا على مسامع الناس هراء عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الرضيع لنا قطاماً

تخرله الجبابر ساجدين!

لماذا؟ أيها الأبله؟

لا حياة للعرب ، ولا شرف ، إلا بالعودة إلى سيرة أجدادهم الأقدمين ، والإخلاص للإسلام عقيدة وشريعة ، واستبطان أدبه ، والتزام هدفه ، والاستقامة على صراطه المستقيم ..

أما أن يعود البعض إلى قبر مسيلمة ، يناشده العودة إلى الحياة ، ويطلب منه قيادة صحوة عربية جديدة ، فهو لا يالو أمته إلا خبالاً ، ولن يزيد العالم إلا سخرية بها ...

ولما ترك العرب تقاليد الإسلام السياسية ، وتقوى الخلافة الراشدة ، وسلوك الفقهاء الكبار ، ماذا صنعوا؟

استحبوا تقاليد المفاخرة والمنافرة ، والذهاب بالأباء ، واسترخاخص الدماء ، فإذا الشعوب فى أرجاء الدنيا تنفس بحرية ، وتعرض حكامها فى طمأنينة وثقة ، وتهتف ضدهم إذا شئت .. أما العرب ، فإن حاكماً واحداً يقدر على سحق عشرات الألوف لتكون العزة لغير الله ! ومع هذه الفتكات الرهيبة يتواصى بقية العرب بالسكوت المطلق !

أظن العرب فى جاهليتهم الأولى لم يبلغوا هذا الدرك من النذالة !

إنه لن تقوم دولة الإسلام الكبرى إلا إذا اعتنق العرب الإسلام من جديد ، وكرروا ما صنع سلفهم الأول ، وإلا ذهب الله بهم وأتى بخير منهم .

## ٥٦. يوجل الناس من الحكم الديني، وعودة الخلافة! فهل هناك ما يدفع هذا الوجل؟

عندما يتخذ التعصب الديني قناعاً له من الحرية الفكرية فإن الأمر يستحق كل ازدياء ومن حق المسلمين أن يسألوا: لماذا نالت «إسرائيل» الرضا التام بوجودها وهي تقوم على أساس يهودي صرف؟ وترسم حدودها وفق مخططات التوراة؟

إن الشرق والغرب كليهما اعترفاً بحقها في الحياة، بل لم يعترفاً بحق العرب في «بقاء جزئي» إلا بعد الاعتراف بهذه الدولة الدينية؟..

لماذا قامت «اللفاتيكان» دولة توجه أغلب نصارى العالم وتملك القوة الاقتصادية الثالثة - بعد أمريكا وروسيا - وتضع سياستها الرتببة لتنصيب الشعوب الأخرى وفي طليعتها المسلمون؟

إن الحرب الصليبية التي شنها قياصرة «روسيا» لم تدع الشيوعية ثمراتها، بل ضمت إلى الأقطار الإسلامية المفتوحة «أفغانستان»!

والحرب الصليبية التي شنتها الدول لغربية تركت في الكيان الإسلامي تزيفاً طائفيّاً وثقافياً يوشك أن يقضى عليه!

إذاً تحرك المسلمون ليحموا كياناتهم، ويجددوا دولتهم قبل لهم: يجب أن يتعدد الإسلام عن السياسة، فنحن نوجل من الحكم الديني!! ومن عودة الخلافة الإسلامية! الحق أن هذه صفاقة مستغربة!..

إن الذي نوجل منه، ويوجل منه كل عاقل! هو عودة الاستبداد السياسي! أو تولى رجل الحكم وهو يزعم أنه ذو صلة خاصة بالله، أو أن الروح القدس حل فيه ويتعاون معه!!

والخلافة الراشدة بريئة من هذا الجنون المقدس، وتصريحات رجالها واحداً واحداً يتمنى لو يقولها اليوم أعظم رجال «الديموقراطية» المعاصرين..

ألم يقل أبو بكر: إن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فتوموني؟ وعندما يلي الأمر

يقول: أيها الناس كنت أحترف لعيالي (أكسب قوتهم) فأنا اليوم أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم!

ويجيء بعد أبي بكر عمر ليقول للناس في المسجد الجامع: إذا وجدتم في أعوجاجا فقوموه، فيسمع من بين الصفوف صوت يقول: لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا! فيكون جواب عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم أعوجاج عمر بسيفه!

وفي رواية أن عمر خطب فقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فشق الصفوف رجل يقول وهو يلوح بذراعيه كأنهما حسام مشوق: إذن نقول بالسيف هكذا...

فسأله عمر: إياي تعني؟ فيجيب الرجل: نعم إياك أعني بقولي! فيرد عمر: رحمك الله الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عوجي.

ويجيء دور عثمان، الخليفة النبيل المظلوم، الذي يقول للناس: «إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيود فضعوهما»..

وقد كان عثمان قديراً على استصراخ عشيرته، وأعمال السيف في محاصرته لكن الرجل الحبي الرقيق قبل أن يموت دون أن يستبيح فطرة دم لمسلم!!

ويتولى على الخلافة فيقول: إنما أنا رجل منكم لي مالكم وعلى ما عليكم! ويقول: ليس لي أمر دونكم ويقول لصاحبه: إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوء - سواء.

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ميراثاً من أجداده بنى أمية كره الرجل الكبير هذا الوضع الذي يرفضه الإسلام، وخرج إلى المسجد الجامع يقول للناس: لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني، وعلى غير مشورة من المسلمين، وإنني أخلع بيعة من يابعنني، فاختاروا لأنفسكم!

فردت الجماهير بصوت واحد: بلى إياك نختار يا أمير المؤمنين... هذه هي الخلافة الراشدة، التي أمرنا أن نستمسك بستها، أترى واحداً من رجالها يعرف الحق الإلهي للملوك؟ أو يظن نفسه فوق الأمة قيد إصبع؟ ويحتسب الحكم بقرة حلوبا تدر عليه وعلى أسرته وأتباعه؟

أترى واحداً منهم نكل بمعارض أو ضيق عليه الخناق أو حرمه حقاً له؟..

والداهية الدهياء في عصرنا هذا متحدثون عن الإسلام لا فقه في الدين ، ولا بصير لهم بتاريخ المسلمين يصورون الحكم الإسلامي تصويراً منكراً ، ويقررون أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان ، يقولون : الحكم المسلم لا تقيده الشورى ، ولا يسمح بأحزاب معارضة ، ولا يعترف بمبدأ الانتخاب ، وحق الكثرة في فرض نفسها !!

إنهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية ، ويؤيدون الحجاج والسفاح وكل مفتات على الأمة .. إنهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشدة ، والملوك الذين حكموا الإسلام ولم يحكمهم الإسلام ...

وهم بفكرهم وسلوكهم امتداد لزواية الانحراف الثقافي والسياسي في التاريخ القريب والبعيد ، وبعضهم له إخلاص الدبة التي قتلت صاحبها ، وللبعض الآخر باع طويل في الارتزاق والأكل على موائد الحاكمين !! ...

علماء الدين عندنا يقولون في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ : إن الراوى الثقة إذا خالف من هو أوثق منه عد حديثه شاذاً ورفض . وإذا كان الراوى ضعيفاً ، ونقل ما يخالف الصحاح عد حديثه منكراً أو متروكاً ورفض !! ..

فما نقول في ناس يرسمون صورة الإسلام من أحاديث شاذة أو منكورة أو متروكة؟ وفي أى مجال؟ في ميدان الحكم ، أو لمظاهرة فرد مستبد؟ ..

روى المحدثون عندنا هذا الحديث الضعيف ، نذكر نصه ثم نعلق عليه! روى بصيغة التعريض أن النبي ﷺ قال: «السلطان ظل الله في الأرض، يأوى إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر».

هذا الحديث الضعيف مخالف بسنن صحيحة كثيرة منها «لتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم».

ومنها : «أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه» .

ومنها أحاديث تغيير المنكر بمراتبه الثلاث ..

وظاهر الحديث الضعيف مرفوض من ناحيتي الشكل والموضوع ، وهو إما منكر أو متروك! ومع ذلك نقله وروج له بعض المرتزقة من المتحدثين عن الإسلام ..

ونسارع إلى القول بأن الأخذ على يد الظالم ليس باغتياله ، بعد محاكمة فردية له من بعض الناس ..  
التصرف الإسلامي الوحيد مد رواق الحكم الشورى والمعارضة الحرة ، فمن رأى من الحاكم عوجاً حدث الناس عنه ، وشرح للرأى العام موقفه ، فإن أيده الناس أسقطوه في انتخاب صحيح ، وجاءوا بخير منه .

قال لى غلام ساذج : إنك تعترف بالنظام الانتخابي ، وتقرر رأى الكثرة مع أن القرآن ذم الكثرة في مواضع كثيرة! قلت : أى كثرة تلك التى ذمها القرآن؟ إذا قال الله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> أو قال فى آية أخرى : ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> . كان معنى النظم القرآنى الكريم أن أغلب المسلمين منافقون وجهال؟ ..

قبح الله فهمكم! إن النبى ﷺ كان يرى فى معركة أخذ استدراج المشركين إلى داخل المدينة ، والقضاء عليهم فى حرب شوارع! بيد أن الكثرة من أصحابه أبت إلا الخروج إليهم فى العراء ، فنزل على رأيهم وهو كاره ، فلما رأوا أنهم أكرهوه على الخروج عرضوا عليه أن ينفذوا خطته ، فأبى ! ..

فهل كانت كثرة الأصحاب جاهلة ، أو غير مؤمنة؟

كان عليه الصلاة والسلام - كثيراً ما يقول : «أشيروا على أيها الناس» . فهل حاكمكم الذى ترون ألا تقيده الشورى . وألا يلتفت إلى الكثرة ، أرشد من صاحب الرسالة العظمى وأعقل ؟

إن غيائكم فى فهم القرآن والسنة لا يستفيد منه إلا أعداء الإسلام ، وعشاق الفرقة من الحكام !

عندما نطلب عودة الخلافة الإسلامية ، وقيام حكم للكتاب والسنة ، فنحن نرثو إلى المبادئ الشريفة التى وعها عهد الخلافة الراشدة ، ونريد تجنب أخطاء السلاطين ، والانتفاع بكل جهد إنسانى للخلاص من الاستبداد والمستبدين .

(١) غافر : ٥٤ .

(٢) غافر : ٥٧ .

## ٥٧. متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟

الإنسان ليس ملاكاً معصوماً، ومن ثم لاستغرب وقوع الخطأ منه، وإذا أخطأ فلا ينبغي أن نبادر إلى قمعه بوحشية، وإظلام حاضره ومستقبله ..

والشارع الأعظم يعلم هذه الطبيعة البشرية، ويمهد لها طريق التوبة والتسامي ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾.

هذه حقيقة لا ريب فيها، وهناك حقيقة أخرى لا ننساها .. إن كل امرئ يجب أن يعيش آمناً في سريره، وافرأ في دمه وماله وعرضه، وإن انحرافات المخطئين لا يجوز أن تتحول إلى وباء يعصف بالأمن ويحتاج الحرمات!

والإسلام عندما يضع عقوبة لخطيئة ينظر إلى هاتين الحقيقتين .  
قد يعذر العاصي ويلتمس له الدواء! ولكنه لا يأذن أبداً للجرعة أن تعكر الصفو، وتنتشر الخوف .

ومن أجل ذلك وضع الحدود، ودرأها بالشبهات، ووقفها بالتوبة إذا رأى القاضي (١). إن من تورط فيها نأثر على نفسه، نادم على سقطته، وإن عودته إليها مستبعدة، وإن مستقبله هو الصلاح والاستقامة ..

إن النبي ﷺ حاول أن يشي ماعزاً - غفر الله لنا وله - عن اعترافه، ورأى أن توبته تطهره، ولكن الرجل كان مهتاج الأعصاب لما بدر منه، وأراد أن يظهر نفسه بالرجم فتركه النبي الكريم وما يريد!

على حين أذن لمن صلى معه، أن ينصرف بما اقترب، فقد طهرته صلاته أو اعتبرت توبة له ..

لكن إذا اضطرب حبل الأمن، أو رأى القاضي أن المذنب قاس مخوف الغدر، فإن الحفاظ على المجتمع، ومواخذة المجرم الجسور توجبان الضرب على يده وحماية الناس من شره ...

(٢) نحن نتابع أبو تيبة في هذا الكلام ونرى الحق معه .

(١) النساء : ٢٧ ، ٢٨ .

إن الحدود حق، وإقامتها - بصورتها الشرعية - مطلوبة إلى آخر الدهر، وما يقال عن قسوتها ضرب من الهراء، ونحن نستبين ذلك كل الاستبانه عندما نتوسم أحوال المجتمعات التي أنكرتها أو تركتها ..

يقول الصحفي أنيس منصور: «إذا سرت في شوارع «أمريكا» فلا تحمل فلوساً كثيرة، فقد يستوقفك أحد الزوج وفي يده سكين . وإذا ذهبت إلى محل لشراء شيء فلا تخرج من جيبك مالا كثيراً للسبب نفسه، إن الأمريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالا ... وفي الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم وإلا فأنت المسئول إذا سرقت أموالك أو أشياءك الثمينة!

وقد تجد مكتوباً على باب الحمام: أغلق عليك الحمام من الداخل، وإذا هاجمك أحد فاطلب رقم كذا بسرعة!

وهم ينصحونك ألا تمشي وحدك في الشوارع فإذا اضطرتت إلى ذلك فكن متجهماً بادی القوة، حتى لا يظن بك الخوف» .

قال: «ونزلت أتمشى وحدي قريباً من البيت الأبيض، وكان الشارع خالياً تماماً من المارين، وفجأة وجدت رجلاً يتوكأ على عصاه، استوقفني وسألني: كم الساعة؟ فتوقفت أنظر في ساعتى، فإذا هو يخرج سكيناً من بين ملابسه .. فأعطيته الساعة! ونظرت فإذا هو يزيح القناع عن وجهه ويبدو شاباً صغيراً!! لم يكن شيئاً ولا زنجياً، وضحك وضحكت .

وبينما أنا أنظر إلى الشاب إذ قفز إلى جوارى شاب آخر . فرفعت يدي إلى أعلى، مظهراً أنه ليس معى شيء، فأشار إليه - اللص الأول - من بعيد، فتركتني! . وعرفت أن الزوج ليسوا وحدهم قطاع الطرق في أمريكا»!

لقد فقد هذا السائح المصرى ساعته؛ لأنه سرى وحده، فالأمن مفقود في العاصمة الكبيرة، لا أرتاب أن السارى لو كان أنشئ لفقدت مالها وعرضها جميعاً، وإذا قاومت مغتصبها فقدت حياتها!

وقد يكون القتل رب أسره لا يعود إليها!

والحديث عن قلب يخشى الله أو بهاب لقاءه حديث خرافة! فقد انقطع التيار الكهربائى فى المدينة مدة طويلة، فنهبت أغلب المتاجر والمعارض فى الظلام العارض، إن وجود الضمير مرتبط برجل الشرطة وحده! ما أشرف هذه الحضارة!



... جنتی: لا حیرانی و اضطراب

عندما يتحول الإنسان إلى هذا النحو الحيواني، فلا مكان للإنسان.

بقی ان بقول : ان عقوبۃ الربی صعبۃ الشدید ، فإني أخشى ، فأربعة شهداء یرون  
وقوعها یکاد یستحیل . ١٢٠ فان اخذوا من فی طریق عام ، عاریتین مضمومتین ٧

[illegible]

سأكون على الظلم والإجساد، ولا أرى سبيلاً جديماً هذه الدنيا، وتربطها يوتى ويجمع الناس لهم حقيقة في الناس.

[illegible]

وقد كان حد السكر على عهد رسول الله ﷺ ضرباً مهنياً يوقع بالمزيد الذي  
 قفص عليه . ثم رأى الصحابة بعد أن جعلوا السكر أربعمائة أو ثمانين جلدة .

رسول الله ﷺ: «والذين آمنوا منكم، فإن كان الخطإ فيهم، فإن الله يعلم من في الصدور». (البقرة: 235)

قال : قلت - رضي الله عنه - رضى عائشة عاتقني عن جد علي بن أبي طالب . وفي  
الآثار

والغريب أن الرجل الذي أمر الرسول بسيره، هو «ساجد» المؤمن، السابق  
الذي أتى إلا أن يؤمن مطهرًا، كان الرسول الكريم الدافع عن رجل صالح كبر.

... الخ. من غير ان يثبت في المتن ان هذا هو المتن الذي  
... الخ. من غير ان يثبت في المتن ان هذا هو المتن الذي

وَمِنْهُمْ فَرِيقَةٌ يَتْلُوهُ بِأَعْيُنِهِمْ فَلَمْ يُفْقَهُوا شَيْئًا مِنْهُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْبَقَرَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَفِيٌّ

وہ صبراً اور ہمتاً اپنے آپ کو تسلیم کر لیں اور اپنے آپ کو تسلیم کر لیں۔  
وہ صبراً اور ہمتاً اپنے آپ کو تسلیم کر لیں اور اپنے آپ کو تسلیم کر لیں۔

(1) 1000000 (2) 1000000 (3) 1000000

عندما استعانتهم امرأتهم في البؤس والهم  
 في البؤس والهم في البؤس والهم

(2)  $\frac{1}{2} \left( \frac{1}{2} + \frac{1}{2} \right) = \frac{1}{2}$

[illegible]

يعانون القلق والترويع ما داموا يأبون إقناعه ، ولأنه يسترجع ، إلا بعد إعلان المسح والظفر .

﴿إِذْ جَاءَ الْوَحْيَ بْنَ مَرْيَمَ إِذْ نَبَتْهُ بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُ خَفِيًّا﴾

[illegible]

الطريق إذا التزمه إلا حياء لم يفلوا، فما معنى الأجر المسمى؟ إن المصنوع الذي أتى به

أرى أنه لا يجوز على الإطلاق ولا في أي حال من الأحوال أن يكون له الحق في التمتع بالسلطة.

[illegible]

والأجرام والنجوم لا وجود لها في هذه الأجزاء المقطوعة من السلسلة الممتدة.

۱۱ حقیقت و حقیقتی ۱۲ آن : ۱۳ اولاد ملامت ۱۴ آن عقوبت ۱۵ آن : ۱۶ حدیث

[illegible]

## ٥٨. ما الضرائب في الإسلام، وما نظامها؟

سمعت كلمة من صديق عاش نى أوروبا ردحا من الزمن عجبت لها ولم أنسها ، قال : إن يوم إقرار الموازنة العامة للدولة يكاد يكون يوم عيد! الفرحه عامة ، والبشر باد على الوجوه !

قال : وفى بعض البلاد يقال لدانعى الضرائب : ادرسوا تفاصيل الإنفاق . انظروا أين وضعنا ما أخذنا منكم من مال !!

لقد روعيت المصلحة العامة بأمانة وسدلت الثغرات ، وكفلت مدارس ومستشفيات ، وفرحت طوائف ، وتحقت آمال .. إلخ ، نعم أخذ المال بحق وأعطى ببصر ، ووزع بعدل ، فهناك لا تفرض ضريبة إلا بموافقة نواب الأمة ، ولا تصرف إلا بهذه الموافقة ..

تذكرت أنين «سديف» الشاعر الذى انضم إلى ثورة النفس الزكية وهو يقول :  
«اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة - أى استأثر الأغنياء به فهو دولة بينهم -

وامارتنا غلبه بعد المشورة - يشكو الاستبداد السياسى -

واشترت الملاهى والمعازف بسهم اليتيم والأرملة - سوء التصرف فى المال العام -

وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة ! - فهم نعم العون للأمير الجائر -

وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة - هكذا تقع الطيور على أشكالها -

اللهم قد استحصد زرع الباطل ، وبلغ نهيته ، واستجمع طريده .

اللهم فافتح له من الحق يدا حاصدة تبدد شمله وتفرق أمره ، ليظهر الحق فى أحسن صوره ، وأتم نوره» ...

مالى وهذا الأين القديم؟ إن الشجا يبعث الشجا .. كأن الزمان أو كأن الحاضر صورة الماضى ، فى عالمنا الإسلامى المبيض!!

يقصد بالضرائب المال الذى تأخذه الدولة من الجمهور فى صور شتى ليعود ذلك المال مرة أخرى إلى الناس فى صورة خدمات عامة وخدمات لوجود الأمة ورخائها ، وصون مصالحها ودعم القائمين عليها .

ومن هنا كان أداء الضريبة لابد منه وكان التهرب منه ، أشبه بالخيانة الوطنية .. وفى البلاد الراشدة يندر كل الندرة أن تذهب حصيلة الضرائب فى إجابة شهوة خاصة ، من أجل ذلك ينظرون إلى المتهرب من الضرائب على أنه ارتكب ما يحرمه من المناصب الكبرى وما يصمه بأردأ التهم ! ..

وقد فرقنا فى كتاب آخر بين الضريبة والزكاة ، فإن الله فرض الصدقة تطهيراً للنفس من رذيلة الشح ومساعدة للفقراء على رد الضوائق والأزمات ، وإسهاماً فى الدفاع عن العقيدة ... إلخ .

وحدد القرآن الكريم مصاريف الزكاة فى ثمانية أصناف لا يجوز أن تعدوها إلى غيرها .. أما دائرة الضريبة ، فهى أوسع مصادر ومصارف ، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسى والعسكرى والحضارى للأمة ، ومنها ينفق الجهاز الإدارى .

وقد تكثر الضرائب وترتفع نسبتها خصوصاً أيام الحروب حتى تصل إلى ٩٠٪ من الدخل العام ..

أما الزكاة فموكول إليها ابتداء القضاء على البأساء والضراء ، ومن مصارفها الثمانية سهم قد يوجه للجهاد العسكرى! لكن مغارم الجهاد قد تمتد لتشمل المال كله ، والنفس معه ..

ولعلك ترى من هذا أن ثمة تشابكاً بين دائرتى الضريبة والزكاة مع انفراد كل منهما بمجال تختص به !

والأم الكبرى - خصوصاً من لها نشاط عالمى - تفتن فى وضع الضرائب وتعيد أوعيتها وتقرن ذلك بأهداف قومية مباشرة وغير مباشرة .

والإسلام حدد نسب الزكاة ، ومستحقها ، لكن النشاط الإسلامى العالمى الممتد يفرض على المسلمين بذلاً لا يقف عند حد كى يبلغوا رسالات الله ، ويحسنوا الدفاع عنها ..

وقد تأملت فى مطالب التربية والتعليم ، ومطالب الدعوة والثقافة ، ومطالب الأسطول البحرى والجوى ، ومطالب الجيش وأسلحته الكثيرة ومطالب الصناعات المدنية والعسكرية ... إلخ فوجدت أن ذلك يتطلب أموالاً لا تغيض منابعها - فأدركت معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ (١) ..

(١) التوبة : ١١١ .

وقوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) ..  
ويظهر أن كلمة «التفقة» تشمل الصدقات المفروضة والنافلة، وتشمل أنواع  
البذل التي يفرضها العمل لله في شتى الميادين .

وربما تمر بالمسلمين أيام يكلفون فيها بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة ،  
لايستبقون شيئاً استجابة للآية الكريمة : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (٢) ..  
وهذا ما يقوم به الجهاز الضرائبي! وقد تكون كلمة ضريبة بغية إلى الناس!  
وعلة ذلك فيما بلوت فساد الحكم في أغلب الأقطار الإسلامية ، والتبذير الشيطاني  
في المال العام ، وقدرة الخائنين على العبء منه دون حساب ..

وقد رأينا أن الدول الأخرى معاناة من هذا البلاء ، وأن ما يؤخذ من دافعي  
الضرائب ينفق في أرشد مواضعه ، ويراقب بعيون نافذة حادة ..

وهكذا نرى الكثيرين والمنتجين يرعون مصالحهم ، ويعطون دون من ﴿وَمَا  
يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٣) .

وقد كنت فيما كتبت صدر حياتي أرى ذلك من مقتضيات الفطرة ، وأفهمه من  
ظواهر الرأي ، ثم وجدت أن فقهاءنا استنبطوه من القواعد المقررة في الشريعة! قال  
الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي إنه يمكن «إذا قضت ظروف الحرب فرض ضرائب  
على القادرين وأهل اليسار لتمويل الجهاد ، وإمداد الجيوش وإعداد الحصون ، وما إلى  
ذلك من احتياجات الحروب! إن الشرع يؤيد ذلك ويوجبه كما نص على  
ذلك الفقهاء ، وإن كان كثير منهم في الأحوال المعتادة لا يطالب الناس بحق في  
المال غير الزكاة» واستدل الغزالي على ذلك بقوله : «لأننا نعلم أنه إذا تعارض شران  
أو ضرران ، قصد الشرع إلى دفع أشد الضررين وأعظم الشرين !

وما يؤديه كل واحد منهم - يعني المكلفين بهذه الضرائب - قليل بالإضافة إلى  
ما يخاطر به من نفسه وماله لوخلت بلاد الإسلام عن ذى شوكة يحفظ نظام الأمور  
ويقطع مادة الشرور» .

قال الدكتور القرضاوي . «مثل ذلك فك أسرى المسلمين ، وتخليصهم من قيود  
الكافرين وإذلالهم ، مهما كلف ذلك من أموال! قال الإمام مالك : يجب على كافة

(١) التوبة : ٤١ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) آل عمران : ١١٥ .

المسلمين فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم ، ذلك ؛ لأن كرامة هؤلاء الأسرى  
من كرامة الأمة الإسلامية ، وكرامة الأمة فوق الحرمة الخاصة لأموال الأفراد» .

وهذا منطق شديد هدى إليه الفقهاء والدعاة والموجهون في تاريخنا العلمي ،  
وسارت عليه الأمم الآن شرقاً وغرباً ، فالحكومات الواعية قد تجعل من الضرائب  
شريان حياة كما تجعل منها أحياناً جراحة شفاء وتجميل ..

رأينا الضرائب تزداد على أسباب الترف وأدوات الزينة ولا بأس في ذلك  
فالحصيلة ستكون سناداً للفقراء والمعوزين ..

ورأينا الضرائب تفرض على المصنوعات الأجنبية حماية للصناعة الوطنية ، وهذا  
حسن ، وقد نهضت في الهند صناعات توشك أن تحقق الاكتفاء الذاتي للهندود ،  
بسبب الضرائب الصارمة التي أوجبتها الدولة .

وإذا أكره الجمهور على استخدام أدوات أو سلع غير جيدة ، فإن سنة الارتقاء  
ستصل بها إلى المستوى المنشود يوماً ما .

على أية حال لا بد أن نذكر أن الدولة الإسلامية مربوطة بمبادئ وأداب وأهداف  
لا يمكن تجاهلها ، في الداخل والخارج على سواء! وربما بلغت الدولة بعض غاياتها  
بوسائل قريية ، كما حدث من تأخ بين المهاجرين والأنصار على عهد رسول الله  
ﷺ ، أو على نحو ما فكر عمر بن الخطاب عندما قال : لو لم أجد للناس ما  
يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، حتى  
يأتى الله بالحيا لفعلت! فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم !! ..

لكن هذه الوسائل قد تصعب الآن ، والبديل المحتوم عنها هو الضريبة التي تمكن  
الحكومة من مباشرة الإطعام والإيواء ، وإمداد المحتاجين بما يسعفهم ويصونهم مادياً وأدبياً .

وما يقال في مطالب السلام يقال مثله في مطالب الحروب ، لاسيما وقد  
أحاطت بنا الذئاب من كل فج وسمع لعواثها طنين رهيب! ..

ولن يأسى مؤمن على مال يذهب في هدف شريف ..

## ٥٩. كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادي في المجتمع؟

لا يرتاب عاقل في أن الإسلام منح الفرد حق التملك مادام السبب مشروعاً ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وقد رغب الواجدون أولى السعة أن يؤتوا غيرهم ويشركوهم في نعمة الله لديهم ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (٢) .

ورغب - سبحانه - من تسليط اليد السفيهة على المال تريقه في العبث ، وتهدد المصالح المرتبطة به القائمة عليه ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (٣) .

ونادى تبارك اسمه جماهير المؤمنين أن يستعفوا عن الحرام ، وألا تكون معاملاتهم انتهاكاً وشراً ، بل يجب أن تكون عن طيب نفس ، وعن رضا قلبي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ (٤) والواقع أن ازدهار العمران وتوقد الملكات ، وتضاعف الإنتاج إنما يجيء مع سباق الحوافز الخاصة ، ورغبة البشر في الكسب ، والمزيد من الكسب ، لأنفسهم وأولادهم ..

وقد أقر الإسلام حرية التملك ، وإن كان قد أنقلها بالقبيود التي تمنع سطوة الأنانية ، وطغيان الاستغناء ..

والشيوعية تلعن الملكية الخاصة ، وتجعلها مسئولة عن المظالم الاجتماعية قديمتها وحديثها ! .

(١) يس : ٧١ : ٧٣ .

(٣) النساء : ٥ .

(٢) النور : ٣٣ .

(٤) النساء : ٢٩ .

وقد تكونت للشيوعية بشقيها الاقتصادي والفلسفي الإلحادى دول كبيرة ، والذي يعينى أنا المسلم المؤمن بالله وكتبه ورسله - أمران : أحدهما أهم وأخطر من الآخر .  
الأول :

إثبات معالم الإيمان جملة وتفصيلاً فلا هوادة في جحد الألوهية ، وإنكار الوحي الأعلى ..

الثانى :

احترام الملكية الصحيحة ، ورفض ما عداها من تملك أساسه السحت والاغتصاب وضروب الاستغلال السيئ .

وإنما أقرر ذلك ؛ لأن هناك أناساً يزعمون الإسلام - ويعلم الله ما فى قلوبهم - ثم يتخوضون فى مال الله تخوضاً رهيباً فلا يتركون منه إلا ما عجزوا عن حمله ! ولا يبالون من أين اكتسبوا ! ولا يرقون لضعيف ناسوه وهم يجمعون ولا يكثرثون محتاج يرنو إليهم ابتغاء معونة !!

يقول أولئك : إنهم يحاربون الشيوعية ؛ لأنها ضد الدين !! وهم الطريق الموصل إليها والمغرى بها !! والدين الذى يذكرونه بعيد عن أخلاقهم وأعمالهم !

على أية حال نحن نحامى عن الإسلام الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد ، ونأبى أن تبقى رسالته العظمى فى وصاية نفر من المترفين والمتخومين ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) .

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة ، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسى تجد الإثراء الحرام ، واستغلال السلطة إلى أبعد الآماد ، وسوق المغام إلى الأقارب والأتباع والخواشى ..

وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لصالح المجتمع ، وأن مصادرة الأملاك التى سرت من حقوق الآخرين تعيد إلى النفوس والأوضاع قدراً كبيراً من الاستقرار والتوازن ! إن رأى الأجانب فى أساليب الربح والخسارة ، والغنى والفقر فى بلادنا ينكس زعوس الدعاة ، ويلصق بالإسلام تهماً هو منها براء .

(١) القصص : ٥ : ٦٠ .



وقد سردنا النصوص فى تحريم النهب والغش والاحتكار والاستغلال فى أماكن من كتبنا ..

والمال المكتسب من حلال تجب فيه حقوق شتى ، أولها الزكاة ، ومكانتها فى الإسلام كبيرة ، والغاية منها قطع دابر البأساء والضراء ، وإبداء العون الذى يحقق للفقراء الاكتفاء الذاتى .

وتدبر قول الرسول الكريم : «ألا رجل ينجح أهل بيت ناقة تغدو بعض قدح كبير وتروح بعض؟ إن أجرها العظيم» .

أى توفر لأهل البيت مقداراً سخياً من اللبن فى الصباح والمساء ، وبذلك تتم تغذيتهم! إن الصورة المعروفة للزكاة يد تمتد ذليلة سائلة لتتلقى فتاتاً يسد حاجة اليوم ، ثم تكرر الضراعة والطلب لتسد حاجة الغد ، وهكذا دواليك !!

وتلك لعمر الله مستكرهة ، إن الإسلام أول قاتل لاستخراج حق الله فى المال ، ثم تولت الدولة إعطاء من ترى بهم حاجة ، لكن كيف تعطى وكم ؟ يجيب الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك فى تفصيل نقتبس منه هذه السطور<sup>(١)</sup> : «فهناك المذهب الذى رجحه الغزالى وهو مذهب المالكية وجمهور الخنابلة وبعض الشافعية وهو أن يأخذ المحتاج ما يتمم كفايته من وقت الأخذ إلى سنة مستقبلية - أى نفقة عام كامل - قال الغزالى فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن الرسول الكريم ادخر لعياله قوت سنة ، والقائلون بهذا الرأى يذكرون أن كفاية السنة ليس لها حد معين تقف عنده ، فإن كانت لا تتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب ، من نقود أو حرث أو ماشية أخذ من الزكاة ذلك القدر ، وإن صار به غنياً؛ لأنه حين الدفع إليه كان فقيراً مستحقاً» !!

ومن الطرائف التى ذكرها صاحب الكتاب الجليل «فقه الزكاة» أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أمر من ينادى فى الناس كل يوم : أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين التاكحون؟ يعنى طالبى الزواج الذين لا مهر معهم!! فإن بيت مال المسلمين يساعد على الزواج وإيتاء المهر !!

ثم ذكر الأستاذ رأياً آخر للفقهاء فى القدر الذى يمنح من الزكاة ، هذا القدر ليس كفاية عام كما ذكرنا ، إنه كفاية العمر ، قال : «وهذا الرأى هو الذى نصي عليه الشافعى فى «الأم» ، واختاره جم غفير من أصحابه» .

(١) نعد نحن كتاب «فقه الزكاة» أعظم ما ألف فى موضوعه فى تاريخنا العلمى .

إن الإسلام دين طبعى يحارب السرقة بتموين الناس! ويحارب الزنى بتزويج الراغبين فى العفاف! ويسخر تعاليمه المالية لتحقيق أهدافه الخلقية ، وضبط المسار الاجتماعى حتى لا يعوج أو يزيغ ..

على أن دائرة الزكاة مهما اتسعت فينبغى ألا تعدو بها حدودها ، قد تكون الزكاة عوناً للعاجزين ، ولكنها مساعدة مؤقتة للعاطلين إلى أن يجدوا العمل !

وقد جاء فى الحديث : «لا تجوز الزكاة على ذى مرة سوى» أى أن الرجل السليم الخلقة ، السوى الحواس والأعضاء يتجه إلى العمل ليتكسب منه ويقوت أهله! ولا تنسى أن الزكاة نفسها هى فضول من عملوا وكسبوا وادخروا ، فالعمل هو المصدر الأساسى للثروة ، وعلى الدولة أن تمهد ميادينه لكل قادر ، وأن تحارب البطالة بكل ما لديها من قوة ! ..

وأجدنى مكلفاً بمصارحة قومى ، وإن ساءتهم هذه المصارحة ، إن غيرهم من الناس كان أجلد منهم على العمل ، وأبصر بأسبابه ، وأجبل على معالجته والنجاح فيه ونيل الغنى الباذخ منه ! ..

وقد تساءلت عن سر ذلك؟ فوجدت أن تقاليد البلد تسلت إلى تعاليم الإسلام وتقاليد المسلمين فوقت بأمتنا على حين تحرك غيرها وسبق سبقاً بعيداً . والبلد يحتقرون الفلاحة ، ويزدرون الحرف ومجالس الأغراب ملأى بالمفاخرات والمنافرات والتطاول بالرياسة ، والتنزه عن عدد من الصناعات !

فالقرزدى يهجو جريراً لأن أباه حداد! أما مجاشع جد الفرزدق فلا تدرى بما يأكل؟ .. وإلى أمد قريب كان ابن عمدة القرية أصل من ابن طبيب القرية! أو ابن شرطية! واليد الملوثة بالنفط والقار مؤخرة عن اليد التى تقبض النقود حصيلة كدح هذا وذاك!! وربما وصل هذا التفاوت إلى عقود الزواج فعند ابن هذا ليس كفتاً لبنت ذاك ، ونسب ذلك كله إلى الإسلام ..

إن المجتمع الإسلامى يجب أن يعاد تشكيله وفق القانون الإلهى الفذ ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...﴾<sup>(١)</sup> .

أما عوائد المترفين والقاعدين فلتطوح معهم إلى الجحيم .

(١) التوبة : ١٠٥ .

## ٦٠. ما موقف الإسلام من نظام المصارف الحالي وما البديل الذي يقدمه؟

المتأمل في أعمال هذه البنوك يجد بعضها حلالاً محضاً، والآخر حراماً لاريب فيه، وهناك أعمال يمكن بتعديلات يسيرة أن تأخذ الصورة المشروعة.

ومن هنا شرع الاقتصاديون المسلمون يرفعون قواعد المصارف على أسس من الفقه الإسلامي، ففي هذا الفقه عقد المضاربة الذي يتم بين الخبرة من ناحية ورأس المال من ناحية أخرى، كما أن في هذا الفقه قواعد مهيأة للمصرف والحوالات والضمان والوكالة وغير ذلك.

ثم إن جماهير المسلمين راغبة كل الرغبة في أن تبعد طعمتها عن الشبهة فضلاً عن الحرام؛ لذلك ما كانوا يسمعون عن مصرف إسلامي حتى سارعوا إلى الإسهام فيه! وقد نهضت الآن عدة مصارف في وجه مقاومة منظمة من البنوك العالمية التي لا يصرها ما حدث!..

وقد قرأت كلمات لرؤساء المصارف الإسلامية تشرح وظائفها، وعلائقها بالمؤسسات الاقتصادية الأخرى أرى أنها تلقى أضواء على الموضوع كله، فالأستاذ «سعيد لوتاه» رئيس المصرف الإسلامي «بدبي» يقول<sup>(١)</sup>: إن أنشطة هذه المصارف هي الترجمة العملية للنظام الاقتصادي الإسلامي في أبصر صوره، نحن نقوم بدور الوسيط بين المال ورجل الأعمال في كل المجالات، وذلك في نطاق محكم من تعاليم الشريعة، وتقدير عملي لحاجات الأفراد، أي إننا نربط الفكر النظري بالواقع.

وفي العلاقة مع البنوك الربوية يقول: هناك فاصل لا يمكن تخطيه! فنحن لا نأخذ فائدة، والربا عندنا محرم في كل قرض سواء للاستهلاك أو الإنتاج.

ويمكن أن تتعامل مع البنوك الأخرى في الحسابات الجارية، وتحويل العملات، وصرف الصكوك «الشيكات» وخطابات الضمان، وأنواع الكفالات، فهذه كلها أعمال مصرفية جائزة شرعاً.

(١) بتلخيص قريب من الأصل.

ويقول الأستاذ أحمد أمين فؤاد رئيس المصرف الإسلامي الدولي للتنمية والاستثمار - السابق -: إن المال والكون كله، ملك لله سبحانه، وقد استخلفنا الله في هذا المال ليرى كيف نكتسبه وكيف ننفقه، فما يجوز أن نتملكه من وجهه محرم ولا أن ننفقه على نحو سيئ، كما لا يجوز أن يكون تداول المال في المجتمع على نحو يزلزل قواعد الأخلاق ويهدد كرامة البشر، فالمال أداة لخدمة الإنسان وليس الإنسان عبد المال..

والمفروض أن يكدح المرء ويخاطر؛ لينجح لا أن يحاول الربح دون جهد يذكر.. والمصارف الإسلامية وهي تعطي المال لطالبه تشارك في رسم الخطه وتقدير الظروف وتحمل المسئولية، أما البنوك الربوية فهي تتصل من هذا كله، وتحتمي وراء ضمان الفائدة وحسب!

وقد كان نتاج الأسلوب الربوي مريراً، وانطبق عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾<sup>(١)</sup>..

كيف كان هذا المحق؟ ننظر إلى الدول المدينة والدول الدائنة على مدى أربعة أجيال من القروض الدولية!..

إن الدول النامية - المقترضة - تندرج من سيئ إلى أسوأ، وها هي ذي قد أوقفت برامج التنمية وعجزت عن سداد الأقساط، والفوائد المقررة، ويوشك أغلبها أن يعلن إفلاسها.

أما الدول الدائنة فقد كانت فرحة بقدرتها على الإقراض وفرصتها في أكل الربا.. ثم ذاقت وبال أمرها بعد تدهور أحوال المدينين، وظهور عجزه.

حتى إعادة جدولة الديون لا تحقق خيراً، فإن هذه إعادة تؤدي إلى خسارة ٨٠٪ من القيمة الأصلية للدين.

ولو طبقت الأنظمة الحاسبية على هذه المؤسسات لأعلنت إفلاسها.. أليس هذا هو المحق الذي توعد القرآن به المرابين؟..

(١) البقرة: ٢٧٦.

## ٦١. ما هي حدود الكسب الحلال في التجارة؟ وكيف يضع الشارع حداً لأرباح التجار؟

التجارة باب عظيم من أبواب الشراء في الدنيا كما هي ميدان فسيح للنشاط العمراني، وتنقل الخيرات بين أرجاء الأرض .  
والعجيب أنها كذلك باب عظيم إلى الشراء في الآخرة ورفع المكانة عند الله ، وحسبنا في ذلك قول الرسول الكريم :

«التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» ..

وقد وقفت ملياً أمام حديث آخر يشيد بخلق السماحة والرحمة في معاملة التاجر لغيره ، ويهزني ما ذكر من مشوبة لهذه الخلال ، فمن حذيفة وأبى مسعود البدرى أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً من كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ! فقال له : هل فعلت من خير؟ قال : ما أعلم ... ! قيل له : انظر ... ! قال : ما أعلم شيئاً غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر!! فأدخله الله الجنة» ..

والمعروف أن قوم النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يشتغلون بالتجارة ، بل لعلها كانت مصدر رزقهم وعماد معاشهم ، وكانت حركتهم ناشطة بين اليمن والشام ، وبين فارس والروم .

وقد شارك النبي نفسه في بعض الرحلات التجارية ، وعاش ﷺ من العمل في هذا المجال عمره الأول ، وكذلك كان صحبه ! .

ولما كان العرب يسمون ويصبحون في هذا الجو التجاري المشغول بالأرباح والمغامرات فإن لغة الوحي اتجهت إليهم من هذه الزاوية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْنِبُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١) تَزْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (١)

(١) الصف: ١٠، ١١.

وفي وصف المنافقين ، وعبيد الدنيا ، وطلاب المآرب الخاصة يقول سبحانه :  
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١)

والتجارة على كل حال ينبغي أن تكون شريفة الوسائل ، نبيلة المسالك ، وفي صيحة تحذير من الغش والخداع والجشع يقول الرسول ﷺ :

(إن التاجر يبعثون فجراً يوم القيامة إلا من اتقى الله وبر وصدق) ..

ومعروف أن التاجر يشتري السلعة بثمن ما ولكنه عندما يضع لها سعراً للبيع ، يضيف إلى ثمنها الأصلي نفقات النقل والتخزين ، ثم الربح الذي يقيم عليه حياته ، وقد يضيف إلى ذلك زيادة ما لضمان غده ! ..

إن التاجر ليس موظفاً حكومياً له أجره الرتيب ، وله مدخرات تكفل معاشه بعد ترك الوظيفة ، كلا إن الميدان الذي يعمل فيه يقوم على المخاطرة ، وبديهي أن يحتال التاجر ليحفظ حاضره ومستقبله جميعاً ..

والناس تعلم ذلك ، وترضى به في نطاق الاعتدال ، وإن كان هناك من يغالى في تقدير أجره على تعب أو يغالى في مستوى العيش الذي ينشده ! ..

وفي ربح التجارة يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ (١)

وللشيخ محمد عبده تفسير غريب لهذه الآية ، فهو يقول : إنما استثنى الله التجارة من عموم الأموال التي يجري فيها الأكل بالباطل - أي بدون مقابل - لأن معظم أنواعها يدخل فيه الأكل بالباطل ! . فإن تحديد قيمة الشيء وجعل ثمنه على قدره بقسطاس مستقيم عزيز عسير ، إن لم يكن محالاً ! فالمراد من الاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الآخر وما يكون سبب التعارض فيه براعة التاجر في تزيين سلعته ، وترويجها بزخرف القول - من غير غش ولا خداع

(١) البقرة: ١٦.

(٢) النساء: ٢٩.







ولأشرح هنا موقفاً اضطرب فيه المتكلمون باسم الإسلام ..

إن الإسلام يرفض الانحراف عن الحاكم إذا كان لغرض خسيس! نعم هناك قوم ينظرون إلى مغام الحُكم باشتهاء ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون ! ..

ومعارضة هؤلاء للحاكم محقورة منكورة ، لا نكتثر بها ، بل قد نشجبها ..

وهناك معارضون أغبياء ، يهدمون من أجل شيء تافه بنياناً قائماً ، ولا يدرون شيئاً عن عواقب الأمور ، تأملت في ثورة الخوارج على علي بن أبي طالب ، إن قرار التحكيم الذي قبله لم يعجبهم ، فقاتلوه ؛ حتى قتلوه ، وانتهى تمردهم بقيام نظام ملكي أجهز عليهم دون رحمة !! ..

ماذا عليهم لو قبلوا القرار ، وبقوا مع أمير المؤمنين حتى استقر له الأمر؟ أليس ذلك خيراً مما حدث؟ ..

وهناك معارضة تضعف الدولة أمام خصومها ، وقد تهدد وجودها ورسالتها ، إن هذه معارضة سيئة بلا ريب ..

وقد رفض الإسلام كل معارضة من هذا القبيل ، فهل معنى هذا إعطاء الحكم الفردي الأسمى ضمانات أبدية لبقائه والدفاع عنه؟ هل معنى ذلك أن الإسلام يسكت عن حكم يغتال الحقوق ، وبذل النفوس ، ويعطل الحدود ، ويستحل الحرمات؟ كلا ..

وأمامي الآن فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل ، وتحرف الكلم عن مواضعه ، فتحت عنوان : هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت هذه الكلمات : « .. ذهبت طائفة من المعتزلة ، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر ، وأما أهل الحق - وهم أهل السنة والأثر - فقالوا : الصبر على طاعة الجائر أولى ، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك ، فقال عياض : وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقوله ﷺ «أطعمهم ، وإن أخذوا مالك ، وضربوا ظهرك» !! .. وقال الطرطوشي في سراجہ : حديث أبي داود عظيم الموقع في هذا الباب : قال رسول الله ﷺ : «يطلبون منكم مالا يجب عليكم ، فإذا سألوا ذلك ، فأعطوهم ولا تسبوه» .. أي

ندفع لهم ما طلبوا من الظلم ، ولا تنازعهم ، ونكف ألسنتنا عنهم ، وقال ابن العربي : السلطان نائب رسول الله ﷺ (!) يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة! . ويزيد على النبي ﷺ (!) لا يحرمة زائدة ، لكن لعل حادثاً بأوجه ، منها الصبر على أذاه ويدعى له عند فساد بصلاحه ..

وقيل لمالك : الرجل عنده علم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : يخبر بالسنة ، فإن سمع منه وإلا سكت ! قيل : فينصح السلطان ؟ قال : إن رجا أن يسمعه! وإلا فهو في سعة » .

والواقع أن الجبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى ، وما تربى إلا أذنانا للحاكمين ، وحواشي للمستبدين ..

وما سقتها إلا لأنها تصور الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذي حاربه زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحيق عن دين الله .

وما أدري كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة ، ومقاومة المنكر! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم يا ظالم فقد ماتت موتاً مادياً وأدبياً ..

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى :

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ (١١) ؟

إننا لم نُنصر من عدة قرون ، لشيوع الظلم بين المسلمين ، وكثرة من يدهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم! ..

في بنى إسرائيل - وهم من هم - دعا القاضي «كاها» رئيس الحكومة فمثل بين يديه ، ثم دعاه مرة أخرى وأنذره إن تأخر ، فجاء رئيس الحكومة طائعاً ، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه ..

وقال الناس : يستحيل أن يقع هذا في بلد عربي!! .. وأردفوا ساخرين : الماء

لايجرى إلى أعلى! .. قلت : وبركات السماء لا تنزل على الأدنى ، إن الاستبداد السياسى أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيه من الضياع ماغشيه ..

والإصلاح فى الميدان السياسى كالإصلاح فى الميدان العقائدى له رجاله المرموقون ..

وهناك الإصلاح فى الميدان الثقافى ، وغايته - كما أرى - إعادة الرشد إلى العقل الإسلامى الذى كاد يفقد وعيه بعد غيبوبة طالت وتراكمت آثارها ، وأمسى المسلمون معها لا يعرفون رأساً من ذنب فى أفق المعرفة الدينية ، وأمسوا عالة على غيرهم فى علوم الكون والحياة ..

إن الله يبعث رسله من أنفس السلالات البشرية معدنا ، وأحدها ذكاء وفطنة ، والغريب فى الأمة الإسلامية أنها كادت تحصر علوم الدين بين الغوغاء والهمل ، وتكاد تلاوة القرآن الكريم تكون حرفة لأشباه المتسولين !! . فهل نجنى من ذلك إلا المرء ؟ ..

ولما كنت جندياً فى جيش الدعاة الإسلاميين فلانى مضاعف الحس بما يعانى الإسلام من بلبلة وغوض فى قضايا شديدة الوضوح ، ففى ميدان التربية فوضى آثارها متصوفون ، وفى ميدان التشريع فوضى آثارها متفقهون ، وفى ميدان التعليم فوضى آثارها قاصرون حتى لا كاد أقول : ما يبدأ الإصلاح إلا من هنا ! ..

وسواء بدأ الإصلاح ثقافياً أو سياسياً ، فإن المسار واحد لا بد أن يلتقى على صعيده المخلصون وإن تباينت نقط الابتداء ، وستجنى الأمة منه أطيب الثمر!! ..



## ٦٣. ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معينة؟

قبل أن ينتهى أجل الدنيا ، وتلاشى الحياة فوق هذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مثيرة! .. بعضها يتصل بالأمة الإسلامية التى كلفت بهداية العالمين وفطرت فى هذا التكليف! وبعضها يس الناس كلهم ، الذين خلقهم الله لعبادته فأثروا عبادة أنفسهم ، وجعلوا إلههم هواهم! ..

يظهر أن التقدم المادى سيبلغ الذروة ، وأن الغنى سيملا كل يد ، وأن الأرض - قبل أن تسلم النزاع الأخير - ستتخلى عما فى بطنها ! ، لمن تدخره؟ يوشك أن تصغر جنباتها ! فلزم بذهبها وفضتها لمن على ظهرها الآن ، ومن هنا سيتطاول الرعاع فى البنيان ، ويسكنون ناطحات السحاب ، وينعم العبيد بمستوى للعيشة التى عرفت للملوك! ..

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ۚ ﴾ (١) ..

وقوله :

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۚ ﴾ (٢) ..

أى استمعت لأمره ، وحق عليها أن تسمع ! ..

وذلك ما أشار إليه الحديث الشريف فى علامات الساعة « ... ويفيض المال حتى لا يقبله أحد! » وقوله عليه الصلاة والسلام فى هذه الأمارات : « ... أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » وفى رواية « ... إذا كان الحفاة العراة رعو من الناس » .

وقد وهل البعض فى فهم هذه الكلمات ، وظنوا الإسلام يكره رئاسة الفقراء! وهذا خطأ فاحش ، وهل كان العرب حملة الحضارة الإسلامية إلا فقراء يرعون الغنم؟ ..

إن المقصود تقدم السفلة بالوسائل الهابطة ، ووصول من لا كفاية له إلى مناصب لا يستحقها ، وهذا مانفهمه من الأحاديث الأخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع» أى اللثام الأقدار .  
وفى رواية : «لا تقوم الساعة حتى يرث الدنيا شراركم» وفى أخرى «لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله» .

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها ، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأمجاد وأن يرخصوا الدماء والأعراض .

ويبدو أن الأمة الإسلامية سيشتيع فيها هذا البلاء أكثر من غيرها ، فقد صح ، عن الرسول الكريم أنه بَيِّنًا كان يحدث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه حتى إذا قضاه قال : «أين السائل؟ قال : هاأنذا يارسول الله! قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! قال : وكيف إضاعتها؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة!!» .

ومع أن الخيانات الاجتماعية والسياسية ضاربة الجذور فى تاريخنا إلا أنها ستزداد فشوا وعتوا فى الأعصار الأخيرة .

هناك حاكم مات أبوه وهو يشتهي ركوب الخمار! مكن له القدر فأصبح ينتقل بالطائرة ، ولم يكشف بذلك حتى جعل الطائرة تنقل الحلوى لأولاده وأحفاده ، من مال الشعب! ما أتعب الإسلام بأولئك الحكام!!

وقد وردت أحداث بين يدى الساعة نجب أن نشرح بعضها! من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر كريم ، ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلها أو ابن إله ، وكتابنا يقول فيه : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١) .

ثم يقول :

﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٢) .

وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبل الساعة ، بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» .

ولماذا ينزل؟ ينزل ليكذب بنفسه من زعموه إلها ، وهم جماهير غفيرة! .

(١) الزخرف : ٥٩ .

(٢) الزخرف : ٦١ .

وفى حديث آخر أنه سينزل بين المسلمين - وهم أتباعه الحقيقيون - فيقاتل معهم الصليبيين ، حتى يهزمهم ، ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله ، قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول له أميرهم : تعال صل بنا - يعرض عليه إمامة المسلمين - فيقول عيسى : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة» .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات ، وأن عيسى لن يجرى بجديداً .. وظاهر القرآن أن عيسى مات ، والقول بأنه حى فى مكان ما أو فى السماء لا دليل له ، ولا يمنع ذلك من أن يحييه الله مرة أخرى كما أحيا عبيداً آخرين ، ليقوموا بعمل له خطره! وهذا رأى أهل الظاهر عندنا ، وهو عندى أرجح من القول بأنه حى الآن ..

ومن الأحداث المروية بين يدى الساعة ظهور الدجال الأكبر الذى يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهدية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة ، وأنهم يتحدثون بوحي منه! . وفى الحديث : «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله» ..

والدجال الأخير رجل من اليهود أوتى علماً وقدره ، وربما ادعى الألوهية ، وليس ذلك غريباً فإن المدعو بالبهاء ، زعم أن الله حل فيه ، وأنه مجلى الألوهية الهادية ، وأن إنكار ذلك نوع من الكفر الذى حذر منه القرآن فى الآية الكريمة :

﴿... وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (١) .

فالتفريق عدم الإيمان بالحلول (!) .

وفى السنة تحذير من الدجال ومخرقته ، وتخوف من أتباعه ، ولفت إلى أنه سيكون شخصاً أعور مقبوح الهيئة ..

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فتنه هذا الدجال تحتاج إلى بحث خاص ، والذى يهمنى هنا حديث : «إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين» .. وفيه «...أنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذاباً كلهم يدعى أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدى» .

العدد للتكثير ، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحي كى يقودوا الناس باسم الدين جم غفير وليس بعد خاتم المرسلين وحي! ، إن المحتالين باسم الدين أكثر من المحتالين طلباً للدنيا ، ويغلب أن يلتف بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات ، ويطلبون لهم طاعة عمياء وديننا قوامه العقل ومعجزته إنسانية خالدة .

(١) النساء : ١٥٠ .



والأئمة المضلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المستبدون ، وهؤلاء منذ ظهوروا بدأ خط الانحراف فى تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة . ثم انشعبت المعرفة الدينية شعبتين بعد ما توحدت زمانا ، فإذا متصوفون لا فقه لهم ، وفقهاء لا قلوب لهم! ، ثم مضى الانحراف إلى مداه فإذا المتصوفة يفقدون الإخلاص والتجرد ويمسسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق ، وإذا الفقهاء يخلفون بعدهم مقلدين لا يدقون حكمة نص ، ولا يحسنون الاجتهاد لنزلة! .

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن فى علوم الحياة وشئون الدنيا فكان لا بد أن تركع الأمة أمام أعدائها بعد ما انهارت مادياً وأدبياً! وأذكر أن صديقاً قال لى : إن الأوروبيين والأمريكيين يكرهون اليهود ، ولكنهم يحترقون العرب!! . وماذا لدينا يستدعى الاحترام .. فى تلك الحال يذكر حديث عن رسول الله ﷺ : يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ؟ قال : لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غشاء كغشاء السيل، وليتزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن! ، قيل : وما الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت! .

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ..

إن الرتبة التى يتسم بها النظام الكونى خدعت البله فلم يبصروا الرب المدبر ، والسيد المشرف ، فأخذوا يقولون : هذه طبيعة الأمور! وكان ينبغى أن تكون لهم قلوب يفقهون بها . فلما زالت الرتبة المألوفة صاحوا دهشين : عرفنا صاحب هذا النظام المحكم!! .. وهيهات هيهات! . إنه لاقيمة للامتحان بعد ما انكشفت الأسئلة! ..

بعد هذا الانقلاب الفلكى لا يقبل من كافر إيمان ، ولا من فاسد صلاح! .. وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا ، فإن الكواكب المتهادية فى قضائها ، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها ، بإذنه تنطلق ، وبمشيئته تنطفئ يوم يسلبها نورها وحرارتها .

متى ذلك؟ عند قيام الساعة ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿ (١)

(١) النكوير: ١ ، ٢ .

## ٦٤. هل ينبغى فى عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟..

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الأديان ، بما توحى به كلمة دين من تعصب خاص ، وأفق محدود ، ورباط بالماضى ، وتجهم لما لم تألف ..!! ويقولون : هذا عصر الإنسانية العامة ، ذات المعالم المطلقة والانفتاح على الآخرين . إنه عصر هيئة الأمم ، والميثاق العالمى لحقوق الإنسان ، والدعوات التى تتسامى على الأجناس والألوان والقوميات والأديان! ..

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذى انسحبت فيه الأديان ، وتركت الزمام لمبادئ أخرى تقود العالم ، وعلى المتدينين الاكتفاء باللقاء العاطفى فى معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة . هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها ، بل هو زيف من ألفه إلى يائه ، وأستطيع أن أكرر ماقلته فى مناسبات شتى إن هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ماعدا الإسلام ..

وأخشى أن يكون ترديدة من مكر الطوائف الأخرى بنا ، حتى تبنى وجودها على رفاتنا ، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد ذهابنا ..

إن هذه الأيام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة! وعقائد كانت جامدة ، بل لقد تحرك مزهواً من كان أمله أن يدفع العار عن نفسه ، وحسبه أن يظفر بحق الحياة المجردة! .

لننظر إلى اليهودية التى سلخت من عمر الزمان فوق ثلاثين قرناً ، هل وجدت أزهى من هذا العصر؟ إن العالم أجمع يستمع إليها ، وينصت لأسلوبها فى عرض الأمور! ..

هل استطاعت اليهودية خلال عشرة قرون أو عشرين قرناً أن تجمع فلولها من أقطار الأرض ، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجحين أن تسمح للعرب بإقامة دولة إلى جوارها؟ ..

لقد انتهت قصة اليهودى التائه ، وبدأت قصة العربى التائه ..

بدأت مأساة لاجئين ، جمهرتهم الكبرى من المسلمين ، يطاردون من قطر إلى قطر ؛ لأن «هويتهم» سرقت منهم تحت الشمس ، ومنحتها هيئة الأمم لأبناء التوراة ، ورأت ذلك هو الإنسانية الصحيحة ..

أفذلك ما نكلف بقبوله وإلا صرنا مسلمين متعصبين؟ نعمل ضد الإنسانية! ألا قبحاً لهذا المنطق ..

وكانت النصرانية حتى مطالع هذا العصر تجر وراءها تركة مثقلة من الخصام الدامى بين العلم والدين ، لقد قتلت العلماء وعوقت التقدم العلمى ، ومشت على أشلاء الضحايا من طلائع الفكر الإنسانى .. ورأت دول الغرب نفسها أن تقلم أظفارها ، وتسمح لها بالعيش بعيداً عن كل نشاط ذى بال!! .

وبغية تغير الوضع كله ، وأصبحت النصرانية سيدة الموقف وانعقد صلح وارف الظلال بينها وبين شتى الحكومات فى أوروبا وأمريكا ..

ورأينا «بابا روما» ينطلق من قلعته فى «الفاتيكان» إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ليجد الألوف المحشودة تنتظره ، ورؤساء الدول فى شرف استقباله ، ومن مرت بهم طائرته أرسلوا إليه فى الجو تحيات عطرة!! ..

فإذا خطب فى «نيجيريا» وأكثر من تسعة أعشارها مسلم تناول بالضيق قضية تعدد الزوجات ، وأوماً إلى منافاتها الأخلاق (١) وهو يعرف أن العالم الغربى غارق فى الخنا إلى أذنيه .

إن مهاجمة الإسلام هدف إنسانى .. وفى سبيل ذلك رأينا تعاوناً وثيقاً منظماً بين «الكاثوليك» الإنجليين و «الأرثوذكس» علام يتعاونون؟ على إخماد الصحة الإسلامية التى لاحت فى أقطار كثيرة!! ..

وفى سبيل تلك الغاية الإنسانية اتسع نطاق التعاون ليشمل اليهود !! ..

وتذكرت قول «تشرشل» لما حالف الروس الشيوعيين ضد الألمان المسيحيين : إنتى مستعد للتخالف مع الشيطان ضد عدوى!! ..

ورجعت إلى تاريخ البعثات التنصيرية فقرأت هذه المقتطفات للمطران «نيل» وهو يتحدث عن جهود الصليبيين فى العصور الوسطى للتعاون مع المغول على ضرب الإسلام قال : «... عندما سمع العالم الغربى للمرة الأولى عن غزو التتار للعالم

الإسلامى ، استقبل هذه الأنباء بانتشراح ؛ لأنه إذا استطاع النصارى التحالف مع القوى المغولية على ضرب الإسلام من الخلف أمكن الخلاص بصورة نهائية من خطر المسلمين ، وقد يكون من الأفضل أن يدمر هذان العدوان بعضهما الآخر ، فستصبح الكنيسة بعدئذ الخيار الأفضل ، وذلك ما جعل المطران «وينشستر» يقول للملك هنرى الثالث ملك إنجلترا ما نصه «ليدمر هؤلاء الكلاب بعضهم بعضاً ، وليصف كلاهما الآخر! وعندها سنرى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تتأسس على أطلالهم» ..

يقول محرر مجلة الأمة تعليقا على هذه النصوص : «إن بعض السذج من المسلمين يعجبون للتواطؤ القائم بين الشيوعية والصليبية على ضرب الإسلام ، والذى ظهرت آثاره فى زنجبار وتنجانيقا والسودان والحشة وأوغندا وفلسطين .. إلخ لا مكان للعجب ، فالتاريخ يعيد نفسه وأحداث العصر تماثل كل المماثلة ما نقلناه آنفاً على لسان المطران نيل .. لم يتغير إلا الوقت ، أما الحق الكامن ، والجهل المتعصب ، والنفوس الملتوية والميول العدوانية فهى هى مازالت فى القرن العشرين كما كانت فى القرن العاشر ، وما قبله وما بعده» ..

ولنترك جيراننا أهل الكتاب! ولنتنظر بعيداً إلى ديار البوذية والهندوكية ، إن الديانتين الوثنيتين فى عصرهما الذهبى الآن مابلغتا هذه الذروة يوماً ما .. !! .

يعرف دارسو الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يوماً إلى السماء لا داعياً ولا خائشاً ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأرض وما عليها وقد وضع لأتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها ! .

فلما مات جعله هؤلاء الأتباع إلها ، وجعلوا تعاليمه تورا وإنجيلا وقرأنا ، وأصبحت البوذية ديناً! ما أغرب نقائص البشر !

ورأيت القباب الداهية فى الفضاء تحتها تماثيل لبوذا جالسا يفكر! والألوف من العابدين يزلفون حوله ، إن الدول الغربية أعانت هؤلاء على مطاردة الإسلام وطى راياته عن أقطار كثيرة ، فالوثنية - من الناحية الإنسانية - أفضل من الإسلام!! ..

أما الهنادك فهوايتهم المفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا! إنهم يقدسون الأبقار والقردة ، بل الجراثيم! الشيء الذى يستحق الموت هم المسلمون ، وأقرأ الآن وأنا أكتب هذه السطور - كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رميا بالسهم

أو ضرباً بالفئوس أو حرقاً بالنيران ، مما جعل مئات الألوف تفر حذر الموت إلى جبال «الهيمالايا» ، ذلك كله في ولاية واحدة ، ولاية «آسام» .  
تلك هي الإنسانية في عصرنا الحديث! إن رنين الكلمة المزيفة يقرع الأذان ، ويشير الغثيان!! ..

إننى باسم الإسلام وأمته على استعداد كامل للحفاوة بهذه الكلمة يوم تكون عنواناً له موضوع ، وعندما أفعل ذلك فأنا أوفى لدينى ولا أخرج عليه ، بل أعد من الولاء لدينى أن أحسن الحسن ، وأقبح القبيح ، وأدفع عن المظلوم ، وأنشر الرحمة ، وأقيم العدل ، وأرق للحيوان بله الإنسان أيا كان لونه ودينه!! ..

إننى أعرف من دينى أن الله يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافر! ..  
وأعرف من دينى أن حلفاً شريعياً في الجاهلية الأولى ، قال النبى الكرم عنه : «لو دعيت به في إسلام لأجبت»!! .. إنه حلف الفضول ، للحفاظ على الحقوق ونجدة المستضعفين ..

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامى الشديد للجنة العفو الدولية التى تقف بجهدىها ضد العدوان ، وتكشف أصحابه ، وتؤلب عليهم ذوى الضمائر الحية فى هذه الدنيا ..  
وأؤيد من أعماقى حسن معاملة الأسرى وأعلن الحرب على الرق الفردى والجماعى وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها .

معنى أننى مسلم أننى أعتنق ديناً طبيعياً ، يحترم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الإنسانى وأحكامه المنطقية ، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفه بالموت ، بل يمهده له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، ويلحظ حكم القدر فى اختلاف الأديان فيدعو إلى رأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقسوة ..  
تلك هي الإنسانية التى نجها ونراها امتداداً لرسالة الله ، ومرادفاً للإسلام ..



## ٦٥. أصبح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟

لأرب أن الفتوح الإسلامية كانت شيئاً خارقاً للعادات ، ولو أنك سألت أعرابياً قبل بعثة محمد أو إبانها : هل تفكرون فى غزو فارس أو الروم؟ تظن بك مسا!! ..  
إن هذا لا يريد أحلام النيام! إنه كالهبوط إلى القمر بنير وسائل علمية!! ..

لكن الواقع الذى لا يمكن إنكاره أن العرب - بعد ما أسلموا - هزموا الفرس والروم معاً فى جبهتين متعاصرتين ، واحتلوا بلادهم فى وقت واحد!! ..

إن القبائل الهائلة على وجهها فى صحراء الجزيرة قلمت لها فجأة دولة تحت علم التوحيد ، لم تسلك من عمرها بضع سنين بعد وفاة صاحب الرسالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين ، وتلحق بهما هزائم أبدية!! ..

ماذا حدث فى دنيا الناس؟ إنها معجزة ما عرف خبرها إلا محمد وحده ، الذى أقسم بربه أن تنفق كنوزها فى سبيل الله قال عليه الصلاة والسلام : «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فوالذى نفسى بيده لتنفق كنوزهما فى سبيل الله تعالى»!! ..

إن الإنسان الملهم العابد المجاهد هو صاحب هذا التغيير الحاسم فى تاريخ البشر ، لقد جعل القمم سفوحاً والسفوح قمماً ، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم بالعلم والتربية ، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالترف والمعصية .

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمداً وحده هو الإنسان الأول أو القمة الأولى فى تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدىها ..

غير أن أغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيراً لما حدث فقال : إن جفافاً سيئاً حل بجزيرة العرب على عهد البعثة المحمدية وعقبها جعل العرب يتحولون إلى جيرانهم زرافات ووحدانا يطلبون القوات ، ويفرون من الجماعة إلى أرض الهلال الخصيب فى سوريا والعراق! ..

ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نغى إلى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس!

ولنفرض جدلاً أن مجاعة وقعت! هل إذا حل قحط بسويسرا أغارت عسكرياً على روسيا والولايات المتحدة ابتغاء القوت؟ لماذا قلت: سويسرا؟ هل إذا حل قحط بالكونغو ناوش الدولتين العظميين في العالم، واحتل أرضهما سعيًا وراء الرزق؟ هذا تفكير سكارى!

ثم تذكرت أن في كتبنا القديمة كلاماً قد يكون من وراء هذا الهذيان، قرأت في وصف إحدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورقائق، فقال أحد الجنود: لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق!! ..

قلت ساعتها: هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دعايات! ولم أكن أدري أن الأب «لا مانس» سيتخذ من هذا الكلام دليلاً على أن للفتح العربي أسباباً اقتصادية!! ..

ومثل ذلك ما قاله «رستم» للمغيرة بن شعبة في أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب: قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ماتشبعون به، ونصرفكم ببعض ماتحبون، وهذا كلام هزل! فإن رستم يعلم أن كتاباً جاء سيده كسرى من يضع سنين يدعو إلى الإسلام، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وأن أتباع هذا النبي جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها، وهم مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا ما اقتنع الفرس بها.

فما مكان هذا الطعام المعروض؟ ومن الذي طلبه؟ ومن الذي يقبله؟ إنه كلام هزل!

وكتب التاريخ لدينا تروى الغث والسمين، وقد نبه الطبرى قراءة إلى ذلك، حتى لا يخدعوا بكل ما يرويه، ولو صدقنا جدلاً ما حكاها الطبرى - بسند تافه - أن خالد بن الوليد قال لرجاله: ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ بالله لو لم يلزمننا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى تكون أولى به! ونولى الجوع والإقلال من تولاه من أثاقل عما أنتم فيه!!

إن هذا الكلام - لو صح - لكان ضرباً من المزاح أو لفت النظر إلى مافى أيدي الكافرين من نعماء ليسوا أهلاً لها؛ لأنهم لم يشكروا الله عليها، ولم يؤدوا حقه فيها ..

ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب؛ لأن الأدلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلباً للغنمة جريمة، وأن المجرمين لا يفتح لهم ولا يفتح عليهم، فعن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من الدنيا! فقال: «لا أجر له! فأعاد عليه ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا أجر له..»

وروى مسلم في صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النار يوم القيامة، وبعد أن ذكر لقارئ المرائي والمتصدق قال: «... ثم يؤتى بالذى قتل في سبيل الله، فيقول الله له: لمبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت! فيقول الله تعالى له: كذبت وتقول له الملائكة كذبت! يقول الله له: بل أردت أن يقتل: فلان جرى! وقد قيل ذلك! ثم ضرب رسول الله على ركة أبي هريرة فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة!...»

قال شفى الأصبحي: فأخبرت بهذا الحديث معاوية، فبكى بكاء شديداً حتى ظن أنه هالك! وقال: قد فعل بهؤلاء ذلك فكيف بمن بقي من الناس؟ وتلا قوله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)﴾

إن الصحابة جميعاً، والتابعين معهم، يعلمون أن القتال طلباً لمغنم دنيوى مهلكة للدين، ومن ثم خرجوا للجهاد، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا، مقبلة على طلب الآخرة، وذلك سرفلاحهم ونصرهم على عدوهم!

هناك عقد فادح الثمن بين المؤمنين وريهم ولكنه جليل العوض، يقدمون حياتهم له ويمنحهم الجنة في مقابله، ومن طلب عظيمًا خاطر بعظيمته ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾ (٢)

إن الإيمان حول أصحابه إلى زلازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد! فإذا قيل: يا خبيث الله اركبى، وإلى الله ارجعى... رأيت الرجال يتسابقون إلى الموت موقنين بأن بعده الجنة ..



وقد يكون أحدهم شيخاً كبيراً أثقلت جسمه السنون ، فإذا سمع النداء تحامل على نفسه ليؤدى واجبه ، فيقول له بنوه إن الله عذرك! ونحن نجاهد عنك! فيقول : كيف عذرني وهو القاتل :

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١)

إن الشاب والشيخ ، للثقل والخفف ، سواء في ضرورة الجهاد! الحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد قواداً أشجع ولا ذراعاً أشد ، من قواد محمد وذراعه .

لقد حشد ضدها الجموع ، ورمى طواغيتها بالأبطال ، وأخذ يقول لهم : «من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة...» رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل... ما من مكلوم . جريح . يكلم في سبيل الله إلا جاء ، يوم القيامة وكلمه . جرحه . يدمى . اللون لون الدم والريح ريح المسك... لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً! لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمع في قلب عبد الإيمان والخسدة... سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله... ألا أخبركم بخير الناس؟ وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله ، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره ، حتى ياتي الموت ، وأن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله لا يرعى بشيء منه... !

يقول المغيرة بن شعبه للفرس : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا : «أنه من قتل منا صار إلى الجنة! فنحن أحب في الموت منكم في الحياة... !»

بهذه التوجيهات وتلك المشاعر بدأ الهجوم على قوى الكفر والعدوان ، فإذا الدول الكبرى التي غالبت الزمن وطاولت التاريخ تترنح وتراجع ثم تهوى!! ..

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعي بهذه الحقائق ، فهم ما عرفوا - في ظل الاستعمار إلا حروب النهب والسلب ، والأحقاد والأطماع ، ولذلك يتحدثون عن محمد وصحبه حديث السكارى عن الملأ الأعلى ..

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس : إن العروبة من وراء الفتوح العظيمة في فارس والروم! أي عروبة؟ كان العرب غربي فارس أذناناً لكسرى واسمهم المنافرة ، وكانوا جنوبي الروم أذناناً لقيصر واسمهم الغساسنة ، وكانوا في قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمع الحمالون عن ركاب الدرجة الممتازة في السكك الحديدية!! إن العرب قبل الإسلام ومن غير الإسلام ما كانوا شيئاً ، ولن يكونوا شيئاً وسنزيد ذلك بياناً في الإجابة التالية .

(١) التوبة : ٤١ .

## ٦٦. يدرس الآن في بعض الجامعات أن القومية العربية هي العامل الأول في نجاح الفتح الإسلامي وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة في هذا القول؟

هذا الكلام أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه .

وقد استمعنا إلى أوصاف محدودة توجه النفوس إلى هذا الغرض ، وتجاوزناها لتفاتها ، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للنيل من الإسلام وتاريخه!! .. من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار قطز بأنه بطل القومية العربية (١) ..

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة ، ولا خطرت له ببال ، فهو - باسم الإسلام وحده - قاد المسلمين من عرب وترك لمواجهة التتار ووقف تقدمهم إلى مصر ، وكان حماسه لدينه وحب له بارزين في سيرته ، فلما رأى الجيش المصري يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة ، وإسلاماه! فكانت مفتاح النصر ، وسر انكسار التتار للمرة الأولى في تاريخهم العسكري ..

ومعروف أنه من تركستان لا من جزيرة العرب ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية!! ..

ومثل ذلك الكذب وصف صلاح الدين الأيوبي بأنه بطل العروبة! والرجل مسلم كردى الأصل دعاه دينه وإخلاصه لله ورسوله إلى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعادهم للعرب المطرودين منه وذلك باسم الإسلام الذي لا يعرف غيره! ..

والواقع أن فكرة القومية عرفت أوروباً في القرنين الأخيرين فقط ، ثم نقلها الاستعمار الثقافى إلى بلادنا ليطيح بوحدتها الكبرى ، فالقول بأن العرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموهل في السخف ..

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العرب المنتصرين سواء من كان منهم تابعاً للروم ، أو الفرس ، أو قاطناً شمالى جزيرة العرب ، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين ، وتحاملاً عليهم ..

فرسل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء ، عادوا جميعاً إلى المدينة سالمين ، فلم يقتل إلا الرجل الذي بعث إلى الأمير الغساني المنتظر شرحبيل بن عمرو ، وهناك أمير عربي نصراني آخر شرع يعد العدة لمهاجمة المسلمين في المدينة مما عجل بمعركة مؤتة! ..

ويذكر التاريخ أنه عندما أمر النبي ﷺ بمقاطعة كعب بن مالك ، أحد الثلاثة الذين خلفوا في معركة تبوك ، أرسل إليه الأمير النصراني يستضيفه ويغريه بترك المدينة ونبد الإسلام! ..

وقد ارتد إلى النصرانية جبلة بن الأيهم وأبى قبول الاقتصاد منه في مخالفة ارتكبتها وأثر ترك العرب والمسلمين والحق بالروم ، فأين منطق القومية في هذه الأحداث كلها؟

إن العرب النصراني لم يذخروا جهداً في النيل من الإسلام ووقف تقدمه مؤيدين في ذلك الروم والفرس جميعاً!! ..

ونسأل : أكان الروم أو الفرس يكونون للعرب احتراماً؟ كلا ، لما جاء كتاب النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام غضب غضباً شديداً وقال : «يكتب إلي هذا وهو عبدي»؟ الكلمة نفسها التي قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد ﴿أَنْزَمْنِ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (١).

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود ، إن الإسلام وحده هو الذي رفع العرب إلى مستوى آخر ، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم ، ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور ، فأين هذه القومية التي يفخر بها العرب ، ويردون إليها انتصارهم على الدولتين العظيمين؟ ..

كان عرب العراق يقاومون الفتح الإسلامي مع الفرس ، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسألهم : أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ فأين هذه القومية المزعومة؟ ..

لقد غلبتني الدهشة وأنا أقرأ لأستاذ (٢) جامعي يكتب لطلابه : «... إن العامل الرئيسي للفتوحات الإسلامية هو عامل قومي أساسه نضج قومية العرب! وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التي هددها حركة الردة!!» .

(١) المؤمنون : ٤٧ . (٢) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور السيد عبد العزيز .

هل حركة الردة كانت تهديداً للقومية العربية ، والوحدة العربية؟؟ أم كانت انتفاضاً على الإسلام وتكديماً للوحى وعوداً إلى الجاهلية ؟ .

أجندني مضطراً لمصارحة العرب - وهم قومي التائبون - بجملته حقائق ثقيلة! .

إننى أُلح مظاهراً ردة أنكى من الردة الأولى تبغى الولاء للجنس وتأبى الولاء للإسلام! .

ليكن! . فحاجة العرب للإسلام أشد من حاجة الإسلام للعرب ، ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

وعندما يقع هذا فيستصعب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم ، وأحق بالكرامة ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٢). ﴿... مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (٣).

إننى مصرى عربي الإسلام ، ولولا لغة الوحي ما كانت لى صلة بالعرب ، اللغة وحدها لا الدم أو العرق أو الجلد تنمينى إلى هذا الجنس! وما يسرنى أن أكون هاشمياً ، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب! وكما قيل :

ليس الأعراب عند الله من أحد!! ..

والجيل الذى ربه محمد ﷺ هو خير القرون ، وشرف الإنسانية كلها ، لأنه الجيل الذى اعتز بالإسلام وحمل لواءه ، وبلغ رسالته ، والذى رفض أن يقدم على العقيدة أى شيء آخر ولو كان الآباء والأبناء .

لقد كان الوحي الإلهي برنامجاً ملتزماً ، وثقته الوحيدة ثم خلفت خلوف تقبل الوحي على إغماض وتكلف ، وتكره الانتماء إلى الدين وتب الانتماء إلى العروبة (!) وعند وزن البشر بإنتاجهم المادى والمعنوى تطيش كفة هؤلاء ، وتود الأرض لو صغرت منهم ، فما يصلحون إلا علفاً لمدافع الغزاة!! ..

لما كان الإسلام ديناً عالمياً فقد دخلت فيه أجناس كثيرة ، استفادت منه وأفادته! ووسعت رقعة على ظهر الأرض ، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الأجيال المقبلة ، وبذلت المال والدم فى سبيل عقائدها ، ولا تزال تجاهد دونها إلى يوم الناس هذا .

(١) البقرة : ٢٥٤ . (٢) محمد : ٣٨ . (٣) المائدة : ٥٤ .

وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أذكى أتباعه وأطهرهم ، وأجدرهم بالتكريم والتأسي ..

بيد أننا نلاحظ أن العرب حاشا الصحابة وتابعيهم بإحسان - كانوا كالوارث المعتمد على جهد أبيه ومدخراته ، أخذوا أكثر مما أعطوا ، وتشبعوا من الدنيا باسم الدين ، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الإسلام نفسه (!) ففرضوا خصائصهم العرقية على هدايات الله ، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة ..

فكان الملك العضوض أيام الأمويين! وكانت الخلافة الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين! وكان احتقار الحرف والصناعات ، وكان الافتخار بالأصل والعزوة! وكان احتقار النساء - بعد وأدهم في الجاهلية - ومضى الانحراف إلى العصر السابق فخان العرب الترك حتى جعلوهم يرمون الخلافة في البحر ، ثم كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإسلام أو مستنكرة له ، يقودها من لا علاقة له بالله أبداً .

ويوم نقول : إن القومية العربية هي السبب الأعظم في نجاح الفتح الإسلامي الأول ، فمعنى ذلك أن عقائد الإسلام وفضائله وحاجة العالم إليه أمور ثانوية أو وهمية !

ومن ثم يفقد الإسلام أمجاده التاريخية كما فقد وجوده التشريعي والتربوي في الحاضر المهزوم !

لا يجوز للجنس العربي أن يعدو قدره ، ويفتات على غيره ، وينسى أن الإسلام ولى نعمته ومقيم دولته ، وحافظ كيانه وداعم أركانه .. !

إن شعوب العالم فتحت أحضانها حملة التوحيد النقي والأخوة الجامعة ، ومبدأ «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» ولم تفتح أحضانها لعرصة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية ، أو أعراف بدوية وأوهام صحراوية .

كانت «قادسية» سعد بن أبي وقاص معبراً لأركان الإيمان وحقوق الإنسان ، ونظام الشورى ، وإقامة العدل ، بعد إطفاء المجوسية الخربة ، ومحو الاستعباد السياسي وإخراج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام !

لا كرامة للعرب بدون إسلام : كما كانت له كرامة قبل الإسلام

ونعود - بتفصيل قليل - إلى تاريخ العرب إبان الفتوح ، ونسأل : هل انقض العرب الخاضعون للروم ، أو الخاضعون للفرس على الفرس حين وجدوا عرب الجزيرة يشبكون مع أعدائهم؟ ..

إن هذا أول ما يرتقب منهم تلبية لنداء العروبة! لكن شيئاً من هذا لم يحدث قط !

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضعون إخوانهم القادمين بشيء من الترحاب ، وذلك أيسر ما يبذلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة؟ لم يقع شيء من ذلك !

الذي وقع أن العرب المستنقلين قاوموا العرب الفاتحين بكل ما لديهم من وسع ! ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية ، في موقعة اليرموك التي أجهزت على الوجود الأجنبي بالشام فنرى جبلة بن الأيهم يقود الألوف من النصارى العرب ، مقاتلاً مع الرومان أنفسهم ورباطاً مصيره بمصيرهم !

إن كرهه لعمر بن الخطاب رسب في أعماقه لأن عمر رفض الاعتراف له بامتيازات الإمارة ، ورأى أن يسوى بينه وبين أعرابي من عامة الناس فارتد إلى النصرانية ، وتآكب مع القبائل التي على دينه ضد عقيدة التوحيد للخالق والمساواة بين الناس .. فأين هي القومية العربية؟ التي حاربت الروم؟

وقبل ذلك بسنين كانت معركة مؤتة التي حاول فيها مائة ألف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الإسلامي القليل العدد ، الجيش الذي حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذئاب الرومان قتلوا بطريقة سافلة رسولاً للنبي ﷺ أرسله إلى أحد أمرائهم .

كاد هذا الجيش يذوب لولا انسحاب خالد بن الوليد! وسبب المعركة ، ما ذكرناه آنفاً ، قال الأمير الغساني للحارث بن عمرو - رسول النبي لتبليغ الدعوة - لعلك من رسل محمد؟ قال : نعم ! فشد وثاقه ، ثم ضرب عنقه بالسيف ! ..

فأين هي أصرة القومية التي تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعين للروم؟ إن الأمر بلغ حداً من الهزل يستحق الدهشة أي قومية يعنون؟ ونذهب إلى جبهة فارس فماذا نرى؟ نرى عرب العراق ينضمون إلى مجوس فارس في مقاومة





إن أولى الألباب أخذوا على عوم المسلمين قديماً وحديثاً مغالاتهم الغربية في فقه الفروع وإهمالهم لسلامة الأخلاق والقلوب، وتكاسلهم عن التفوق في شئون الدنيا وأسباب الحضارة، وهذا مسلك يودى بالدين كله .

وأمر آخر يثير البلبلة والفتنة! زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله .. والحق أن الخاصة الأولى في الإسلام تعليق القلوب بالله وحده، وإسلام الوجوه إليه، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب ...

ولم يطلب الله مني وأنا أدعوه أن أستظهر معي بأحد، أو أستشفع إليه بمخلوق .. ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف .. وقد رأيت من زوار الأضرحة ما يثير التقزز، ويوجب الإنكار ..

والذي أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد، ولكنه واجب، بل هو متعين، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب!! .. إنهم يكرهون التجسيد اليهودي، والتعديد النصراني، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامي، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا! ..

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم، ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟ أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفس لا يقل عن المرض الذي يعاني منه هؤلاء!! .. نظرت إلى اختلاف الفقهاء في حكم الصلاة بالمقبرة، وتحيرت بادئ ذي بدء! أن جمهرة الأئمة الأربعة بين كاره، أو مبيح! ثم جاء ابن تيمية - وللرجل وزنه العلمي - فحرم وشدد وذكر المسلمين بحديث نبيهم ﷺ لا تتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاركم عن هذا!! ..

وخيل إلي أن تغير الناس هو السبب في اختلاف الحكم، فما كان المسلمون الأوائل يذهبون إلى مقبور يلتمسون منه شيئاً، ومن ثم لم يشعر الفقهاء المفتون قديماً بأن الأمر يستحق الخطر والوعيد ..

أما في القرن السابع - عصر ابن تيمية - فإن أعداداً من العامة كانت تستجير من التتار الغازين بقبر أحد الصالحين!

كيف يقع هذا؟ وما يغني المسكين عن هؤلاء اللاتدين به؟ إنه لو كان حياً ما أفادهم! ..

وهل يفيد في الحرب إلا من استكمل عدتها؟ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (١) إن ذلك ما جعل الرجل يتشدد في إنفاذ كلام رسول الله ﷺ ألا يبنى على القبر مسجد، وألا يصلى في مقبرة سدا للذريعة!! ..

الواقع أن حركة ابن عبد الوهاب - من الناحية العلمية - سليمة، وقد تكون الوسائل الرديئة هي التي هزمتها، يذكر الأستاذ أحمد أمين: «أنه قام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد، حج سنة ١٨٢٢ م وهناك آمن بالمذهب الوهابي، وعاد إلى بلاده فنشر الدعوة في «البنجاب» وأقام دولة شبه وهابية وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند! وأعلن حرباً عواناً على البدع والخرافات! وهاجم الوعاظ ورجال الدين الرسميين! ثم دعا إلى الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه، ويقبل دعوته، وقرر أن الهند دار حرب! وقد لقيت الحكومة الإنكليزية متاعب كثيرة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم» .

ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل ينبغي أن يعاد النظر فيها على ضوء التجارب الفاشلة؟ ..

إن الإقناع أهم من التخويف، والدليل أجدى من السيف، وأنا أريد هداية الناس لا أسرهم!! ..

ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر، فهو قاطع طريق! وليس داعياً إلى الله، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته!! ..

وإذا كان القتال الغبي لا مساغ له من أجل العقيدة فكيف إذا كان في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة، إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة!! ..

وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمسون للبراء العيب! ..

وشيء أخير نشبته هنا .. لقد درسنا فى الأزهر ونحن طلاب مذهبي السلف والخلف فى آيات الصفات ، أعنى التفويض والتأويل ، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب ، وترك لمن شاء أن يختار ماشاء من أقوال! ..

وقد اخترت رأى السلف لأنه فى نظرى أعرف بوظيفة العقل الإنسانى وقدراته ، ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الثرثرة الدينية التى تضيق الوقت سدى! ولأنه احترم مصادره الأصلية ، وازدردى فكر اليونان! ..

ومع ذلك فقد تعمقت فى فهم أفكار الخلف ، وأستطيع القول بأن جمهورتهم حراس على توحيد الله وتوقيره! .. وأن دراستهم لا بد منها فى فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب ، وأن الأفضل الآن تحنيط هذه الدراسات ووضعها فى المخازن للذكرى والتاريخ .

فالنزعة العقلية المعاصرة لاثب أن تسمع بحثاً عن : هل الله عالم بذاته؟ أو بصفة زائدة على الذات؟! إن هذا اللون من الفكر أمسى لغوا! ..

وعلى معتنقى فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! .. أما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفى هو نصرة الدين ، وأن إلحاق هزائم بالأشاعرة قربى إلى الله ، فذاك الآن نوع من البطالة! ..

قال لى صديق من نجد : نطاق العقائد أوسع مما ذكرت ، والذين يقفون به عند هذه الحدود هم الذين لا يؤمنون بالرحيين معا! ..

قلت دهشاً : ما تعنى بالرحيين؟ قال : الكتاب والسنة! قلت : هذه تثنية مثيرة! فإن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بثبوت كلمة كلمة! ولا كذلك السنة! أكثر السنة أحاديث آحاد ، يعمل بها فى الفروع أما العقيدة فتحتاج إلى نص مستيقن ثابت بالتواتر! ..

والقرآن أصل الإسلام ، والسنة فرع يجىء بعده ، بياناً وتفسيراً ..

قال : السنة مثل الكتاب فى أنها مصدر للعقائد مادام السند صحيحاً! ..

قلت : ماهى العقيدة التى ترى أنها ثبتت بحديث آحاد؟ وكلفت الأمة جمعاء باعتناقها؟ ..

فتروى قليلاً ثم قال : ثبت فى الصحاح أن الرسول ﷺ قال : «لا تمتلن النار حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله فتقول : قط قط ، فهناك تمتلن ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله تعالى من خلفه أحداً ، فالحديث أثبت صفة القدم! ..

قلت : هذا كلام باطل ، إنك مع بعض السطحين فهمتم أن «الرجل» كلمة تعنى العضو المعروف ، وقد قال المفسرون : إن القدم ما يقدم للنار من الأشخاص الأراذل الذين يستحقونها ، وارجع مثلاً إلى تفسير القرطبى ل ترى أن القدم وكذلك الرجل مفرد أرجال الجراد ، وأرجال يعنى الأرتال ، والمعنى معروف لدى العلماء ..

فلا دلالة الحديث قطعية ، ولا ثبوته قطعى ، فكيف تنشئ عقيدة من ظن حائر؟ ..

وما طولب عربى ولا رومى ولا عجمى باعتقاد أن لله قدما ، فهل نأخذ الدين من سلفنا الأول أم نأخذه من عقولهم؟ ..

راجعوا أنفسكم ليلتقى المؤمنون على كلمة سواء ..



## ٦٨. ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟

هذا ميدان شائك! لأنه يتصل بعالم الغيب، ودرابتنا به قليلة، وسأنقل خطواتي بحذر، مستهديا بما أملك من طاقة عقلية، وبما تيسر من تعاليم سماوية! ..

أؤكد أولا أن الوجود أكبر من الإنسان! وأن تصور الإنسان نفسه على أنه الكائن المحتكر للحياة ينطوي على غرور وجهالة، فالكون أكبر منا، وساكنوه أكثر عدداً، وأشد قوة!

وقد فهمت من القرآن الكريم أن الجن عالم برز إلى الحياة قبل الإنسان، وربما كلف قبله قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٦٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٦٧)﴾.

ويبدو أن إبليس أبا الجن ضايقه هذا الكائن الجديد، وظنه منافسا على مكانة استقرت له، فكره آدم وبنيه، وساءل الخالق معترضاً: لم خلقت هذا الإنسان ذا الطبيعة الهشة؟ ولم أمرت بالسجود له؟ إنني أقدر منه وأصلب! ولو أطلقنا في سباق لأحقن به وبأولاده شر هزيمة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (٦٧) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٨)﴾.

وإبليس بهذا التصرف أحقق! فليس له - وهو أحد العبيد المخلوقين لرب الأرض والسماء - أن يقف هذا الموقف، فله أن يخلق ما يشاء، ولله أن يفضل ضعيفا متواضعا على متكبرا! وما أدري إبليس أن من أبناء منافسه من يبهز بحسن الطاعة وصدق العبودية، ويحطم ما يتعرض من عقبات، حتى يرضى ربه بجدارة؟ ..

على أن عالم الجن لم يمس كله في طريق إبليس، فقد بقى منه نفر كثير يعلن ولاءه لله، ويثابر على طاعته، ويؤدي التكاليف المطلوبة منه ..

(١) الحجر: ٢٦، ٢٧. (٢) لاستأصلن. (٣) الإسراء: ٦٢.

نعم في الجن ناس طيبون، يستبحون بحمد ربهم وينكرون أن يكون له ولد، ويهتدون إلى الرشد وينفذون وصايا المرسلين، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبنيه، واحتالوا طويلا لإشقايتهم وإقنائهم ﴿وَأَنَا مِّنَ الصَّاحِقِينَ (١١) وَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقُولَنَّ بِحَقِّهِ لَمَّا سَأَلَهُ الَّذِينَ هَبْ حَصْبَكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُغْتَابٌ (١٢)﴾. وَأَنَا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقُولَنَّ بِحَقِّهِ لَمَّا سَأَلَهُ الَّذِينَ هَبْ حَصْبَكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُغْتَابٌ (١٣)﴾. وَأَنَا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقُولَنَّ بِحَقِّهِ لَمَّا سَأَلَهُ الَّذِينَ هَبْ حَصْبَكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُغْتَابٌ (١٤)﴾. وَأَنَا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقُولَنَّ بِحَقِّهِ لَمَّا سَأَلَهُ الَّذِينَ هَبْ حَصْبَكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُغْتَابٌ (١٥)﴾.

والاحتكاك دائم بين ذرية إبليس وذرية آدم، فما طبيعة هذا الاحتكاك؟ ..

الظاهر أن الشياطين - أعني الجن العصاة - ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بني آدم! إنهم يجيشون لمتردد فيغرونه بالجن، ولتوقع فيغرونه بالكبر، ولتهافت على الشهوات فيغرونه بالفسق، وهكذا ..

وعندما يوقف الكل للحساب، يقول الشيطان لمن أغراه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ (١٦)﴾.

والقانون - كما قيل - لا يحمي المغفل، فإذا زاغ بشر فهو المسئول عن نفسه، وما يملك أحد إرغامه على عوج، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه.

قد تكون قصتنا على ظهر الأرض هي قصة أبينا آدم أيام الجنة! إنه لو ظل ذاكراً فلم ينس، قادراً فلم يضعف لارتد سهم إبليس إلى نحره! ولكنه لم يكن عند حسن الظن ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيِّ وَلَمْ نجدْ لَهُ عَزْماً (١٧)﴾.

والذين ينزلون في دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلي فيهم جعلهم يتجاوبون مع كيد الشيطان، وينخدعون بكذبه ﴿وَلَقَدْ صدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا (٢٠)﴾. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١)﴾.

(١) الجن: ١١، ١٥. (٢) إبراهيم: ٢٢. (٣) طه: ١١٥. (٤) سبأ: ٢٠، ٢١.

وعندما تقع رذيلة فلذة الشيطان منها الأز عليها وتزينها ، ذلك كل ما يشتهي ! أما الإنسان الجرم فلذته أكل حرام أو سرقة عرض أو ظلم ضعيف ، وما يحس مؤقتا بحلاوته لا يحس الشيطان شيئا منه ولا يرى لذة فيه ! ..

فرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطا ذليلاً مغاضبا لربه ، ولذلك يقول الله لبنى آدم موبخا :

﴿ أَفَتُخَذَوْنَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (١)

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى ! كما يظهر أن بعضهم يلزم أنواعا من البشر ، ويقف نفسه على إغوائهم ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٢)

وإذا كان للعصاة قرناؤهم ومضللوهم ، فإن الأقوياء يئأس الشيطان منهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٣)

ونترك عالم الجن وعلاقته بالإنسان إلى عالم آخر أنقى وأطيب .. إن الإنس والجن جنسان مكلفان متمحان قادران على الخير والشر ، والذكر والنسيان ، من أجل ذلك يحصى الله عليهما نعمه ثم يقول :

﴿ قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٤) ؟ ..

لكن هناك عالما آخر إرادته من إرادة الله ، وحياته وقف على إنفاذ مشيئته ، هو عالم الملائكة الذين يرنون دائما إلى أنوار الألوهية ويستغفرون في أمجادها قال تعالى :

﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (٥) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ (٥)

وظائف الملائكة كثيرة ، وهم مع أبناء آدم من بدء تخلقه حتى يوارى في التراب . ففي الحديث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » ..

(١) الكهف : ٥٠ . (٢) الزخرف : ٣٦ . (٣) الحجر : ٤٢ . (٤) الرحمن : ١٦ . (٥) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ .

وإذا صح أن نسمى هؤلاء الموكلين بالأرحام ملائكة الحياة ، فهناك آخرون للوفاة ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

والحمى المميت هو الله جل شأنه ، وهو الذى يلهم ملائكته ويقدرهم على فعل ما يريد .

وقدرات الملائكة أعظم كثيرا من قدرات الجن ، وإذا كان العفريت يستطيع أن يلمس السماء ، أو ينقل شيئا من اليمن إلى فلسطين في ساعة ، فإن الملائكة أوسع طاقة ، وفيهم من يستطيع تطويق أعتى المردة ، والهوى به إلى أسفل سافلين ..

والملائكة يتابعون حياة البشر ، ويسجلونها سواء كانت نية في القلوب ، أو كسبا للجوارح ، ويعنى هذا بلا ريب رؤية عجيبة وصحوا تاما ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (٢) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ (٢)

وما يحتاج ربنا جل جلاله إلى من يعلمه أو يذكره ! ولكن النظام الذى وضعه لكونه ، أحصى فيه كل شيء من المخلوقات والأعمال ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣)

والملائكة الكرام الكاتبون لا ينتهى لهم تسجيل ، ولا يقف لهم إحصاء ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٤) قَبَائِلُ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ (٤) ؟ ..

والملائكة صديقة للمرء المؤمن تفرح بعبادته وتهش له ، وإذا دخل المسجد للصلاة حفت به ، وإذا جلس فى طاعة الله شرعت تدعوه : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، وثبت أن لها نوبات فى صلاتى الفجر والعصر ، ثم تصعد إلى ربها تذكر له ماترى ، وهو أعلم به ، ولكنه النظام الذى وضعه سبحانه .

فى المحافل الجادة ، وفى مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين فرحا قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم ، وربما صاغ القصيدة فى الدفاع عن الله ورسوله ، يؤيده فيها الروح القدس - كبير الملائكة - ..

(١) السجدة : ١١ . (٢) ق : ١٧ ، ١٨ . (٣) يونس : ٦١ . (٤) الرحمن : ٢٩ ، ٣٠ .



وفى الوقعات التى يصطرع فيها الحق والباطل ، ويبيع جند الله أنفسهم لنصرة دينه ، تنزل الملائكة لتشجع وتلهم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتِي مَعَكُمْ فَتُنَزِّلُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ فَأُضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأُضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١) فى هذا الحين تكون ملائكة أخرى لنزع أرواح الكفرة ، وتتناولها باللطومات ظهر البطن ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢) .

وهذا الكلام يحتاج إلى تفسير شامل ، فإن الملائكة لم تعتمد إلى سكير فى حان لتدعوه له وتلتمس له المغفرة ، بل دعت لامرئ يريد أن يتزكى ، سعى إلى المسجد ليؤدى حق الله ، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو ، ورجح عليها ذكر ربه فهو أهل لأن يصلى عليه الكرام الكاتبون ..

كذلك لم تعتمد الملائكة إلى جبان فار من الميدان لتسأل له التثبيت والرضا ، وإنما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وأثر نصرة الله ، فهو جدير بالإيناس والبشرى! .. والأصل فى هذا التفسير قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣) ..

إن تنزل الملائكة كما يفيد ظاهر الآية فى أحوال الحياة كلها ، لا فى الرمم الأخير وحده كما يرى البعض ..

ويتضح ذلك عندما تعلم أن هذه الآية فى مقابلة ما نزل فى الغافلين المعوجين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى :

﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (٤) .

فالأشرا تزهم الشياطين ، والأخيار تؤيدهم الملائكة ، والفريقان مسئولان برءوسهم عن نفوسهم ، فهم ذوو عقول ، ولهم إرادة حرة يحاسبون بها قبل أى شئ! ..

(١) الأنفال : ١٢ . (٢) الأنفال : ٥٠ . (٣) فصلت : ٣٠ . (٤) فصلت : ٢ .

## ٦٩. ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسما وما مغزاها ؟

فى القرآن الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (١) . وفيه كذلك ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

المتأمل فى هذه الأسماء يجدها صفات علا ، ونعوت كمال وجلال وجمال .. والصفة تسمى اسما إذا دامت لصاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت العلم الذى أطلق عليه وعرف به! ..

والأسماء الحسنى - بهذا المعنى - كثيرة ، لأن معالم العظمة الإلهية ليست لها نهاية ، وهى مبثوثة فى القرآن كما تنبت النجوم فى أفاق السماء - ولله المثل الأعلى - ويغلب أن تختتم بها آيات ، ويختار الاسم ، أو الأسماء الخاتمة من السياق الذى جاءت به الآيات .. وسنشرح ذلك بعد حين ..

وجاء فى الحديث الصحيح «إن لله تسعة وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، إن الله وتر يحب الوتر» .. وفى رواية «من أحصاها دخل الجنة» ، والمراد بالإحصاء ألا يقتصر فى معرفة الله ودعائه على بعض دون بعض ، بل يعيها كلها ، ويتعرف على الكمال الأعلى والعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وإشراق القلب حقيقتها ..

وليس المقصود أن الأسماء الحسنى محصورة فى هذه التسعة والتسعين ، فهى أكثر من ذلك ..

والإسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر فى فهم الذات الأقدس ، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين ، فإن الأديان الأرضية أثبتت للالوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها أولو الألباب ، ويدركون أن مبدع هذا الملكوت أعلى منها وأجل ..

ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن إله يتمدد واضعا يده تحت قفاه ، وواضعا قدما على أخرى!! إله ينسى ويندم ، ولا يدري خطورة تصرفاته! ..

(١) الأعراف : ١٨٠ .

(٢) طه : ٨ .

وقد أمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحدين فى أسماء الله ، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها ..

وقارئ هذه الأسماء لا يفهمها إلا إذا عرف الكون والحياة ، عرف هذه السماء المبنية ، والأرض المفروشة ، عرف قوافل الأحياء وهى تعبر عصرا بعد عصر فى طريقها إلى الدار الآخرة .

لا يمكن أن تتم معرفة الله بمعزل عن ملكوته الكبير ، ومتابعة لقدره المحكم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكى ويخفف ويرفع ﴿ يَدْبِرُ الْأَمْرَ يَقْضِي الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوَقُّونَ ﴾ (١) .

والعارف بالله من خلال إحصائه للأسماء الحسنى ، يعرف أن العالم كبير ، ولكن خالقه أكبر منه ! وأن عقل الإنسان جهاز رائع ، ولكن مبدع الألوف المؤلفة من العقول المنتشرة فى القارات الموجودة من أزل الدنيا إلى أبدها - أروع وأوسع !

وماذا نقول؟ إن الحشرة المتحركة على الشرى لاتدرى : ما الإنسان ، وماذا كاؤه؟ وما الكون ، وما أبعاده؟ إن الكلمة لاتدرى : ما كاتبها؟ فكيف نعرف نحن التافهين كنه الذات العليا ، وأماد عظمتها؟ ...

إننا فى نطاق العبودية العاجزة نسبح بحمد الله ونحدث عن مجده ، ونعلن بصدق ولاءنا له وفقرنا إليه ..

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذى ذكر الأسماء التسعة والتسعين ، قالوا : الأسماء المتقابلة لا ينبغى أن نذكرها مفردة ، واقفين عند المعنى الذى لانحب ، كالضار النافع ، والعز المذل ، والقابض الباسط ..

فإن هذه الأسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أن ما ينيوهم من خير وشر ليس بمعزل عن علم الله وتقديره! وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوء ويسر ..

وعلى العبد أن يطلب كشف الضر من أرسله ، ويغلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه ، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز .

ومن الأدب لذلك أن ينسب الخير لله ، وينسب الشر لنفسه ، وتأمل فى دعاء

الخليل : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) ولم يقل : آمرضى .

وتوقف بعض العلماء عند اسم «المنتقم» ، ورده قائلا : لم يرد فى الكتاب أو السنن الصحاح .

والذى ورد فى آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (٢) .

والفارق كبير بين العبارتين ، إن الله لم يصف مكة بأنها قرية ظلمة عندما أذت المؤمنين قديما وإنما جاء فى الآية ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (٣) ، وبين الوصفين تفاوت! ..

والأسماء الحسنى تقرب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل ، ومن مشاعر البشر المأنوسة ، وإلا فلا يعرف الله إلا الله ، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ : «سبحانك لا نعصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ..

ومن الحقائق التاريخية أنه لا يوجد إنسان أحسن تمجيد الله ، وإجلاله مثل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأنما عقد مسابقة بين أصحابه ليتنافسوا فى الثناء على الله ومدحه والتزلف إليه واللهج بحماده! ..

عن بريدة رضى الله عنه ، سمع النبى ﷺ رجلا يقول : اللهم إنى أسالك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. فقال : «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى» ..

وعن أنس بن مالك قال : دعا رجل فقال اللهم إنى أسالك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم .. فقال النبى : «أتدرون بصادق» .. قالوا : الله ورسوله أعلم! قال : «والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» !! ..

واسم الله الأعظم يبلغه العبد الذى ينبعث عن إخلاص عميق ، ودعاء حار ،



## ٧٠. هل من شرح وجيز لأسماء الله الحسنى؟

الله اسم الذات، المختص به جل شأنه، لا يتسمى به غيره، فهو علم على المعبود بحق، الذي تعنوله السموات والأرض وما بينهما، ونحن نرفض إطلاق اسم «وجود» أو «ديه» على الذات الأقدس فلفظ «الله» وحده هو العلم الحقيقي.

«الرحمن» و«الرحيم»: من أسماء الله الحسنى، ومعنى الرحمة معروف، والاسم الأول مختص كذلك بالله سبحانه فلا يوصف به غيره ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (١). وهذه الصيغة في اللغة تعنى بلوغ الصفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعنى فيضان الوصف ليشمل الآخرين، فالذات العليا تمتلئ بالرحمة، وهذه الرحمة تعم الغير، وتشمل كل شيء.

«الملك»: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٢). ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (٣).

«القدوس»: المظهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، ومحور التسبيح يدور على هذا المعنى، سبحانه وتعالى:

«السلام»: الذي لا يجيء من قبله عدوان، بل يرتقب الخير والرضا.

«المؤمن»: الذي يذهب القلق والخوف ويمنح الضمانينة والأمان ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤).

«المهيمن»: الذي لا يغيب عن سلطته شيء، فهو يرقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود.

«الغزيز»: الغالب فلا يغلب، والذي يجبر ولا يجار عليه، ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْغَزَا فَلَلهُ الْغَزَا جَمِيعًا﴾ (٥).

«الجبار»: العالى فوق الخلاق كلها، وفارض قضائه وقدره على كل شيء ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (١).

«المتكبر»: المتعالى على صفات الخلق لا يتنزل إليها، والتاء في هذه الصيغة للانفراد والتخصص، لا للتكلف، من الكبرياء بمعنى العظمة التى هى حق الله، ومن نازعه هذا الحق من جبابرة الأرض قصمه.

«البارئ»: الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة فى إيجاد الأحياء، فيقال: بارئ النسم أى الأرواح ..

«المصور»: منشئ الخلق على صور شتى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٢). وقلمنا تتفق ملامح الوجوه، مع كثرة الناس، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الأصابع، وهو سبحانه مصور خطوطهما ..

«الخالق»: موجد الكون من عدم، ولا يقدر أحد على الإيجاد من عدم ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (٣).

«الغفار»: الذى يتجدد غفرانه لعباده مع تجدد عصيانهم له، وأصل الغفر الستر والتغطية ثم العفو ..

«القهار»: الذى تنفذ إرادته دون اعتراض! فيستحيل أن يردها بشر أو ملك، وهو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقدارها ومكانتها، وإذا منح أو منع لم يجزؤ على رد مشيئته أحد ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) وهو القاهر فوق عباده ﴿١﴾.

«الوهاب»: صاحب العطايا الجزيلة، تفضلا منه على من شاء ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥) ..

«الرزاق»: الذى يطعم ولا يظعم، ويسوق لكل حى ما يفتقر إليه، ويفعل ذلك عن سعة واقتدار ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٦) ..

(٣) التحل: ١٧.

(٦) الذاريات: ٥٨.

(٢) آل عمران: ٦.

(٥) آل عمران: ٧٣.

(١) الأعراف: ٥٤.

(٤) الأنعام: ١٧، ١٨.

(٣) الرعد: ١٥.

(٢) مريم: ٩٣.

(٥) غافر: ١٠.

(١) الإسراء: ١١٠.

(٤) قريش: ٤.



«الفتاح»: الذى يفتح أبواب الخير المادى والأدبى من رزق أو علم ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (١) ..

«القابض الباسط»: هذه الصفات المتقابلة تشير إلى أفعال الله بين الناس حسب حكمته وإرادته ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢)، وليس هناك من يقترح أو يتدخل أو يعترض أو يعقب بل الله هو القابض الباسط وفق ما يعلم من خلقه ويشاء لهم .

ومثل ذلك «الحافض الرافع» و «المعز المذل» وأثار هذه الأسماء بين الناس تحتاج إلى إيضاح، إن المرء بفطرته يكره الذل والخفض، ويحب العز والرفع، فإذا اشتبهى ما يجب فعلى باب الله يجب أن يقف داعياً، وإذا استعاذ بما يكره فعلى باب الله يجب أن يقف لاجئاً مستعيذاً! ..

وهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، ما يستعير شيئاً من أحد!، وهل معه أحد؟ ..

لكن الكثيرين من الناس لا يعرفون ما العز؟ وما الذل؟ إن ملوك الآخرة عاشوا سوقة فى الدنيا ما يأبه بهم أحد، وإن حطب جهنم ربما عاشوا فى الدنيا فراعنة يستعرضون الجيوش، ويسيرون المواكب! حتى تجيء الآخرة فتصحح الأوضاع المقلوبة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (٣) وفى الحديث «رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة»! وفى الحديث كذلك «رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره» .

فإذا ذكرت هذه الأسماء الحسنى وما شابهها ففى ضوء هذه المعانى ينبغى أن تفهم ..  
وثم ضميممة أخرى، إن الله إذا أعز فلا ذل أبداً، وإذا أذل فلا عز أبداً ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤).

(١) فاطر: ٢ .

(٢) العنكبوت: ٦٢ .

(٣) الواقعة: ١- ٣ .

(٤) آل عمران: ١٦٠ .

وكل صوت تهمس به فى أذن صاحبك فالله سامعه! وكل حركة فوق الثرى فالله رائيها! . وعندما شعر موسى بالخوف لما بعث هو وأخوه إلى فرعون، وقالوا: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (١) .

فالله هو السميع البصير ومن أسمائه الحسنى «الحكم» .. «العدل» إنه المشرع الأعظم، فلا حاكم غيره ولا معقب لحكمه ولا يلتبس العدل عند غيره إلا أحق ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً﴾ (٢) .

وهو يحكم بين عباده بما يشاء فى الدنيا والآخرة، وقد يؤخر حكمه فى أمور تقع بين الناس الآن لبيت فيها يوم الفصل، والدنيا دار اختبار، وقد يكون من لوازم الاختبار أن يترك الناس على نظامهم إلى حين ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٣) .

ومن أسمائه الحسنى «اللطيف» إنه يبلغ أمره بخطة رائعة وحكمة بالغة، وقد شعر بذلك يوسف فى نهاية قصته فقال: ﴿إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٤) كما أنه فى سننه الكونية يقدر بطافته على استخراج الحبوب والرياحين من بين الماء والطين ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٥) .

«الخبير»: العارف بالواطن والأسرار .

«الحليم»: بعيد الأناة فى معاملة المخطئين فلا يعالجهم بالعقوبة ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (٦) .

«العظيم»: إن علماء الكون يشعرون بضآلة أمام أبعاده وأغواره! فكيف يكون الشعور أمام من أبرزه من عدم، وبنى فأوسع؟ ..

«الفقور»: للمسئء «الشكور» للمحسن «الغنى» فوق الخلاق كافة سبحانه ربنا الأعلى .

(١) الأنعام: ١١٤ .

(٢) الحج: ٦٣ .

(٣) يوسف: ١٠٠ .

(٤) الأنعام: ٦٢ .

(٥) النحل: ٦١ .

(٦) النحل: ٦١ .

«الكبير»: النصف بجلال الشأن، وعظمة الذات والكلمة مأخوذة من الكبير، ومنها الهتاف المتكرر في الأذان بالغدو والأصال: الله أكبر، فما عدا الله موصوف بالصغر وملوك الأرض وجبارتها موصوفون أمامه بالصغار..

«الحفيظ»: الذي لا تنضج عنده الودائع «المقيت» القيم على الأحياء يوفر لهم أقواتهم فيغذيهم صغاراً وكباراً.

«الحسيب»: الذي يكفى من أوى إليه وتوكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾<sup>(١)</sup> ومن ذلك التعبير المحفوظ: حسبنا الله.

«الجليل»: من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقرون بالمهابة «الكريم» يده تسخو بالعطاء ليلاً ونهاراً من بده الخلق وما دام الخلق «الرقيب» من الرقابة وهى النظر إلى الأشياء بدقة وإحاطة.

«المجيب»: قابل الدعاء والرجاء من قصده ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

«الواسع» الذى وسعت رحمته كل شيء، ووسع غناه كل فقير «الحكيم» الذى لا يقع فى فعله عبث ولا فى وحيه عوج، ولا فى خلقه تفاوت «الودود» الذى يتقرب إلى عباده بالنعمة والتجاوز مع غناه عنهم، وحاجتهم إليه «المجيد» المجد تمام الشرف، والله أهل الثناء والمجد وأمجاد الألوهية تعنوا لها الخلائق كافة «الباعث» محيي الموتى ليوم النشور.

«الشهيد»: الذى لا يغيب عنه شيء ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

«الحق»: الوجود الإلهى واقع لا يزول ولا يحول، وكل كائن يأخذ وجوده من الله عارية تسترد يوماً (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)!!

«الوكيل»: الذى نفوض إليه أمورنا فيقوم بها عنا، وله القدرة على كفالة أرزاقنا، وإحجاج سعيينا، ومن ثم يجب التوكل عليه.

«القوى»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) الزمر: ٣٦. (٢) الشورى: ٢٦. (٣) الأعراف: ٧. (٤) البروج: ٩. (٥) فاطر: ٤٤.

«المتين»: الذى لا يلحق قدرته إعياء.

«الولى»: الذى يتولى أمور الكون، ويقوم بها كما يقوم ولى البيتيم القاصر بشئونه كلها، والله المثل الأعلى.

«المحصي»: كل أفعاله جديرة بالحمد، والحمد معنى يمتزج فيه المدح والشكر والتمجيد.

«المحصى»: فى سجلاته إحصاء لكل شيء ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾<sup>(١)</sup>.

«المبدئ»: خالق الأشياء لأول مرة و «المعيد» الذى يرد إليها وجودها بعد إفنائها ﴿يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

«المحيى المميت»: الذى خلق الموت والحياة، وأخضع لهما الكائنات، أما هو فإنه «الحى» بذاته وهو «القيوم» لا تقوم الأشياء إلا به، ولو سلبها وجودها لتلاشت، فتبار الوجود بجيئها مدداً بعد مدد من الحى القيوم، فمنه الإيجاد والإمداد جميعاً..

«الواجد»: من الجدة وهى الثروة، وأملاك الله لا تعد، لأن كل شيء ملكه «الماجد» كالجيد «الواحد» المنقطع القرين لا شريك له ولا نذ ولا ضد، «الأحد» مثله، وأساسه الانفراد والوحدة عن الأصحاب «الصمد» هو السيد المقصود عنه كل سؤال «القادر» و «المقتدر» المعنى واضح والتكرار زيادة فى نفى العجز، فإن جهلة البشر تتعاضد عندهم أمور هى عند الله بين الكاف والنون..

«المقدم» و «المؤخر»: الله - تبارك اسمه - يرتب الأشخاص والأشياء وفق مشيئته وحكمته، وهو يتفضل دون مساءلة! ولكنه منزّه عن الظلم وفى الحديث: «أنت المؤخر، لا إله إلا أنت»..

«الأول»: السابق فليس قبله شيء «الآخر» الباقي فليس بعده شيء «الظاهر» المستعلى فليس فوقه شيء «الباطن» المحتجب عن الأبصار، فليس دونه شيء!..

«الولى»: المتصرف فى ملكوته لا ينازعه أحد «المتعالى» المنزه عن أوصاف الخلق وعمما لا يليق بكماله، ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) القمر: ٥٣. (٢) الأنبياء: ١٠٤. (٣) الجن: ٣. (٤) الإسراء: ٤٣.

«البر»: مصدر البر والحنان وكل ما يتعاطف له الناس . «التواب»: ملهم عباده ترك الإثم ، والندم عليه والاعتذار إلى ربهم عنه . «المنتقم»: المقصود أنه بالمِرصاد للمجرمين يجمع غرورهم ، ويؤدبهم على طغواهم! «العفو»: يصفح عمن أساء ، والعفو أحب إليه من القصاص ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُقِيلُ الثُّبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

«الراءوف»: الرأفة رقة تجعل المرء يخفف في التكليف ، ويؤثر التجاوز عند الخطأ ، ولله المثل الأعلى ، وهو يكلف في حذر الطاقة ويقدم الصفح على المؤاخظة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٢) . ﴿ وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

«ذو الجلال والإكرام»: صفات الجلال تورث الخشية والرهبة ، وصفات الجمال - وأساسها الإكرام - تورث الحب والرغبة ، وجاء في الحديث : «انطقوا بآذا الجلال والإكرام» أي ألخوا على الله بهذا الاسم .

«مالك الملك»: كل شيء خلقه وعبد ، لا شريك له! «المقسط» العادل ، «الجامع» الذي يحشر الخلائق للحساب ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٤) . «المانع»: يحمي أوليائه ويدفع عنهم وينصرهم «الغنى» المعنى واضح . «المغنى» وأهب الغنى النفسى والمادى» .

«الضار النافع»: ماتراه من سرور وحزن ، ونعمة ونقمة ، ونصر وهزيمة فمن الله وحده . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (٥) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿ (٦) يختبر الله عباده بالأضداد . «النور»: الذى يبصر بنوره ذوو العماية ، ويرشد بهدهاء ذوو الغواية ، وهو فالق الإصباح ومضى الأفاق! .

«الهادى»: المنقذ من الحيرة ، ومثبت المؤمنين على الحق . (البديع) الإبداع اختراع ما ليس له مثال ، والكون صنع الله الذى لم يصنع من قبل مثله .

(٢) الحج : ٦٥ .

(٣) النساء : ٢٨ .

(١) الشورى : ٢٥ .

(٥) النجم : ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) آل عمران : ٩ .

«الباقي»: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١) .

«الوارث»: الذى يؤول الوجود إليه . .

«الرشيد»: مرشد الناس إلى مصالحهم فى معاشهم ومعادهم .

«الصبور»: الذى يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالفضيحة ، ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة ، فهذا الاسم كاسمه .

«الحليم»: غير أن قد يطول لطفه ، ويرجى صفحه . أما الصبور فينبغى القلق من إمهاله!! . .

ويمكن أن يطالع القارئ فى شرح الأسماء الحسنى بتوسع وبصورة كتاب أبى حامد الغزالى «المقصد الأسنى» فيه إن شاء الله ما ينفع .



## ٧١. طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهترون، فما حكم هذه العبادة؟

هذه بدعة قديمة استحدثها بعض أصحاب المشاعر المضطربة، وقد سماها بعض الصحافيين الأجانب «الرقص الدينى» وهى تسمية يحس المسلم بالخزى إذا سمعها، لأنها تجعل الإسلام أشبه بالعبادات التى يمارسها الزوج فى إفريقية وهذه فتنة مزعجة، وإهانة شديدة للإسلام..

والغريب هو ظهورها من قديم! فقد سئل الحسن البصرى عن هذه المجالس فنهى عنها أشد النهى! وقال: لم يكن ذلك من عمل الصحابة ولا التابعين، وكل ما لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين فليس من الدين - يقصد فى شئون العبادات - وقد كان السلف حراسا على الخير وقافين عند حدود الله، وكانوا أحرص على الخير من هؤلاء، فنعلم أن ما تركوه ليس من الدين وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١).

قال مالك بن أنس تعقيبا على كلام الحسن: «فما لم يكن يومئذ ديناً لن يكون اليوم ديناً، وإنما يعبد الله بما شرع، وهذا التجمع بالذكر والتمايل فيه لم يشرع قط فلا يصح أن يعبد الله به...»

وحكى عياض عن التنيسى قال: كنا عند مالك وأصحابه حوله، فجاء رجل من أهل «نصيبين» يقول: يا أبا عبد الله عندنا قوم من الصوفية يأكلون كثيراً، ثم يأخذون فى إنشاد القصائد، ثم يقومون فيرقصون! فقال مالك: أصبيان هم؟ قال: لا! قال: أمجانين هم؟ قال لا، قوم شايخ يذكرون الله! قال مالك: ما سمعت أحداً من أهل الإسلام يفعل هذا؟..

وقال أبو إسحاق الشاطبى: إن الاجتماع على ذكر الله بصوت واحد من البدع المحدثه التى لم تكن فى زمان رسول الله ﷺ، ولا فى عصر السلف، ولا عرفت قط فى شريعة محمد وفى الحديث الصحيح: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»..

الواقع أن هذا المسلك انحراف دينى مرفوض، ونحن هنا نتساءل: ما الذى حمل عليه، ودفع جماعة من العابدين إليه؟ لا بد من تحديد السبب لإمكان الدواء..

إن الفقير قد يلزم طعاماً واحداً لأنه لا يجد غيره، ولو كان موسعا لنوع وكثراً! وخطيب الأرياف الذى لا يحفظ إلا خطبة واحدة لا يجد بدا من تكرارها! ماذا يصنع؟ ذلك مبلغه من العلم! وهكذا..

والأمة الإسلامية حست نفسها، أو حبستها ظروف سيئة فى حملة من العبادات لا تتجاوزها، فإذا اتسع وقتها، وشاقتها الطاعة كررت ما تعرف، فضمت إلى صلاة الفريضة مثلاً صلاة نافلة، فإذا اتسع الوقت أكثر تنقلت أكثر!

وربما عَنَّ للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها، ليزداد بها قربى إلى الله..

ونسأل مرة أخرى: لماذا انفتح باب الاختراع فى الدين، وهو شر؟ ولم يفتح باب الاختراع فى الدنيا وهو الخير؟..

ولماذا كرر الأتقياء الصلوات، والصيام، والذكر والاستغفار، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا، على حين قلت أو صغرت الأرصة فى ميادين الأمر والنهى والجهاد المدنى والعسكرى، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر، ومسابقة الأمم فى تنمية النشاط العمرانى وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟

الحق المر أن الفساد السياسى من وراء هذه البلبلة الفكرية، فإن الرجل التقى قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة، فإذا هو يدفع رأسه ثمنها! وقد يؤثّل لنفسه وبنيه مالاً! فإذا مصادرة جائزة تحتاج كل ما جمع! وقد يبرز فى ميدان ثقافى أو أدبى أو صناعى فإذا هو يساوم: أيعطى ولاءه للحاكم القذ، أم يختفى؟ أما الحيات فلا!..

القرار من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تبتدع! أو خلوات قصية تقصد، ويعتزل بها المجتمع!







منافق قد علم نفاقه أو مريض وقال : إن رسول الله علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه .

ويظهر أن أعداء الإسلام على عهد الوحي غاظهم هذا المنظر المهيب المتكرر بالغدو والأصاال ، منظر المسلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليصلوا وراء نبيهم ، ما تنفص لهم جماعة حتى تقوم أخرى ، ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١) .

فماذا يصنعون؟ أخذوا ينفسون عن ضغائنهم بالغمز واللمز ، وربما تضاحكوا ، وعقدوا المجالس عند سماع الأذان ، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة! وهذا مسلك شرير يمكن تركه! . . .

ونزل الوحي يطلب المؤمنين أن يقاطعوا هؤلاء العائشين ، وأن يتجهموا لهم ، وهذا أقل ما يمكن عمله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦١) .

ما الذي جمع اليهود ، وعبداء الأصنام ، والمنافقين على التندر بالدين الجديد والنيل من شعائره؟ إنما الإيغال في الكفر والتحدى!

وكره النبي ﷺ أن يقابل الإسلام بهذا المجون ، وأن تنال شعائره بهذا العبث ، وأن يجد المنافقون ظهيراً لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهذا الأسلوب الدنيء ، فأرسل هذا التحذير الذي بلغ صداه القوم فأقضى مضاجعهم ، قال : « لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ، ثم أمر رجلاً يصلّي بالناس ، ثم أنطلق معي رجلاً معهم حزب من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم . »

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! . . ولا ريب أنهم المعنيون بالتهديد السابق! فإن اليهود والنصارى لا يكلفون بصلاة! . . .

وليس معنى الحديث أن تجميع الناس للصلاة يتم بالتهديد ، فذاك مستحيل لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغاء وجه الله يهرعون إلى المسجد كلما سمعوا النداء ، وكان أملهم ادخار الأجر العظيم عند الله . قال ابن مسعود : « إن كان المريض ليمشى بين الرجلين - يحملانه لمريضه - حتى يأتي الصلاة ، وكان أبعد الناس ممشى يحتسب خطاه عند الله ، ويحرص على الانتظام في الصفوف » . .

لكن من حق المؤمنين عند إقام الصلاة في الجماعات العامة ، ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث ، وألا تنعقد مجالس لجد أو هزل ، وألا تقام أسواق للشغب . .

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكأنهم يريدون عمدا انتهاك وقت الجمعة ، وإضاعة شعائرها!!

وتهديد الساعرين والمجانين بالتحريق عليهم ترك أثره ، ولم يؤثر قط عن النبي الكريم ، أو أيام الخلافة الراشدة ، أن وقع شيء من ذلك ، وقد شرحنا ملاسبات هذا التهديد كما جاءت في الكتاب العزيز ، فلا مجال للاستحقاق ، والقول بأن الإسلام يأمر بإحراق المتخلفين عن الصلاة! . .

عن أم الدرداء قالت : دخل علي أبو الدرداء وهو مغضب! فقلت : ما أغضبك؟ قال : والله ما أعرف من أمر أمة محمد ﷺ شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً . .

وعن أنس ، قال رسول الله ﷺ : « إنني لأدخل في الصلاة ، وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي ، أخففها ، لما أعلم من وجد أمه من بكائه » . .

وعن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم - من صلاته - يمكث في مكانه يسيراً ، فنرى والله أعلم أن مكثه لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاوّل من الجنسين أن يقترب من الآخر! أما من لا يجول بخاطره شيء ، يريب فلا يلحقه إثم ، والمراد توفير جو الطهر والتقوى في المسجد .

وهذه الآثار المتتالية قليلة من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الأمة كلها، وإن إقصاء لنساء عنه لم يعرف في سلف الأمة، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتداد الشوارع وداخل البيوت ..

وإذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكدة، فإن حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وعن عبدالله بن عمرو، قال رسول الله ﷺ : «يعضر الجمعة ثلاثة نفر: فرجل حضرها يلفو، وهو حظه منها!! ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها باتصت وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، إن الله تعالى يقول :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ﴾ (٢)

وقال علي بن أبي طالب وهو يخطب على منبر الكوفة - إذا كان يوم الجمعة : غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالرباثة - الربيثة ما يعوق المرء عن عمله ويصرفه عن واجبه - ويشبطونهم عن الجمعة! وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين! حتى يخرج الإمام .. فإذا جلس الرجل مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فأنصت ولم يبلغ كان له كفلان من الأجر! فإن نأى وجلس حيث لا يسمع فأنصت ولم يبلغ كان له كفل من أجره! وإن جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فإن جلس مجلساً لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر، فلغا ولم ينصت، كان عليه كفل من وزر، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه! فقد لغا، ومن لغا فليس له في جمعته تلك شيء! .

ثم قال في آخره : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

والجمعة شعيرة ترجع أعظم أجهزة الدعاية التي وصل إليها العالم، وإذا كان المسلمون الآن ألف مليون نسمة، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون

والمليونين كل أسبوع! يقوم رجل موجه فيتحدث باسم الله إلى عباده، يقول مالدیه، والصلوات صامتون يصغون لما يقال، لا يتشاغل عنه أحد، ولا ينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدي الصلاة !! .

إن أمة هذه نظمها ينبغي أن تتوحد صيغتها ووجهتها، وأن يرقى مستواها الفكري والعاطفي، وأن تغالب أسباب التفكك والفرقة ..

وأكره أن تكون الخطبة تحرشاً شخصياً، أو نهجاً سياسياً، أو تعليقاً مقصوراً على الأحداث العابرة، فإن المساجد لم تبني لشيء من هذا، وتشريع الخطبة كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣)

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر في آفاق الكون وشئون الناس على نحو ماوضح القرآن الكريم :

﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤)

وتطويل الخطبة غير سائق ولا مشروع، فعن أبي وائل قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست - أطلت! فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منته من فقهه! علامة. فاقصر واطيلوا الصلاة» .

وكانت أكثر خطب رسول الله من القرآن الكريم، ولذلك لم تحفظ عنه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام، إلا على ندرة .. وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت «ما أخذت ق والقرآن المجيد - حفظتها - إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر في كل جمعة» كانت قد شهدتها .. والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام ..



## ٧٣. ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟

المسجد قلب المجتمع الإسلامي، وملتحقى المؤمنين بالغدو والأصال لأداء حقوق الله، واستلهم الرشد، واستمداد العون منه جل شأنه.

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصاً أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين في سكينه وخشوع «للإمام» وهو يشرح لهم تعاليم الإسلام وبين لهم حدود الله، ويفقههم على ما في الكتاب والسنة من عظات وآداب.

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تنساب إلى النفوس من لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه.

ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر..

والإمام الذي يدرس موضوعه: ويجيد عرضه، يقوم بنصيب ضخم في تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادي والأدبي، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد..

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة في المسجد إلى مكانته اللائقة به، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغي أن يتوافر في خطبة الجمعة من زاد روحى وثقافى منظم.

١ - يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، فإن الخطيب الذى يخوض فى أحاديث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل بالسامعين فى أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة، ومهما كانت عبارته بليغة، ومهما كان مسترسلاً متدفقاً فإنه لن ينجح فى تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام.

والوضوح أساس لا بد منه فى التربية، والتعميم والغموض لا ينتهيان بشئ طائل، وخطبة الجمعة ليست درساً نظرياً بقدر ما هى حقيقة تشرح وتغرس.

٢ - عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر فى تسلسل منطقي مقبول كما تسلم درجة السلم إلى ما بعدها دون عناء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء

كلمته كان السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التى يريد بلوغها. وعليه أن ينتقى من النصوص والآثار ما يهد إلى هذه الغاية.

٣ - ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعانى الإسلامية المستمدة من «الكتاب والسنة» وآثار السلف الصالح فإن لجمتها رسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة. وفى آيات القرآن الكريم، ومعالم السنة المطهرة متسع يغنى فى الوعظ والإرشاد. ولذلك لا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية بله الموضوعية.

وإذا كان العلماء قد تجوزوا فى الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك: ألا تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة. وفى الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاضل. وفى سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغنى عن الأساطير والأوهام.

٤ - لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصبا لوجهة نظر إسلامية محدودة.. فإن المسجد يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التى يلتقى عندها الكل دون خوص فى المسائل التى يتفاوت تقديرها. وما أكثر العزائم والفضائل التى تصلح موضوعاً لنصائح جديدة وخطب موفقة.

وقد شقى المسلمون بالفرقة أياماً طويلة وجدير بهم أن يجدوا فى المساجد ما يوحد الصفوف، وينطفى الخصومات.

٥ - بين الخطبة والأحداث العابرة، والملابسات الخيطة، والجماهير السامعة، علاقة لا يمكن تجاهلها وما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد، والناس والزمان والمكان فى واد آخر..

ولأمر ما نزل القرآن متجماً على ثلاث وعشرين سنة، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة.

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه، وأن يتعرف على حقيقته بدقة. فإذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض. وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق، فإن الواعظ القاصر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج، وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة.



## ٧٤. ما الحكمة في قيام الليل؟ وكيف يكون؟

لا بد من تمهيد لهذا الموضوع ، وللموضوع الذى يجيء بعده ، نتحدث فيه عن الأوج الذى رفع محمد صحبه إليه ، وثبتهم - صلوات الله وسلامه عليه - فى ربه! لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة ، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره ، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدوراً ويوسع آفاقاً ، وينقل جيلاً من البشرية الضيقة إلى الرابنية الرحبة المشرقة! ..

إن الجيل الذى ربه محمد كان جيلاً محسناً يعبد الله كأنه يراه ، شجاعاً يركل الدنيا بقدمه ويمضى ثابت الخطا إلى ربه ، كريماً لا يحرص على مال ، بل ما يعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه ، مقيماً للصلاة ينتظم فى صفوفها برغبة وخشوع ، ويحافظ على أوقاتها فى الصحة والمرض والسلم والحرب ..

هذا الجيل تلقى الحق وصانعه وسلمه إلى من بعده فى وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيراً فى تاريخها الطويل !

إن الملائكة لتنظر بإعجاب إلى هؤلاء الأصحاب! بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون ، تنزل عليهم وهم يتعبدون! ما أحسبها - وهى ترقب الأرض من قديم - رأت خيراً منهم ، حاشا أنبياء الله السابقين! ..

من أجل ذلك لم أحس باستغراب عندما قرأت فى الصحاح هذين الخبرين ..  
عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت ، فسكت ! فاستأنف القراءة فجالت ، فسكت فسكت الفرس! ثم قرأ فجالت ، وكان ابنه يحيى قريباً منها فانصرف فأخره - أبعدته عن قوائمها - ثم رفع رأسه إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح! فلما أصبح حدث النبى ﷺ - بما رأى - فقال له : «أوتدرى ما ذاك؟ قال لا .. قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت - تابعت التلاوة - لأصبحت ينظر إليها الناس ما تتوارى منهم! ..»

قلت : ما الغرابة؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الأرض الذين يقومون الليل بالقرآن .

وقد تكررت هذه القصة لغير أسيد ، وسواء استبعدوا الماديون أو قبلوها ، فإن من يتاجى الله بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة ، وقد جاء فى الحديث «ما أذن الله بشيء - أى ما أنصت - أذنه - أى إنصاته - لعبد يقرأ القرآن فى جوف الليل ، وإن البر ليدر على رأس العبد مادام فى مصلاه .. وماتقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه .

قال أبو النضر : يعنى القرآن ، منه بدأ الأمر به ، ولله يرجع الحكم فيه ..  
والناس عادة ينطرحون فى فرشهم يحسبون النوم غيبوبة تتخللها أضغاث الأحلام ، وغرائز الأجهزة الدنيا أو وساوسها! لكن هناك ناساً آخرين رسب فى أعماقهم إجلال الله ، والتوجه إليه ، يشبه نومهم نوم المشوق إلى غائب أو الباحث عن حقيقة! ..

فإذا نابتهم يقظة خلال الرقاد ، اتجهوا إلى الغائب المشوق ، أو الصواب المنشود! ..

صور الحديث الشريف حال هؤلاء فى قوله ﷺ : «من تعار من الليل - أى استيقظ - فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لى ، أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته ..»

شتان بين نائم مغمى عليه ، ما يحركه إلى ربه شيء ، وبين آخر يستجم بنومه ، ويسبح بحمد ربه كلما عاد إليه وعيه! الصنفان موجودان فى الدنيا ، والفارق بينهما شاسع ﴿أَمِنْ هُوَ فَإِنَّ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِذَا الْأَبَابِ﴾ (١) ..

وقيام الليل فريضة على النبى وحده ، إن الإحساس بالله نهر جار فى شعوره لا يتوقف أبداً فى وضوح النهار أو فى جنح الليل لا يرى محمد إلا موصول القلب بالله! ..  
وهو بهذا الذكر الدافق فى حسه ، المستولى على نفسه ينضح على من حوله ، ويصل الأرض بالسماء طهراً وضوءاً ، مستجيباً لقول الله :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿١﴾ .

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه في هذا النهج ، لشدة جبههم له ورغبتهم في تقليده ، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم ، وحط عنهم ما جشعوا به أنفسهم ﴿ إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (٢) .

ذلك بالنسبة إلى الأصحاب ، أما الرسول نفسه فبقى قيام الليل كله من خصائصه ، وقد كان ينبعث إلى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعنت ، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده ، واصطفائه له ، وإلى ذلك يشير عبد الله بن رواحة بقوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا  
إذا انشق مكتون من الفجر ساطع  
به موقنات أن ما قال واقع  
بيت يجافى جنبه عن فراشه  
إذا استقن بالمشركين المضاجع

في الأيام الأولى للبعثة قيل له : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ (٤) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٥﴾ وقد استجاب لأمر الله حتى لحق بالرفيق الأعلى ! ..

أما جمهور الأمة فلم يكلف بذلك ، فليس القيام في حقه فريضة لازمة ، ولا سنة مؤكدة ، وهو نافلة مقبولة من يؤثر فيهم لسهر . ولا يعجزهم عن أداء واجباتهم طوال النهار ! .

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل ، وأمامهم سحر طويل بالنهار ﴿ ... عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (١) .

(١) الإسراء : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الزمل : ٢٠ .

(٣) الزمل : ٢٠ .

(٤) الزمل : ٢٠ .

والواقع أن الجهاد العسكري والاقتصادي يحتاج إلى يقظة ونشاط ، والتفريط في هذا أو ذاك مضيعة للأمة .

ورأيت ناسا يقومون الليل أحيانا ، ثم يجيئون إلى مكاتبتهم ثقالا يترنحون ، فزجرتهم عن هذا المسلك ، وشرحت لهم الحكم ! ومع ذلك فما كانوا يسمعون ! ..  
وقد رويت في الأمر بالقيام أحاديث ضعيفة مثل ما جاء عن بلال أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بقيام الليل ، فإنه داب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ، ومنهارة عن الآثام ، وتكفير للسيئات ، ومطرودة للداء عن الجسد » .

ومع مافى سند الحديث من ضعف ، فإننا نحمله على ماورد في الصحاح مثل حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله » ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم ، ومشى في الظلمة ، واستفتاح للنهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت ، وكذلك الانتظام في جماعة العشاء ، وكانت قديما تتأخر ، حتى تغمض عيون البعض في انتظارها .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : أى حين كان يقوم الرسول ﷺ من الليل ؟ فقالت : إذا سمع الصارخ - تعنى الديك - ! .

وما فهمناه وافق ولله الحمد ما رواه أبو داود عن أنس في تفسير قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾ (١) .

قال : نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة - يعنى العشاء - كانوا ينتقلون بين المغرب والعشاء ..

وزيادة في إيضاح الموضوع نذكر أن الجسد البشري يحتاج إلى ساعات معينة ينام فيها ، ويستعيد قواه ، ويستحيل أن يستغنى عن هذه الساعات التي قدرها الأطباء بشماني ساعات أو أكثر أو أقل حسب الأعمار المختلفة ..

والقرآن الكريم يقر هذه الحاجة الطبيعية ، ويلفت الأنظار إلى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ (٢) . ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٣) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (٤) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (٥) .

(١) السجدة : ١٦ .

(٢) يونس : ٦٧ .

(٣) البنا : ٩ - ١١ .



وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل ، فى ظروف السلم والحرب جميعاً ، فعلى المرء أن يقوم بواجبه ، وسيطاوعه جسمه مع تعويض يرد إليه ما بذل .. وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير ، مع الاكتفاء بنوم قليل ! كما أن هناك من فى أعصابه مدخر من النشاط يستطيع به أن يضم إلى عمل النهار جزءاً من الليل ..

وهنا نؤكد أموراً ، أن اليوم الإسلامى يبدأ مع الفجر ، فكل سهر يضيع صلاة الفجر مرفوض ! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل ، وطول الكدح بالنهار ، وهذه قلة لا يقاس عليها ! ..

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن فى ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لا يساعده على أداء واجب ، هذه معصية ! لقد تلا ألفاظاً لم يتدبرها وأهمل واجبات ترتبط بها حياته وحياة أمته ! ..

وأوغل فى المخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى ، ثم يصبح قليل التفكير لا يحسن شأنه فى دنيا أو دين ! ..

إن عمر بن عبد العزيز سرح فكره فى آية واحدة ظل يرددّها طوال الليل ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ! لأن دقة إحساسه جعلته يتصور - وهو أمير المؤمنين - أنه الموقوف المسئول ، فطار النوم من عينه ! ..

ولو أن قاضياً سهر فى قضية يتحرى الحكم العادل ، أو مجتهد سهر فى موضوع يبحث فيه عن الصواب ، لكان أولى بالله من قارئ لا يعي ، أو قائم نائم الضمير والتفكير .



## ٧٥. كيف ولماذا اختيار الأذان للصلاة؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحي مباشرة؟

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الأذان ، ولا أرى داعياً أقرب إلى الرشد من المؤذن .. إن الكلمات الجهيمة المدوية فى الآفاق ، تذكير بالله وحقوقه ، تذكير بالعمل الذى خلقنا من أجله ، إنها مناشدة لأبناء آدم أن يعرفوا الصراط المستقيم ويثبتوا عليه ، وأن يحذروا السبل المعوجة وينأوا عنها .

عندما يقول المؤذن : «الله أكبر الله أكبر» . ويؤكدّها فكأنه يقول للإنسان : لا تدر حول نفسك واذكر من ربك وسواك ، واجعله غايته من مسعاك ، يبارك لك فى وقتك وجهدك ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾<sup>(١)</sup> .

وعندما يقول : «أشهد أن لا إله إلا الله» ويكررها مرة أخرى ، فكأنه يقول للإنسان : لا تخش الهة أخرى فى الأرض ، الأمور كلها صائرة إليه وحده ، بيت فيها ولا راد لحكمه ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، فانتصب عزيز النفس رفيع الرأس ، واذهب لتسجد لله ، فإنك لن تذلل بعده لأحد !

وعندما يقول : «أشهد أن محمداً رسول الله» ويكررها مرة أخرى ، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الإنسانى لتقتدى به وتقتفى آثاره ، محمد وحده الأسوة الحسنة فى الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة ..

وعندما يقول : «حى على الصلاة» ويكررها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرف بالمثول بين يدي ربك كى تسبح بحمده وتسنزid من رفده وتشترك مع إخوان العقيدة فى التجمع عليه والتحاب فيه ..

وعندما يقول : «حى على الفلاح» ويؤكدّها مرة أخرى فهو يدلك على الجهد المثمر والسعى الناجح ، فما أكثر الذين يزعجون ولا يحصدون ، أو يمشون ولا يصلون ! أما أهل الصلاة فلا يضيعون ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَنَهَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعندما يقول مرة ثالثة : «الله أكبر الله أكبر» فهو يؤكد الغاية الصحيحة من الحياة والكدح طول العمر ، إن المرء يخرج من بيته لعمله ، وليحصل ما يقدر عليه من نفع لنفسه وأهله ، وصيحة التكبير التي يسمعونها تهيب به أن يقصد ربه ، ويجعل له عمله ، وعندما يقدم نفسه لربه فيسجد لها مرفوعة مقدورة ، أما من أثر نفسه ، فيسقطها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

ويختتم الأذان بصيحة التوحيد ، لإسقاط الوثنيات كلها ، إن العالم الآن لا ينحني لصنم من حجر ، ولكنه يتفانى في أصنام حية قامت شواخص مهيبة في دنيا الحكم والمال ، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب .

إن كلمات الأذان منهج كامل ، ودعوة نامة ، ما يمكن أن يغنى عنها بريق نار ، ولا رنين جرس ، ولا صفير بوق .. إنها هتاف من الملأ الأعلى ، يهيب بالبشر أن يرجعوا إلى أصلهم السماوي العريق .

هذه الكلمات نزلت من السماء ولم تخرج من الأرض ، استمع إليها نفر من الصحابة في رؤى متقاربة ، وأحد الملائكة الكرام يهتف بها ، في أعقاب مؤثر تباحث فيه الصحابة مع الرسول ﷺ حول أمثل الطرق للدعوة إلى الصلاة ! والحديث هنا يعود بنا إلى الإجابة السابقة ، وكيف كانت الملائكة تدنو من الأرض تستمع الذكر من تاليه وهو يناجي به ربه ، وتعود بنا إلى الأثر الروحي لحمد في أصحابه ..

إن صحابيا أنكر نفسه لما أحس الفرق الشاسع بين حالته مع رسول الله وحالته بعد أن يخالط الأهل ويكابد هموم الرزق ، وظن أنه نافق بهذا التفاوت حيث إنه مع رسول الله ﷺ يكون منير القلب ، يتقلب في مقام الإحسان ، وكأنه يشهد ربه ويحس جلاله ! حتى إذا رجع إلى البيت والشارع والأهل والناس هبط ، واعتكر !! ..

قال له الرسول : «لوبيقتم على حالتكم مع لصافحتكم الملائكة ! ولكن ساعة وساعة» .

وكثير من الصحابة كان يستديم ساعات الإشراق التي تجتمع به بصاحب الرسالة العظمى ، ويغالب إلى أمد طويل كثافة الطبع ، ومشاكل العيش ، وظلال الخلق ! ..

جاء في السنة عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم رسول الله ﷺ بالصلاة : كيف يجمع الناس لها ؟ فقليل له : انصب راية عند حضور الصلاة ! فإذا رآوها أذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ! ..

فذكر له شبور اليهود - البوق الذي ينفخون فيه للإعلام بصلاتهم - فلم يعجبه ذلك وقال : هذا من أمر اليهود ! فذكر له الناقوس ، فقال : هذا من أمر النصارى ! .. فانصرف عبد الله بن زيد الأنصارى ، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ ، فأرى الأذان في منامه .

وفي تفصيل آخر يذكر الراوى أن رجلاً من الأنصار جاء فقال : يا رسول الله ، إنى لما رجعت - إلى بيتى - لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلاً كان عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلاً ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة ! .. ولولا أن يقول الناس لقلت : إنى كنت يقظان غير نائم ! .. فقال رسول الله : لقد أراك الله خيراً ، فمر بلالا فليؤذن ! .

فقال عمر بن الخطاب : أما أنى قد رأيت مثل الذى رأى ، ولكنى لما سبقت استحيت ، وقال فيه فاستقبل - الملك الذى رآه عمر - القبلة وقال : الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين ، حتى على الصلاة مرتين ، حتى على الفلاح مرتين الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قام فقال مثلاً ، إلا أنه زاد بعد ما قال حتى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لقنها بلالاً فأذن بها بلال .

وكان بلال ندى الصوت ، عذب الأداء ، وتتفاوت الروايات تفاوتاً قليلاً في عدد الألفاظ مع اتفاقها جميعاً في أصل القصة ومصدر التلقى ..

وعندما أتجرد من التأثير بكل ما يروى ، أرانى أميل إلى سماع الأذان ومتابعة كلماته الهادية ، فإنى أحب أن أقاد من عقلى لا من أذنى ! إن الأذان يوقظ فؤادى ، ويعرفنى بربى على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة .

ومن ثم استحسب الشارع لسامعى الأذان أن يرددوا كلماته ، ويغرسوها في مشاعرهم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ ، فقام بلال ينادى - للصلاة - فلما سكت قال رسول الله : «من قال مثل هذا يقيناً دخل الجنة» وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، غفر له ذنبه» .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إجلت له شفاعتى» .

والمرء عندما يتأمل فى كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية ،  
ووصفاً لله قائماً على الحق المطلق ، الحق الذى لا يتغير بين مشرق ومغرب! ..

ماذا وراء تكبير الله وتوحيده والدعاء الدائب لعبادته ؟ .

إن هذا للدعاء ينتقل على سطح الأرض ، عابراً خطوط الطول فوق البر والبحر .  
مصاحباً الأرض فى دورانها حول أمها الشمس «ووظيفة محمد العظمى تلبية الأمر  
الصادر إليه» ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ  
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (١) .

إن الكون كله لا الأرض وحدها يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهى تهيب بالبشر  
أن يهرعوا لرضا الله! ..

وليس بغريب أن يطلب من سامعى الأذان - وصداه لا يزال يرن فى أذانهم - أن  
يدعوا للإنسان العظيم الذى يقودهم إلى الله ، ويؤمهم على الصراط المستقيم! إنه  
والله جدير بالدعاء المستدج أن يرفع الله درجته ، ويجزيه عن المسلمين خيراً ..

على أن رؤى البشر مهما صلت حالهم لا تكون مصدر وحى ، ولا دليل ، ولولا  
أن رؤيا الأذان أقرها النبى ﷺ ووافق على العمل بها ، ما التزم العمل بها أحداً .

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قد نجحت فى تكوين  
جيل نقى الصفحة زكى السريرة يلتقى بالملأ الأعلى ، فيسمع منهم وينقل عنهم ،  
وقد قلنا فى إجابة سابقة : إن الملائكة تنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهيهم  
الرشد ، وتساند على الحق ، وتقذف فى قلوبهم بالبشريات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ  
ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (٢) .

لكن باب الأوهام والمزاعم لا بد من سده فما يقبل كلام عن عالم الغيب إلا من  
المعصوم وحده! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة ، لا منبع لها إلا الكتاب والسنة .

وقد ظهر فى عصرنا هذا فلاحون اقتحموا ميدان الدين وزعموا أن وحياً  
يجيئهم ، وخير علاج لهم أن يقادوا إلى تبليغه فى مستشفيات الأمراض العقلية ..

(٢) فصلت : ٣٠ .

(١) طه : ١٣٠ .

## ٧٦. ما حقيقة الصوم وما حكمته؟

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة فى جو الحضارة المادية التى تسود العالم . إنها  
حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح ، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكثر باليوم  
الآخر! ومن ثم فهى تكره عبادة تقيد الشهوات ولو إلى حين ، وتؤدب هذا البدن  
المدلل وتلزمه مثلاً أعلى ..

إن الأفراد والجماعات فى العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثيف الدخل .. ورفع  
مستوى المعيشة ولا يعينها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزكى! ..

ونسارع إلى تبرئة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ، فالغنى سر العافية  
والجسم القوى نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالأعباء ، وإنما تتساءل : هل  
يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها؟

يقول علماء التغذية : إن للطعام وظيفتين : الأولى إمداد الجسم بالحرارة التى  
تعينه على الحركة والتقلب على ظهر الأرض ، والآخرى تجديد مايستهلك من  
خلاياه وإقداره على النمو فى مراحل الطفولة والشباب .

حسنًا ، هل نأكل لسد هاتين الحاجتين وحسب؟ إن أولئك العلماء يقولون :  
يحتاج الجسم إلى مقدار كذا من «السعر الحرارى» كى يعيش ..

الطعام وقود لا بد منه للآلة البشرية ، والفرق بين الآلات المصنوعة والإنسان  
الحى واضح .. فخزان السيارة مصنع من الصلب ليسع مقداراً معيناً من النفط  
يستحيل أن يزيد عليه ، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ  
يسع أضعاف ما يحتاج المرء إليه! ..

وخزان السيارة يمدد بالوقود إلى آخر قطرة فيه ، إلى أن يجيء مدد آخر ..

أما المعدة فهى تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف  
الوزن ، وذلك ما تعجز السيارة عنه ، إنها لا تقدر على أخذ «فائض» ولو افترضنا فإنها  
لا تقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات  
الأربعة فتسمن!! ..

الإنسان كائن عجيب ، يتطلع أبداً إلى أكثر مما يكفي ، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجاً أن تكون بدانة في جسمه ، فذاك عنده أفضل من أن تكون غناء في جسد طفل فقير ، أو وقوداً في جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق!!  
كان لي صديق يكثر من التدخين ، نظرت له يوماً في أسف ، ثم سمعني وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال رحمه الله فقد أدركته الوفاة (اللهم لا تستجب ولا تحرمني من لذة «السيجارة»)..

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لساني دهشة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة .. إنها الرغبة القاتلة!! ..

على أن النفس التي تشتهي ما يؤذي يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديماً :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهنا يجيء أدب الصيام! إنه يرد النفس إلى القليل الكافي ، ويصدها عن الكثير المؤذي! ..

ذاك يوم نصوم حقاً ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!! ..

لعل أهم ثمرات الصوم إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما ..

كنت أرمق النبي ﷺ وهو يسأل أهل بيته في الصباح : «أتم ما يفطر به؟» فيقال : لا ! فينوي الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئاً لم يحدث ..

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة وبيت في القضايا ، وليس في صفاء نفسه غيمة واحدة! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة ، ولسان حاله ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) ..

قلت : لو جاءني فطوري دون شاي لسخطت!! ولرفضت إمضاء ورقة على مكتبتي ، بل كتابة مقال!! ..

(١) الشرح : ٦٠٥ .

إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد ، باسم الشجر ، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو - شاءت! .

وأعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتوح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها ، أو قلة العادات التي تعجز عن العمل إن لم تتواتر .

يضع الواحد منهم تمرات في جيبه وينطلق إلى الميدان ، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم ، وإلا توقفوا ..

وقد اعتمد غاندى على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى .. كان الإنتاج البريطانى يعتمد على الاستهلاك الهندى .. وقرر غاندى أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء ، نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات «مانشستر» نأكل الطعام بدون الملح مادامت الدولة تحتكره ، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم ..

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع ، ينتقل بين المدن والقرى مكتفياً بكوب من اللبن ..

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد ، وشرعت تسير وراءه فإذا الإنتاج الإنكليزى يتوقف ، والمصانع تتعطل ، وألوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة .. واضطرت الحكومة إلى أن تطلب من «غاندى» المجيء إلى لندن كي يتفاوض معها ، أو يملئ شروطه عليها!! ..

وحياه أحمد شوقى وهو ذاهب إلى لندن بقصيدته التي يقول فيها محذراً من الأعياب الساسة ..

وقل هاتوا أفاعيكم أتى الحاسوى من الهند ..

إن الإنسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة ، والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر ، فهل نعقل؟؟ ..

فى صيام غاندى وأثر سياسته على إنجلترا ، وظفّر باستقلال الهند يقول الشاعر القروى سليم خورى :

لقد صام هندي فجوع دولة ..

وما صار علجاصوم مليون مسلم

تجشّم عن أوطانه صوم عامد

مجشّم أوطان العدا صوم مرغم!



وخلصى بلاد الظالمين بلاده

تضيق بجيش العاطلين العرمم

والقى على «ماتشيستر» ظل رهبة

تضج بأشباح الشقاء المخيم..

أهاب بآلات الحديد فـعطلت

مصانع كانت جنة المتنعم..

وشل ذواليب الرخاء بصرخة

أدارت ذواليب النـظـماء المحـتم

كـاهـانـسيـج العنكبوت وكم كـت

جـوـم البرايا بالقشيب المنمم

تهدمها أسرار نفس عجيبة

تجـوـل بـذلك الهـيكل المتـهـدم

فـيـالك من عـار، لـديـه تصـاغـرت

جـبـابـر ابدان، وعـقل ودرهم!!

وراحت ملوك المال تشكو بـبابه

من الظلم، بالظالم المتظلم!!

وفي عيد الفطر يقول رشيد سليم خوري أيضاً :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر يتيه بآيات النـبى المعظم

ولكن أصبو إلى عيد أمة محررة الأعناق من رق أعجم

أحفظ للشيخ الكبير «محمد الخضر حسين» شيخ الأزهر الأسبق كلمة عظيمة :

«لست أنا الذى يهدد ، إن كوبا من اللبن يكفينى أربعاً وعشرين ساعة! ..

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذروه من غضب جهات عالية :

«أجمعنى ذاك من التردد بين بيتى والمسجد؟ قالوا : لا .. قال : لا خطر إذن! ليس

هناك ما يخاف» ..

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا فى أضيق نطاق مستطاع .. إنه  
يعنى عدوه بذلك الاستغفاف أو الاستغناء .

وذلك نهج الشرف الذى خطه على بن أبى طالب عندما قال : «استغن عمن  
شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره» .. وما يستقيم على هذا  
النهج إلا امرؤ يحسن الصيام .

أعجبتنى هذه الوصية لأبى عثمان النورى لابنه ، وأثبتها الجاحظ ، وليس لى فى  
كتابها إلا فضل النقل .. «يابنى كل ممايليك ، واعلم أنه إذا كان فى الطعام لقمة كريمة  
أو شيء مستطرف فإتما ذلك للشيخ المعظم أو الصبي المدلل ، ولست واحدا منهما .

يابنى عود نفسك مجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تهش نهش السباع ، ولا تخضم  
خضم البغال ، ولا تلقم لقم الجمال ، الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ،  
واعلم أن الشيع داعية البشم ، والبشم داعية السقم ، والسقم داعية الموت .

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لثيمة ، لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألام  
من قاتل غيره ..

يابنى والله ما أدى حق الركوع والسجود تمتلى قط! ولا خشع لله ذو بطنة ،  
والصوم مصحة ، والوجبات عيش الصالحين .

يابنى قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت  
ذنين أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد ..  
فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فذلك سبيل  
الموت ، ولا أبعد الله غيرك» ..

هذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسد التى نهاوى فيها أبناء هذا العصر ، والتى  
جاء فيها قوله تعالى :

﴿ ذَرِهِمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (٢)

## ٢٧. في المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباعدة أو متناقضة! فلم هذا؟

أعترف بأن الملاحظة صادقة ، وأشعر بأن بقاء هذا الوضع يعوق الدعوة ويحرج الدعاة! وسأذكر هنا ما أراه باعثاً على هذا الاضطراب ، حتى يمكن تجاوزه ..

إن الإسلام صراط مستقيم وقد خرجت من هذا الصراط طرق شتى تميل يميناً أو يسرة! وكان اعوجاجها بارزاً كذلك في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وكان بارزاً كذلك في النواحي المدنية والحضارية .. وقد خيل إليّ أن الصراط المستقيم خلا من أهله في العصر الأخير ، وتزاحمت القوافل الشاردة في مسالكها التي انطلقت فيها ، ومن هنا استوحش الحق ، وأصابه ضرر شديد ..

وسأختار نموذجين لهذا الشرود ، ولنتائج في عالم المعرفة والتوجيه ..

يعرف الإسلام أمير المؤمنين على أنه وليد بيعة حرة ، أو اختيار صحيح ينتجه فيه الناس إلى انتخاب أكفأ إنسان لقيادتهم ، ويعرف القائد المنتخب أن الحكم أمانة ومسئولية جسيمة ، وأنه تكليف لا مغنم ، وأن عليه الاستعانة بأهل الشورى في تعرف الصواب وتحديد الأرشد ، وأنه ليس بمعصوم ولا مستغن بنفسه بل يحتاج إلى مظاهرة الأقوياء والانتفاع بشئى الآراء ، وأنه إذا أخطأ وجب تقويمه ، وإذا عجز ترك للأمة أن تختار غيره فليست الرئاسة حقاً شخصياً له أو لغيره ..

هذه مسلمات في أصول الحكم كما يعرفها الإسلام ، وهذا هو الصراط المستقيم . لكن خط الانحراف الذى بدأ من عهد مبكر ، جعل الخلافة اغتصاباً وميراثاً ، وجعل الحصول عليها مغنماً لا مغرمًا ، وتنوسيت أجهزة الشورى حتى لكأنها وهم أو أسطورة ، واقترب من الحاكم أهل الملقى وابتعد رجال الحق ، أو أبعدوا ، واعتبروا النقد الصحيح فتنة أو خروجاً ، واعتبرت المداينة طاعة وولاء!

من حقى أن أصف الثقافة التى تنظر إلى الصراط المستقيم وهى تتحدث عن الإسلام - بأنها الثقافة الأصلية ، كما أن من حقى أن أصف الثقافة التى قبلت الواقع وبنيت عليه وأفتنت به ثقافة خط الانحراف! ..

وتحتاج الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون؟ إنهم يصبرون مرغمين أو يصومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق .. وشريعة الصوم شئ فوق هذا ، إنها حرمان الواحد ، ابتغاء ما عند الله . إنها تحمل للمرء منه مندوحة - لو شاء - ولكنه يخرس صياح بطنه ، ويرجى إجابة رغبته ، مدخراً صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضا فى يوم عصيب .. ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (١) .

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناء النبى ﷺ فى قوله : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »! ..

إن كلمتى «إيماناً واحتساباً» تعنيان جهداً لا يستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه ، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه .. نازلاً عند قوله :

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً ﴾ (٢) .

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة ، إذا اشتبهوا طعاماً أكلوا ، وإذا شاقهم شراب أكرعوا .. ماذا يجدون يوم اللقاء؟ ..

إنهم يجدون أصحاب المدخرات فى أفق آخر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحدثنا القرآن الكريم عن أنصاعوا مستقبلهم فيقول : ﴿ وَتَادِى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (٤) .

إن الصيام عبادة مضادة لتيار الحياة الآن ، لأن الفلسفات المادية المسيطرة فى الشرق والغرب ، تعرف الأرض ولا تعرف السماء ، تعرف الجسم ولا تعرف الروح ، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة ..

ليكن للقوم ما أرادوا ، ذلك مبلغهم من العلم! .. بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا ، وأن نلزم صراطه ، وأن نصوم له ، وأن ندخر عنده! .

على أن هناك حقيقة مؤسفة هى أن الصوم قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرون! ..

(٢) انبأ : ٢٩ .

(١) هود : ١٠٣ .

(٣) الأعراف : ٥١ ، ٥٠ .

التوجيهات القرآنية والنبوية وتطبيقات سلفنا الصالح هي الثقافة الأصلية ، أما الواقع الذى رسمه الملوك . ونضجت به طبيعة جنس من الأجناس ، فهو علم متأثر بخط الانحراف .

وهذا العلم لا يفرضه على الإسلام عاقل ، مهما حاول أهله إعطاء الصيغة الإسلامية ، فالقول بأن الشورى لاتلزم الحاكم ، والقول بأن الانتخاب بدعة ، والزعم بأن نقد الحاكم نقض للبيعة ، وأن على الجمهور أن يصبر على غضب المال ، وضرب السياط .. إلخ ، كل ذلك من وحي خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم .

والعرب جنس له محامده ومعاييه ، ومن معائب العرب العصبية للأسرة ، والتعالى بالنسب ، وحب السلطة والحرص على الإمارة! وقد جعلوا منصب الخلافة يحمل معالم شيخ القبيلة ، الذى يقول فيسمع وبأمر فيطاع! ..

وأرى أن هذه الخصال السيئة فى طلب الحكم ، والتصدير بالدعوى أساءت قديماً للإسلام وتسىء يومنا هذا للعرب .

والفقهاء الناصحون ، لله ورسوله ، يفصلون بين طبيعة جاهلية فرضت نفسها ، ودين قوم يجب أن يسود .

وقد ألف عبد الرحمن الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد» لينصف الإسلام من حكموا باسمه وكذبوا عليه ، وفيه يقول : «المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الألف المؤلفة ، يسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به! والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل ولا تتملق! وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه! هل خلقت خادمة له؟ . أو هى جاءت به ليعلمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له : لا أريد الشرا ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجزؤ على ظلمه» (١) .

ومن الحكام من يحاول استجلاب صورة للشورى بها شبه من «ديمقراطية» الغرب! شبه التمثال الميت بالجسد الحى ، قال الشيخ محمد عبده فى وصفها :

(١) الإصلاح لأحمد أمين .

«لو حدث أن إنساناً عرض وجهة نظر غير مايرى الحاكم لتعرض للتلغف ، فإن أمام كل لفظ يقوله نفيًا عن الوطن أو إزهاقًا للروح أو تجريدًا من المال!»

والواقع أن المستبدين فى كثير من الأقطار الإسلامية برعوا فى تزوير الشورى ، عندما أجاتهم الظروف إلى مجالسها ، حتى أمست الجماهير بين استبداد صريح أو استبداد منافق !!

إن حقوق الإنسان وحقوق الشعوب هى الوجه المقابل فى ديننا لعقيدة التوحيد ، وأحسب أن سدة الوثنية السياسية لا يقلون شرًا ولا أذى عن سدة الأصنام .

وهؤلاء للأسف يجيدون تحريف الكلم عن مواضعه وتطويع النصوص لخدمة السلاطين ..

وهناك نموذج آخر لطغيان التقاليد الموروثة على تعاليم الإسلام! ..

كان العرب فى جاهليتهم يكرهون الأنثى ويتشاءمون لولدها ، وقد اشتطت بهم هذه الكراهية حتى حملتهم على افتراء جريمة لم تعرف فى جنس آخر ، جريمة وأد البنات ، ولست أدري : أذلك خشية العار كما يزعمون! أم هو إحياء دينى ضال؟ كما يفهم من الآية الكريمة :

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُردُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ (١)

ليكن هذا أو ذاك ، لقد جاء الإسلام فبدل الأحوال ، وكرم الأنثى وأوصى بالبشاشة عند مولدها ، ورعاها طفلة وفتاة وأماً .. وأعطاهما فى المجتمع حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى العبادة حق التردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وفى التعليم ما تكمل به إنسانيتها فلم يقصرها على نصيب محدود! ..

وكان أن علا شأن المرأة ، قبايعت ، وجاهدت ، وحققت لنفسها ما يشرف نوعها ، وظفرت المسلمة بما نظفر به امرأة أخرى! ..

ثم غلبت تقاليد الجاهلية العربية شيئًا فشيئًا حتى أقبل العصر الحاضر ، والمرأة محظورة عليها أن تدخل مسجدًا (!) فى أغلب العواصم - خصوصًا المحافظة - أما حق التعليم فإنه لولا الحضارة الحديثة ما دخلت أنثى مدرسة ولا انتمت طالبة إلى جامعة ، كأن تجهيلها فرض محتوم! ..

(١) الأنعام : ١٣٧ .

وانكشمت إنسانية المرأة حتى كاد ميراثها يجتاح كله ، وحتى أصبح إذنهما في عقد الزواج شكلا لا حقيقة له ، وإذا اقترفت فاحشة قتلت ونجا الطرف الآخر .. والقاعدة العامة أنها لا ترى أحدا ولا يراها أحد ، وخط الانحراف في هذه المسألة أساء ولا يزال يسىء إلى الإسلام ، ويضع العوائق أمام دعوته! ..

هذا لون من العلم الذى أشاعه خط الانحراف فى تاريخنا وثقافتنا ، وهو علم لا يعنى بعض المتدينين غيره! إذا وجدوا فى الميدان السياسى أنه لا شورى ، ولا أجهزة لها ، ولا ضوابط للحكم الفردى ، نسوا النصوص المهمة ، وأخذوا صورة الإسلام من الواقع السيئ ..

وإذا وجدوا أن المرأة كم مهملة ، وأنه لا مكان لها فى مدرسة أو مسجد ، وأنه لا يجوز أن ترى أحداً أو يراها أحد ، تجاوزوا القرآن والسنة ، وحكموا على المرأة بالإعدام الأدبى! .

وقد رأيت هؤلاء يحتلقون الأحاديث ، أو يقولون الضعيف منها أو يهملون الصحيح لتغير الزمان ، ويحدث هذا كله فى وقت تعمل فيه المبشرات من كل ملة على تنصير المسلمين ، بل إن المجندات فى الجيش اليهودى يسبقن الرجال عندنا فى صناعات الموت<sup>(١)</sup> .

إننا نحذر الأمة من العلم الدينى المغشوش ومن فتانين يهدمون الحق ، على حين يبنى غيرهم الباطل ..



(١) وزع كتاب عن ضرورة ضرب النقاب على وجه المرأة المسلمة كى يتم إيمانها ويكمل دينها ومن بين ما قال مؤلفه : «حرم الإسلام الرضى ، وكشف الوجه طريق إليه ، فما أدى إلى الخرام حرام» . ونعجب نحن لهذا الاستدلال ، فإن الإسلام أوجب كشف الوجه فى الحج والعمرة ، وجعله الأساس عند أداء الصلوات كلها ، فهل كان الإسلام بهذا الكشف يمهّد للفاحشة؟ ومن أغرب ما قرأت تعليق المؤلف على حديث المرأة اختفمية التى رآها النبى ﷺ مكشوفة الوجه ، فلم يأمرها بتغطيته ، قال : لعل النبى أمرها بالنقاب .. فلم لم ينقل الرواة لنا ذلك؟! ..

## ٧٨. ما موقف الإسلام من اختلاط الجنسين؟

إذا ذكر الاختلاط ارتسمت فى ذهن الصورة الدميعة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت فى الغرب ، والحق أن هذه العلاقات سيئة ، وأن وضع المرأة هناك لا يرتضيه دين! ..

إن التبرج ، وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية ، وكأن سرور المرأة لا يتم إلا إذا أثارَت الانتباه ولفتت إليها الأنظار! ..

ثم حشرت النساء فى أعمال شتى تيسر فيها الخلوة ، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون! بل إن الحضارة الغربية فى إباحتها للرقص ، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة ، أرخصت قيمة الأسرة ، وجعلت الزواج محدود الأثر فى حماية الأعراض ، وقصر كلا الزوجين على صاحبه! ..

وقد تساءل عن مكانة الدين فى هذه الجاهلية السائدة؟ إن اليهودية مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب ، والنصرانية مشغولة بالحملات الصليبية على بلاد الإسلام ، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة! ..

أما حقيقة التدين بالنسبة إلى الجماهير فلا تعدو أيام العطلة والأعياد السنوية .. وإن كان هناك من بقى على تدينه ، وواءم بين ما يعرف وما يرى! ..

إن الحضارة البشرية السائدة فى العالم اعتبرت اللذات الجسدية حقوقاً طبيعية ، ولم تر فى الاعتراف بها ما ينافى الأخلاق ، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العملية ، من مدنية وعسكرية ، وسبقت سبقاً بعيداً ..

أما الأمة الإسلامية فإنها لم تسر مع فطرة الإسلام المقررة ، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية واجتماعية صعبة ، وأنشأت تقاليد صارمة فى إمكان رؤية كلا الجنسين للآخر! ..

وعند التأمل نجد هذه التقاليد مبنية على الرياء ، والجهل ، والكبرياء المزعومة لبعض الأعراق ، ثم دعوى التدين! ..



وعندى أن تقاليد الغرب إذا وصفت بأنها لاشرف لها ، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها ، الأولى فاضحة والأخرى فادحة وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك ، كثيرة ومتشابهة! ..

فلننظر إلى تقاليد الإسلام كما تعرف من مصادره ، ومن تطبيقات سلفه الأول! ..

لا كما يزعمها أشخاص درسوا خط الانحراف ، ورأوا أن يثدوا المرأة معنوا إذا كان أبائهم قد وأدوها مادياً ..

المرأة في الإسلام تقدر على التردد خمس مرات كل يوم بين بيتها والمسجد ، ومتروك لضميرها ألا يكون ذلك على حساب خدمتها لزوجها وولدها ، ومتروك لرب البيت المؤمن ألا يمنعها من ذلك مادامت قد أدت واجبها نحو بيتها .

وفي المسجد لا يختلط الحابل بالنابل ، فلرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن! والنساء سواقر أى مستورات الأجسام ماعدا الوجه والكفين ، هل يسمى هذا اختلاطاً؟ .. إن الرؤية ممكنة في المسجد ، وفي أثناء التردد عليه! لكن أى رؤية؟ مع غض البصر! وأدب النفس ، فإذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعاود النظر لئتملى ، فذلك مرفوض ، له النظرة الأولى وليس له الثانية! .

إن هذه الرؤية العابرة من أحد الجنسين للآخر لاشيء فيها شرعاً ، وإن جادل المجادلون! ..

والشارع الإسلامى تسير فيه المرأة محتشمة على ما وصفنا تذهب إلى السوق ، أو المدرسة أو إلى المسجد دون حرج!

ولنفرض أن رجلاً مر يجمع من النسوة فلقى عليهن السلام ، إنه لم يرتكب إثماً فقد صح عن أسماء بنت يزيد قالت : مر علينا رسول الله ﷺ فى نسوة ، فلم علينا ، وفى رواية للترمذى فانوى يده بالتسليم! ..

وقد خرجت صحابيات مع الجيش - فى نطاق الاحتشام الذى وصفنا - وكن يطهين الطعام ، ويمرضن الجرحى ، وينقلن الموتى ، وكافأهن الرسول ﷺ ببعض الهدايا ..

ووقفت ملياً عند حديث رواه البخارى ، أضعه بين أيدي المؤمنين ليروا فيه بعض معالم المجتمع الأول ، عن أبى جحيفة رضي الله عنه قال : أخى رسول الله بعض [بين سلمان وأبى الدرداء] رضى الله عنهما ، فزار سلمان أبى الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة . أى رأى ثيابها رديئة الهينة . فقال : ما شأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا!! ..

فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعاماً ، وقال له : كل .. فقال : إني صائم! فقال سلمان : ما أنا بأكل حتى تأكل ، فأكل! .. وترك صومه . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم .. قال له سلمان : تم! فنام ..

فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : صدق سلمان .

قلت فى نفسى : إن البيئة التى يصنعها خط الانحراف ترى فى سؤال سلمان لأم الدرداء جريمة ، وترى فى إجابة أم الدرداء جريمة أشد ، وربما عاجلت هذا بضرب تزهق فيه الروح أو يترك عاهة مستديمة! .

ولا أدرى كيف يتم الزواج فى هذه المجتمعات المغلقة؟ يكاد يكون نوعاً من المقامرة! ومن أجل ذلك عرف العرب فى عواصم أوروبا وأمريكا بالسعار الجنسى ، وغلقت بيوت لا تحصى على آلاف العوانس! والسبب فى ذلك تقاليد قرضها العرب من عند أنفسهم على المسلمين ما أنزل الله بها من سلطان .

لا أصف المجتمع المسلم بأنه مغلق أو منفتح ، إنه مجتمع طبيعى تحكمه تعاليم الفطرة السليمة وحدها ..

المجتمع المغلق يرتاب فى حركات المرأة كلها ، ويفسرهما بابتغاء الشر ، أو يخشى عليها ذلك ، ومن ثم فهو يحرم المباح ويضع السدود ، ويتناول النصوص بالتأويل ، أو يقوى الضعيف منها ويضعف القوى ، وينتهى بحوش شخصية المرأة .

والمجتمع المنفتح يضع عنان المرأة فى يدها ، ويحرض الذئاب على نهشها ، ويستغل اعترافه بشخصيتها كى يستغل ضعفها فى مباله ..





ونتساءل : ما الجدوى آخر الأمر؟ إنه بدل أن يكون التعداد (٥٠ مليون) كسلان سيكون (٤٥ مليوناً) فقط! أبهذا تنهض الأمم؟ أو تحل العضلات الاجتماعية؟ ..  
ونلقى نظرة أوسع على العالم أجمع ، أصبح أن خيرات الأرض دون إعداد البشر التي تنمو باطراد؟ ..

الذي نراه أن جهوداً هائلة في الإنتاج الزراعي والصناعي تجمد عمداً في أسلحة الدمار الشامل! إن الله لم يقتل البشر بتقليل رزقه وإجاعة خلقه ، ولكن البشر يظالمون وينتحرون بالآثرة والعدوان ..

والمسلمون يحملون وزراً مضاعفاً في تلك الفوضى ، لأنهم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجحدونها ، وهوانهم الإنساني أزرى برسالتهم وزهد الآخرين فيها! ولو هبطوا إلى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك! وأثبت هنا هذه الكلمة في العدد ١٥٦٠ من صحيفة «الشرق الأوسط» في عمود «أسود وأبيض» كتب الأستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطورها حضارياً وصناعياً ، وكيف أضحت طليعة زاهية في العالم الأول ، وكيف أن أمريكا وأوروبا معا تخشيانها ، وترهبان منافستها لهما! ..

وعزا الكاتب سر هذا الارتقاء إلى الأم اليابانية ، فهي التي تغرس في أولادها خصائص التفوق ، والإصرار على النجاح ، وفضائل الصدق والإخلاص وحب الوطن ... إلخ .

والواقع أنني أحسست بالأسى لأن الأم الإسلامية لا تعي شيئاً من هذا كله ، لقد كتب عليها باسم الإسلام المفترى عليه ألا ترى أحداً وألا يراها أحد ، ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مسجداً أكثر من عشرة قرون! ومنعت منعاً باتاً أن تدخل مدرسة أو تتلقى علماً في معهد خاص أو عام ، كأن تجهلها دين ، حتى قيل : لولا الحضارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتدائية!!  
وأحزنتني أن يسأل الإسلام عن هذا الهوان!! .

ثم قرأت بعد ذلك تعليقاً للسيد الزبير محمد نور سليمان يؤيد فيه تعاون الجنسين في اليابان على النهوض بمستويات الأمة كلها ، ويؤكد عظمة انتصيص الذي تسهم به «الأم»! مما يذكر بقول حافظ إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها . أعددت شعباً طيب الأعراق!

قال السيد الزبير : هذا الحديث ذكرني بأشياء شاهدتها وعشتها في اليابان . ساقبتني الظروف إلى هناك على ظهر سفينة يونانية ، كنت ضمن بحارتها كانت السفينة محملة بقول صويا .. من ميناء نيو أورليانز بأمريكا إلى ميناء يوكوهاما والباقي في ميناء آخر في اليابان نفسها .. عملية التفريغ تتم دائماً لمثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشفط الحبوب بواسطة الضغط إلى صومعة الغلال مباشرة .. أسرع طريقة أشاهدها .. أي في غضون خمسة أيام تفرغ سفينة حمولة قدرها ثمانون ألف طن .. هذا غير الذي شاهدته في ميناء الإسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ حمولة بنفس القدر من القمح بواسطة الجوالات .. نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل الماء طعاماً للسماك ، والنصف الآخر تحملها تrolleys إلى داخل البلد ، والقمح يصب من الجوالات المهترئة على الأرض .. في شريط ليس له نهاية ..

إن هذه الظاهرة هي التي رأيتها في الإسكندرية وللأسف الشديد نعود إلى اليابان ، بعد أن تم تفريغ الشحنة في يوكوهاما بدأنا نستعد لمغادرة الميناء ، ولكن قبل المغادرة كان يجب تسوية أكوام فول الصويا داخل العنابر ، كي لا تميل السفينة وتعرض لخطر الغرق .. إذا كان لزاماً على المسؤولين في الميناء القيام بهذه المهمة .. بعد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء عجائز يهرعن إلى السفينة وهن يحملن معدات العمل من حبال ، ومجارف وجوالات ، أقول نساء عجائز غير أصغرهن يقارب الستين عاماً .. عمر جدتي بادئ ذي بدء لم أصدق ، قلت : ربما جشن لمساعدة العمال في أشياء خفيفة .. ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن العمل بهمة لا تعرف الكلل .. وأي عمل .. عمل شاق يصعب على الرجال الأشداء .. أنا كبحار ورجل عندما أنزل في هذه العنابر على السلالم الحديدية ، العارية من أي مكان ، أشعر بالدوار والرهبة ؛ لأن عمق العنبر نحو خمسة عشر متراً ، وطوله أكثر من خمسين متراً كله مبنية من الحديد .. رأيت النساء ينزلن ويصعدن هذه السلالم في دقائق معدودات .. تعجبت من هذه الأمة .. قلت إذا كانت نساؤهم يعملن هكذا ، فكيف يعمل الرجال إنهن يحققن



المعجزات التي لا تخطر على بال .. فلا عجب إذا رأيت اليابان في هذا العلو الشاهق من العلم ، والتطور ، والتكنولوجيا والصناعات التي أذهلت أوروبا وأمريكا .. إننى أسجل هذه القصة لأنها تشير إلى عمل ما تقوم به بعض النسوة! وإن كنت أتردد - ولعل ذلك من آثار التربية ، وطبائع البيئة - فى اختيار هذا العمل لعجائزنا ..

بل إننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع «موسكو» ليلاً ، وعافت نفسى إسناد هذه المهن لهن عندنا ! ..

إن كل الذى أريده تنفيذ تعليمات الرسول ﷺ فى أن النساء شقائق الرجال ، وتنفيذ الحقيقة القرآنية .. ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (١) .

أما هذا الحق لشخصية المرأة ، وعدها للمهام الجسدية وحدها ، فذاك عوج أعتقد أن تقاليد الصحراء هى المسئولة عنه ، لا تعاليم الإسلام ، ومن الظلم أن يؤاخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم التى دخلت فيه . على هذه الأمة أن تنقاد لتعاليم الإسلام ، لا أن تفرض تقاليدها على هدايات الله ..



## ٨٠. لماذا حرم الإسلام الخمر؟ وما عقوبتها؟

بين يدي العدد ٣٨ الذى أصدرته منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والعقاقير المخدرة ، وقد أجلت النظر فى صحائفه فوجدتها ملأى بالنذر من ضراوة الخمر وفك المخدرات ، ووجدت دراسات طبية وإحصاءات اجتماعية تشير التشاؤم بسبب كثرة السكرى والمدمنين! ..

تحت عنوان «ثمن الكأس» جاءت هذه العبارة : إن الخمر شراب يبعث على السرور والاسترخاء لدى الألف المؤلفة! ولكن المشكلات التى تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بل تهدد بقيضانها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة ..

ثم يقول الكاتب «جون مادبى» إن الخمر تسببت فى وفاة ما بين ٣٣٪ ، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق فى البلاد المتقدمة ، وتزايد نسبة الوفيات فى العالم الثالث ، و«الكحول» مخدر يمكن أن يحطم الحياة العائلية ، ويكلف الكثيرين فقدان مكانتهم الاجتماعية ، أو وظائفهم ومواردهم التى تؤمن حياتهم! ..

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل ، وهو أساس فى ضعف الإنتاج ، كما أنه سبب رئيسى فى ارتكاب الجرائم ، ذلك إلى جانب أن الكحول يؤدى إلى تليف الكبد ، وهو يشكل عبئاً ثقيلاً على الخدمات الصحية فى جميع أنحاء العالم ، وفى أستراليا مثلاً نراه العلة الأولى وراء نصف المرضى فى مؤسسات الصحة النفسية!! ..

والخمر من وراء فقدان الملايين من ساعات العمل على امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها فى الإنتاج - بسبب الكحول - بعشرين مليار دولار سنوياً ..

وفى مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة : إن النساء المدمنات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبد ، رغم المقادير التى يتناولنها ، كما أن

استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وينتهى أجلهن في سن أصغر من نظرائهن من الذكور .

وفي مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الآباء الخمر ، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن .

والواقع أن الآباء والأبناء جميعاً يدفعون الثمن الفادح إن كانت العبارة الأولى هي التي رفعها الفرنسيون شعاراً لهم في أعقاب الحرب العالمية الثانية! ..

وما يلفت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمر وإن دولا كثيرة في العالم الثالث تقبل على السكر وتتجه إلى الإدمان ، وليس هذا عجيباً ، فإن الفهم الأعوج للحضارة والتقليد الأعمى للغربيين من وراء هذا الانحطاط المبين ..

إن الإسلام حرم الخمر ، وعدّها من كبائر الإثم! ونظمها في سلك واحد مع الزنى والسرقة ، ففي الحديث : «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» ..

وعن أنس بن مالك : لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبناتها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وأكل ثمنها!! وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها ، ومحو آثارها ، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها .

والقرآن عدها مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾  
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٩١)

والخمر كل ما غطى العقل ، وأعجز الفكر أيا كان مصدره! يستوى فيه العنب والموز والقصب ، ويستوى فيه الجامد والسائل .. فإن القصد واضح ، الله كرم الإنسان بالعقل ، فما أضاع العقل حرام ..

ومن السخف كذلك تصور الشارع يحرم الخمر السائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فتكا ، وإذا كان أئمة الفقه الأقدمون لم يذكروا الخشيش والأفيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه ..

فلما ظهرت بعض المخدرات أيام ابن تيمية عدها لقوره من الخمر ، وفي أيامنا هذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكاين ، والماريجوانا وغيرهما تغتال العقول ، وتهلك المدمن وتستأصل إنسانيته فكيف تترك؟

وفي الحديث : «كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام» ، وفي حديث آخر : «إن من العنب خمرأ ، وإن من التمر خمرأ ، وإن من العسل خمرأ ، وإن من البر خمرأ ، وإن من الشعير خمرأ ، وأنها كم عن كل مسكر»!! ..

وظاهر من الحديث أنه يسوق غاذج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لانهتم بالأسماء ، ولا بالمصادر ، وإنما نهتم بالتشخيص العلمي للأشربة والعقاقير ، فما ثبت تغييبه للعقل ، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكري فهو محرم بيقين!! ..

ولم تكن الخمر مألوفة في البيئات الإسلامية ، وأذكر أنني في طفولتي سرت مع موكب كثيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب غايه ونستنكر سكره! وعرفت أنه سكر في حانة فتحها بعض اليونانيين في ظل الاحتلال الإنجليزي ..

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا ، ثم أمست معهودة في الأحفال «الديبلوماسية» وعلى موائد بعض المنحليين! ..

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى! وأغلبهم يستحل قليلها ، وينأى عن كثيرها! وإن كان القليل عادة يجر إلى الكثير ، وتلك طبيعة عامة في الأشربة المسكرة والعقاقير المخدرة ..

ومع اضطراب الأعصاب ، وما وفدت به المدنية من هموم ، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره! ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لا يرى ما يكره! ..

أهو منطق العامة؟ أم هولون من الانتحار؟ أم هو التماس السرور في الأوهام كما قال الأعرابي الأبله :

وإذا سكرت فإنسى      رب الخورنق والديبر!  
وإذا صحت فإنسى      رب الشويهة والبعير!

إن فترة الغيبوبة التي يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد ، وتتيح الانطلاق الحيواني دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة! ..  
وقد حكى الأدباء أن بلدوية وفدت على بغداد ، وحضرت عرساً يشرب فيه المنكر ، فلما انتشت قالت : أيشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : بلى! قالت : زين ورب الكعبة!! ..

الحق أن تحريم الخمر حفاظ على الدين والشرف والخلق والكرامة .. إلا أن الأوروبيين مشوا في طريقهم ، فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للأمة حظروها بعنف ، ويوجد تعاون عالمي على مطاردة هذه المخدرات ، ومعاقبة تجارها ومتناوليها ..  
أما الخمر فقد ازداد الإحساس بضرورتها في الأيام الأخيرة وتوجد حكومات غير إسلامية تحرمها - كالهند مثلاً - لضرورات قومية ..

وفي العالمين الرأسمالي والشيوعي تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها ، وإبراز مقابحها ، فهل ذلك يكفي؟ ..

إن الإسلام تأنى في إعلان حكمه على الخمر ، وإن كان من أول يوم ينظر إليها شزراً ، ولم يقرر مهاجمتها إلا بعد أن أقام دعائم من الإيمان ، وضوابط الأخلاق تعين على الخلاص منها ، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر في الأزقة ، ورميت قربها في المزابل ..

أى إنه لا بد من مقدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر ..

وجمهور الأطباء والمربين والساسة والقواد العسكريين يكافحون المسكرات في العهود الأخيرة ، وأظن أنه لا يمنع من عقاب شاربيها إلا الخوف من التشبه بالإسلام! ..

والفقه الإسلامي يضع حداً لشارب الخمر قدره ثمانون جلدة ، وليس لهذا الحد سند من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة ، وإنما اتفق عليه جمهور الصحابة ، وأوصى به الدولة فتفدته! ومن الفقهاء من يكتفى بأربعين جلدة ..

وفقهاؤنا مجمعون على أن من سكر من أى شراب نفذ فيه الحد ، وإن أخذ أى جرعة من الخمر أسكرت أم لم تسكر حرام ، وفيها العقوبة المقررة ..

إن دولاً كثيرة عاقبت تجار الأفيون ومتناولييه بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها إلا بهذا العقاب الصارم ، ومع أن قليلاً من الأفيون يحتاج إليه صحياً ، وفي مجلة الصحة العالمية التي أومأت إليها أنفا : « .. إن المواد المشتقة من نبات الأفيون مثل «الكوديين» و «المورفين» مفردات مهمة في دستور العقاقير»!! .. فهل شفع ذلك في تخفيف العقوبة على مروجيه ومدمنيه؟؟ ..

فلماذا نتهاون في مجال المسكرات ، ثم نشط في مجال المخدرات؟ قد تكون نسبة الكحول في البيرة وما يشبهها ٣٪ أو أزيد قليلاً ، بيد أن الملاحظ في هذه الأشربة أن قليلها يجر كثيرها ، أى إن الذى يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل أو أكثر من الذى تناول كأس خمر!! ..



## ٨١. التدخين عادة شائعة، فهل للدين رأى فيها؟

لم يكن التبغ موجوداً على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم، وليست له خصائص الإسكار التي لأنواع الخمور حتى يمكن إلحاقه بها، ومن ثم فإن الحكم له أو عليه يرتبط بالآثار التي يتركها في جسم الإنسان ..

ولم أقرأ لأحد كلمة في أن للتدخين فائدة، بل إن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطلوا القول في أضرار التدخين، ويكاد إجماعهم ينعقد على أنه سم بطيء! ..

وقد طالعت عدداً من المجلة التي تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف «التدخين نقمة والصحة نعمة والاختيار لك»! ..

وفي المقال الأول من هذا العدد وردت هذه العبارات: «لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الأمراض المزمنة! كما اتضح أن نسبة الوفيات بين المدخنين تزيد كثيراً من نسبتها بين رافضي التدخين! ولعل أكثر الأمراض ارتباطاً بتدخين السجائر سرطان الرئة، والتهاب الشعب، وانتفاخ الرئة، وأمراض القلب الإسكيميا، وأمراض الأوعية الدموية! وترجع ٨٠٪ من الوفيات المتزايدة إلى هذه العلل! وهناك أمراض أخرى أكثر شيوعاً بين المدخنين، هي سرطان الشفة واللسان والفم والحنجرة والبلعوم والمرى والمثانة! ويتكرر حدوث قرحة الإثني عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم ... إلخ.

وقد تأملت في هذا الكلام طويلاً. ولم أستطع رده، ولكنني تساءلت: لماذا تبدو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها؟ وعلمت أن الخالق أبدع تكوين الجسم البشري، وأودع فيه مقاومة شديدة لليلاء الهاجم! كأن الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخرق! بيد أن كثرة الاستعمال، ستوهن قدرته يوماً فلا يتماسك أمام شيء يوضع فيه! ..

وربما ظن البعض أنه محصن ضد السرطانات وضروب الأذى المقرونة بالتدخين - وليس لهذا الظن أساس علمي - لكن يبقى ما لا شك فيه، وهو أن التدخين

مضعف عام للصحة، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره، وأن الرائحة الرديئة المنبعثة من التبغ المحترق تلوث الفم والأصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين، بل إن رائحة التدخين قريبة من النتن، ومن حق الشخص السوي أن ينفّر منها ..

وجمهور كبير من المدخنين ليس واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة، لقد ظهر أن الألفوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسرهم إلى هذه النفقات الضائعة لتوفير الألبان والفواكه والأطعمة التي لاغنى عنها.

وقد رأت الحكومات على المستوى الدولي أن تدن أجراس الخطر ضد التدخين، ولكنها اكتفت لأسباب - نضرب عن ذكرها - بإلصاق لافتة على كل علبة سجائر تشير إلى ضرر التدخين!

والعدد الذي بين يدي من مجلة الصحة العالمية يقول: «... بالرغم من تحول صناعة السجائر في البلدان الغنية إلى إنتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران! وسجائر مزودة بالمرشحات «الفلتر» فإن السجائر المصدرة إلى العالم الثالث عمومًا تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها في البلدان المتقدمة»! ..

إن حياة السكان في العالم الثالث تافهة، ولا معنى للمحافظة على صحتهم! .. والحقيقة أن التدخين بدأ يقل في أغلب الأقطار الواعية، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته، وقد قرأت في مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠,٠٠٠ طبيب بريطاني أن نصفهم كف عن التدخين بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٥، ونتيجة لذلك انخفض معدل الوفيات بين الأطباء ..

إن شركات التدخين العملاقة تحب ضحاياها في العالم الثالث، وقد ارتفعت نسبة التدخين بل نسبة السكر بين الألفوف المؤلفة في هذه الأقطار التعيسة، وافتن المعلنون في اجتذاب الفرائس الغبية، فهذه امرأة أفهموها أن التدخين يزيد جاذبيتها! وهذا عيل أفهموه أن التدخين رجولة! وهذا عامل أفهموه أن التدخين يجعله فارساً لا ينقصه من مظاهر الفروسية إلا أن يتطلى صهوة حصان، أو حماراً! وهذا امرؤ مستغرق في فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المنعقدة من سيجارة، ثم يحلم؟! أو فيم يفكر؟ في هراء وخديعة كبرى! ..



إن التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حد الفجور في الاستخفاف والاستغلال ، فقد كتب محرر جريدة «الراية» تحت عنوان «عقاقير الموت» هذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعة «كاليفورنيا» دراسة خلال السنوات العشر الماضية في أكثر من عشرين بلداً من بلدان العالم النامي ، ثم خلالها تحليل نحو ٥٠٠ دواء وعقار من المعروضات الصيدلانية التي تنتجها ١٥٥ شركة عالمية وتصدرها إلى أقطارنا! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هذه الدراسة في كتاب نشرته بعنوان «وصفات الموت في العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث» ..

وتؤكد النتائج أن بعضاً من كبريات الشركات العالمية ذات المكانة المرموقة في إنتاج الأدوية والعقاقير الطبية ، تسوق منتجاتها في أقطار العالم الثالث بوسائل من الإعلانات المكذوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخداع ، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الأعراض الجانبية للأدوية التي تبيعها ، والمضاعفات الخطيرة التي تنشأ عن منتجاتها ، وكثيراً ما تكون لها عواقب وخيمة وميتة ..

وأشارت الدراسات إلى أن أربع شركات وحسب من الشركات الـ ١٥٥ هي التي تلتزم بأمانة العمل وأخلاقياته ، وذكرت أن الأدوية المعروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهدئات وبين مضادات حيوية ، أو حبوب منع الحمل ..

قال المحرر : وما أننا من أبناء العالم الثالث فإن أسواقنا سوف تبقى مجالا لهذه الأنشطة المسمومة ، وسوف تبقى مستهلكة لمقادير ضخمة من أدوية الطالح فيها أضعاف الصالح ..

الحقيقة أن الأمم الغربية لاتعدنا بشراً مثلهم ، وأنهم ينظرون إلينا باستهانة أو بازدراء! .. إن كلمات الشرف والاستعفاف والأمانة ملغاة في معاملتنا ونحن المسئولون عن هذا السلوك المحقور ..

ومن دعا الناس إلى ذمّة ذمّوه بالحق وبالباطل!

إن قدراً كبيراً من الأموال العربية يذهب في مطالب السرف ومظاهر الترف التي تسيطر على الخاصة والعامة! ..

والغريبون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعي هي التي تحكمنا ، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا ..

الصعلوك يخرج من بيته واضعاً السيارة في فمه ، وبيته محتاج إلى بعض الضرورات ، وحسبه ذلك من مخايل الرجولة! والغنى يبعثر يديه في ميادين اللهو الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعداداً لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد إيمان! ..

وقد كنت أحياناً أنظر إلى العمال وإلى الفلاحين العائدين من الجزيرة والخليج ، فأعجب لما يحملون من هدايا! لقد أهدروا عرقهم المبذول في أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الأصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر! ومبتدئين بعدئذ نهاراً لا بركة فيه ولا إنتاج ..

لأدع هذا الاستطراد - وما منه بد - ولأسأل : هل التدخين مباح؟ إنني لا أقدر على الحكم بإباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة ..

هل هو حرام؟ قد يكون حراماً على بعض الناس! وقد يكون مكروهاً عند البعض الآخر! ..

والغريب أنني قرأت لامرأة مدخنة : أن رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعي! فأيقنت أنها هي أو بعلمها مرضى! وأنهما يجب أن يذهبا إلى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما بإباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الأضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر في صحة الجنين! ..

إن الرائحة الجميلة من شعائر الإسلام ، سواء كانت في الجسم أو في الملابس ، والرجل الكريم ينبغي ألا يخالط الناس ، فإن صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! ..

## ٨٢. ما حكمة الزكاة؟ وما نصابها؟

البخل عاهة قديمة فى الطبيعة البشرية، ترجع إلى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته، وازدياده فى المستقبل ارتياحاً يغريه بالأدخار، والجمع بعد الجمع. والدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهد فى مصالحها، ولكنه يرفض أن يتحول ذلك إلى تجاهل للآخرين، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم! ولعل ذلك هو الفارق بين الإنسان والحيوان..

فالحيوان ما يتحرك إلا وفق قوانين اللذة والألم، إنه يستقتل من أجل قوته أو قوت صفاره الذين هم امتداد له، والعالم فى عينه لا يتجاوز هذا النطاق.. والإنسان القريب من الحيوان يصبح وعسى محصوراً فى مأربه ومطالبه، لا يفكر أبعد من ذلك فليحى هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ.

وقد جاء الإسلام فخلع الفرد من هذه الأثرة، وجعله جزءاً من كيان مشترك أو جسد واحد، وأنهمه أن الإيمان يقتضى محبة الآخرين والرحمة بهم، واحترام مصالحهم، وقد يقتضى الإيثار والعطاء المبرأ من المن.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وقال: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى (٢) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (٣) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٤) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٥)﴾.

وعند التأمل نجد أن حب المرء لنفسه ونسبانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الآخرين، وتطلعه إلى مزيد مع فقدان غيره للضرورات الماسة! ولم أعرف شيئاً يورث الضغائن كهذا التفاوت، إنه يحول الجماعة البشرية إلى قطع متوحش!..

ومحنة الدين فى المجتمعات التى تحولت إلى الماركسية أتت من ذلك التفاوت الظالم، والشوار ما كانوا حاقدين على الوجود الإلهى قدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومغلبة البائسين..

(٢) البى: ١٧ - ٢٠.

(١) التغابن: ١٦.

وقد رأينا القرآن الكريم يعد أولئك الكهنة البطان هم السبب فى كفر الناس! ويعتبر مسلكهم صدا عن سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

والكلام فى الزكاة فرع تنقية الطباع من الشح، وغرس الأخوة المتحابية المتراحمة المتكاملة..

وقبل أن أعطى أحداً من مالى أنا باسم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه، وجزاء سعيه!..

لقد رأيت قاعدين يشركون الآخرين فى ربحهم تحت عناوين ما أنزل الله بها من سلطان! رأيت الأعرابى يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعاً! والإسلام برىء من هذا الجشع والغصب!..

إن دور الزكاة يجرى بعد إرساء قواعد الحلال والحرام، فإذا حدثت ثغرات فى المجتمع بعد تسييره وفق سنن عادلة فإن الزكاة تمسح الآلام، وتشر الرحمة والوئام، إن الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

لم أعرف نظاماً دينياً فى الأولين والآخرين اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام، وفى كتاب الله وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الإسلام تعميم الخير وإشاعة النعمة ومطاردة البأساء والفراء، وجعل بسمه الرضا يصطبغ بها كل فم!..

من قديم والناس يكرهون استخراج المال من خزائنها، ويودون لو بقى لهم وحدهم، بيد أن الإسلام يقاوم هذه الرغبة، ويكسر حدتها، وإذا احتاج الأمر إلى مقاتلة أصحابها أعلن عليهم الحرب حتى يقيثوا إلى أمر الله، وهكذا فعل الخليفة الأول، فهل يتكرر ما فعل؟..

عن الأحنف بن قيس قال: كنت فى نفر من قرىش فمر أبو ذر رضى الله عنه وهو يقول: بشر الكافرين برضف يحصى عليهم فى نار جهنم، فيوضع على حلصة ثدى أحدهم

(٢) التوبة: ١٠٣.

(١) التوبة: ٣٤.

حتى يخرج من نفض كتفه. أعلاه. ويوضع على نفض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل، فوضع القوم رءوسهم فماريت أحدكم منهم رجوع إليه شيئاً! فأدبر، فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ماريت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم! فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً! إن خليلي أبا القاسم دعاني فأجبت، فقال: أترى أحدًا؟ فقلت: أراه! فقال: ما يسرنى أن لى مثله ذهباً نفقه كله إلا ثلاثة دنائير! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئاً. . .

وقد جاءت عن أبي ذر رواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الآخرون ورب الكعبة! قلت: يا رسول الله فإني أرى وأمي، من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً! إلا من قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله! وقليل ما هم! ما من صاحب! بل ولا بقرو ولا غنم لا يؤدى زكاتها! إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمته، تنطحه بقرونها، وتطوئه بأظلافها، كلما نفذت أخراها عادت إليها ولا لها حتى يقضى بين الناس. . .

وهذا الحديث يفيد إخراج الحقوق المعلومه، والتيقظ إلى كل خلل يقع في المجتمع والمساومة إلى سده، وهو ما قاله الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

وهذا الإنفاق المطلوب لا يعنى أبداً أن يظل المرء ينفق حتى يفلس، ويصبح مساوياً لمن كان يعطيهم! فهذا فهم سخيف، وإنما القصد قهر البخل وإحسان المواساة! عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فأخذها رضي الله عنه فحذفه بها فلو أصابته لأوجعته، وقال: يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة! ثم يقعد يتكفف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى! . . .

وإنما شرحنا هذه القضية لأن البعض نسب إلى أبي ذر أنه يحرم الكنز، ويأمر بالنفقة حتى لا يبقى شيء! . . .

هناك حق معلوم قدر في السنة الشريفة بربع العشر في الأموال المدخرة وعروض التجارة، وينصف العشر في المحاصيل التي يتكلف فيها أصحابها، وبالعشر في

المحصولات السهلة. واختار في الأراضي الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المالك والمستأجر، كما اختار القول بأن الزكاة في جميع ما تخرجه الأرض من حبوب وفواكه وثمار. . .

وقد جدت في ميادين المال أشياء تقتضي النظر في أحكام الزكاة المتوارثة، فإن القواعد التي درسناها تجعل الوزير مثلاً لا يخرج زكاة عن مرتبه الذي ينفقه في بيته، مادامت النفقة تستغرقه! على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدان شعير، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد! كما أن أغلب الفقهاء القدامى لا يأخذون زكاة من فدان فاكهة يدر ألف جنيه، ويأخذونها من فدان يدر ربع هذه القيمة. . .

وقد لفت النظر من أربعين سنة في أول كتاب ألفته إلى هذا التفاوت المثير، وتحديث عما أسميته زكاة المال وزكاة الدخل! وقد كان ذلك إشارة محدودة إلى ما يجب عمله، لاسيما أن الزكاة ليست عبادة محصنة يستحيل فيها التغيير، بل هي عبادة مربوطة بحكمة، وتترتب عليها مصالح متجددة. . .

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوى فوضع كتابه فقه الزكاة الذي قلت: إنه أهم كتاب ألف في هذا الركن الإسلامى منذ بدأ تاريخنا الثقافى. . .

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنة من الفقهاء والاقتصاديين لترجم المصطلحات القديمة إلى مفاهيمها الحديثة، تبين كم تساوى عشرون مثقالاً من ذهب، ومثلاً درهم من الفضة وخمسة أوسق من الحبوب، وماذا يتركه التضخم من آثار في قيم الأنصبة؟ . . .

إن الزكاة عمل رائع في ديننا العظيم، وقد حصنت المجتمع الإسلامى من زلازل دكت غيره، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدرس والتطبيق الواعى، وضبط الحقوق المعلومه، وإبصالها إلى أصحابها بأشرف أسلوب.

## ٨٣. ما العلاقة بين الإسرائييين وإسرائييل؟

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الإسرائييين، ثم ينتقل السياق بقتة إلى تاريخ بني إسرائييل. وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسرائييين في بعض المصاحف سورة «بني إسرائييل» ..

بل أقول: إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ بعد أن لبث في أيديهم قرابة قرن: كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين في ذكرى احتفالهم بالإسرائييين إشارة إلى أن المسجد الذي ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أركلي القبلتين وأخراهما لا تنقسم، وأنه لا الصليبية قديماً ولا الصهيونية حديثاً ستغيران سنن الله في مصاير الأمم، وإن نجحت كلتاها إلى حين في إلحاق هزيمة بالمسلمين! ...

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا ..

قال الله تعالى:

﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)

وعقب هذه الآية مباشرة نقرأ قوله تعالى:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ (٢)

ما العلاقة بين الإسرائييين، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها، وتصوير المسلمين بعواقبها؟؟

إن الإسرائييين كان من مكة إلى القدس. ولليهود في هذه البقاع تاريخ! ..

صحيح أنه لم يكن لهم وجود في فلسطين يوم وقع الإسرائييين، بل كان وجودهم في فلسطين محظوراً، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه ..

(١) الإسرائييين: ١

(٢) الإسرائييين: ٢

وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها في صدر سورة الإسرائييين، وهو ما أريد الآن متابعتها من الناحية التاريخية ..

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديماً وهم سلالات عربية كإخوانهم العدنانيين والقحطانيين، ويظهر أنهم تجبروا، وأثاروا الرعب حيث يعيشون، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم، فسلط عليهم بني إسرائييل. وقد وجل الإسرائييليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين، وغلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى: ﴿إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ (١) .. فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى: ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ (٢) ..

وعوقب الإسرائييليون على جبنهم بالتيه في سيناء أربعين سنة مات خلالها موسى، ثم خلفه يوشع الذي قاد بني إسرائييل إلى فلسطين منتصراً على الكنعانيين، وباتياً حكاماً دينياً باسم التوراة بعد هزيمة «عرب»! ..

بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شراً على من كان قبلهم! وقد حكوا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة، وبدا أن السلطة في يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا له بأهل! .. ينبغي تحريدهم منها! ..

وكانت فلسطين - حتى بعد قدوم اليهود - مليئة بأجناس أخرى، وكان المملك المستحب لبني إسرائييل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنعميين» من أصل لا يمكن أبداً أن يرتفع، كيف، قالوا: إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى باسته! .. وكتبوا ذلك في سفر التكوين!! ..

والقصة يقيتاً مكذوبة، فأنبياء الله لا يسكرون ولا يزنون!!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوههم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر في العهد الجديد، فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو في بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يا ابن داود، بنتى مريضة جداً! .. وطلبت منه شفاءها! ..

(١) المائدة: ٢٢

(٢) المائدة: ٢٤



فقال لها : اذهبي يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب . يعنى بالبنين : بنى إسرائيل ، والكلاب : الكنعانيين ..

فقال الحزونة : والكلاب أيضاً تأكل أقدام السادة! فشقى لها ابتنها بعد هذه الضراعة الذليلة! ..

ونحن نحزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هذا المسلك ، أو يرسل هذه الشتائم! لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تحريج الأنبياء وإهانة الشعوب! ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١)

أيكفى فى معاقبة بنى إسرائيل أن يطردوا من فلسطين؟ ..

لا .. إن الله عزلهم نهائياً عن القيادة الدينية التى كانت لهم ، وحرهم من الوحي وشرف إبلاغه ، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة ، وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول . فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ، وأصبحت الأمة العربية لا العبرية هى الوارثة لهدايات السماء! ..

ونهض الإسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعل منهم حملة حضارة زاهية ، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الغنم ونقل السلع ، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد ..

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يغار علينا واترين فيشتقى

بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قـمنا بذاك الدهر شطرين بيننا

فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال «غستاف لوبون» : إن العالم لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب! ..

وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع لله والبر بالناس ..

(١) آل عمران : ٢٢ .

ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والرحمة ..

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقاً آخر ، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثرتهم فى أرجاء الأرض ، فتوزعتهم المدائن والقرى فى المشارق والمغارب . بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ومنهج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب الله المختار ، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله ، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم ، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل ..

وتفوقوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس ..

والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحياً يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذى أنزلها عليهم!! .. وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى! ..

وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فالقوم على آية حال قتلة بضمايرهم . ومن ثم شرع النصارى حكماً وشعوراً فى اضطهادهم وإرخاص دعاتهم ..

وعرضت لهم مأس فى انحاء أوروبا كادت تنتهى بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين : لولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم!! .

ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام ، فأثرتهم الشديدة ، وشهرهم فى حب نال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم . وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الأحكام الذين أفلأهم فى طول أوروبا وعرضها ..

ومررت السنين ثقيلة طويلة ، وظهرت الخلائق المستورة ، أو نبئت ونضجت البذور الكامنة! ..

كان المسلمون يغطون فى نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بتأريث قديمة .

كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجزية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى! ولا بأس أن يقولوا شعراً ونثراً! .. أما الدرس الواعى للأمم



ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين  
لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين في هذه الأيام العجاف! ..

إن الصليبيين القدامى تقدموا في فراغ:

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هي الأسلحة التي هزمتها بها  
أعداؤنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين في أية معركة جادة ما سقطت  
فلسطين ..

وكان التاريخ يعيد نفسه ، إن الصهيونيين تقدموا في الفراغ نفسه!  
أعانتهم الفرقة ، والشهوات المطاعة ، والعفائد المتحلة ، والأنانية الطاغية ،  
فكسبوا معركتهم بأيدينا ..

أريد - كلما استقبلنا ذكرى الإسراء - أن نتجاوز الهامش إلى الصميم .. أن نترك  
السرد السطحي للقضية ..

أن نعمق النظر في الأسباب التي من أجلها كان الإسراء .. ولأجلها قامت  
للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية ، ونضع الموزين القسط بين الناس .

## ٨٤. لماذا كانت قبلة العالم في أرضنا؟

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث دلالة العميقة في صلة المسلمين  
بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التي يتجه إليها أصحاب الأديان  
السموية جميعاً .

ثم صدر الأمر إلى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس إلى مكة المكرمة! ..  
ما سر هذا التحول؟ ..

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد! ولا فهموا من وحدة القبلة  
أن قرابة مشتركة تربطهم بأتباعه!

الذي حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العريبى ، وعدوه منافسا محذورا كأن  
الأمر صراع على مغنم عاجل ، أو مأرب قريب!

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فإن العرب كانوا  
عباد أصنام! حتى عرفهم محمد بالإله الواحد . وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقنعهم  
بالعمل لليوم الآخر . وكانوا لا يدرون شيئا عن نبوة سبقت حتى حدثهم عن موسى  
وعيسى وغيرهما من المرسلين! ..

فلم الضيق بهذه الرسالة؟ ومخاصمة صاحبها؟ ..

بيد أن الأمر تجاوز الخصومة المحتملة إلى ضرب من اللدد يشير الاشمئزاز . تدبر  
قوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ  
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

وإذا كانت للمسلمين مساجد تنبعث من منابرها صيحات التوحيد وتستقبل  
ساحاتها الركع السجود ، فإن أهل الكتاب تواصوا بصرف الناس عن هذه المساجد ،

(١) البقرة: ١٠٩ .

وتأمروا على تهديها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ (١).

فلم يبق بعدئذ مساعٍ لمشاركة هؤلاء الحاقدين قبلتهم ، وانبعثت في نفس الرسول الكريم الرغبة في الاتجاه إلى القبلة الأولى ، إلى الكعبة التي بناها جده الأكبر إبراهيم الخليل ، ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بإذن من الله ، فلينتظر ، وليؤمل ! . ثم جاء - على تلهف وشوق - الأمر الإلهي ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (٢) . فاتجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة بعد قرابة سبعة عشر شهراً من الصلاة إلى بيت المقدس .

كانت هذه المدة كافية لفصح ضغائن اليهود ، وأثرتهم المفرطة ، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون لمصلحة جنس من الأجناس ، إنهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ورب الناس . وقد بدا لى من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين بالباطل ، وأن العرب الأميين كانوا - بنقاء سرائرهم - أصلح للحياة والإحياء من أهل الكتاب المستكبرين الشرهين ..

كان أولئك العرب يعتزون بكعبتهم ، ويرغبون طوال عمرهم في استقبالها ، وهم لم ينسوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها ! وأن قوى السماء هي التي تصدت للمغبرين لما عجز أهل الأرض عن الدفاع ، فإذا الجيش المعتدى يلقي ﴿طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ (٣) ترميهم بحجارة من سجيل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٤) ..

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطيدة ، فإن الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك استقبالها لما هاجروا ، ولبوا أمر الله باستقبال بيت المقدس ! .

كان امتحاناً صعباً غير أنهم نجحوا فيه : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ (٥) .

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التي يتجه الناس إليها ، يذكر الإسلام حقائق رفيعة ، يلقيها في مسامع كل من ينتسبون إلى دين ! حقائق لا يقرها إلا الإسلام وحده ! إنه يتساءل : ما هذا اللفظ حول الاتجاه إلى شمال أو جنوب ؟ ..

(١) البقرة : ١١٤ . (٢) البقرة : ١٤٤ . (٣) الفيل : ٣ - ٥ . (٤) البقرة : ١٤٣ .

إن الكمال البشري لا يصنعه استقبال مكان هنا أو مكان هناك ! الكمال المنشود عمل حقيقي داخل النفس الإنسانية تركوه وتسمو .. العظمة الإنسانية ، هي اليقين الراسخ والإستتمسك بالله ، وإن هاجت العواصف وبذل المعروف وإجابة الملهوف ، ومساندة الضعفاء وإيتاء المحرومين ! .. وهي الثبات على المبدأ وإن كثرت المغريات ، والمضى على الجهاد وإن فدحت المغارم ! .. إن اتجاه المسلمين إلى المسجد الحرام في صلواتهم حق لا ريب فيه ، وهي قضية تنظيمية سنشرح بعد قليل أبعادها ، بيد أن ذلك لا يعنى نسيان الحقيقة في الوصول إلى الكمال الإنساني والرضوان الإلهي ، وتدبر قوله تبارك اسمه :

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١) ..

إن اليهود يلتمسون الشرف من الانتساب إلى نبي الله يعقوب ! والأب العظيم لا يرفع شأن بنيهِ إذا كانت أعمالهم هابطة ! وهم يرتبطون بالقدس والأرض المقدسة ، والأرض لا تقدس أحداً ، إنما يتزكى المرء بالهدى والتقوى والعفاف والعدالة ! .

والخلاف بين الناس باق إلى قيام الساعة ، إنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض الحكمة في خلق الناس ! ..

لكن الخلاف مهما اتسمت شقته لا يجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم ، ولا يجوز أن يجعل الحيف حقاً . ومن ثم قال الله لنبيه :

﴿وَلَنْ أَتَّبِعَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) .

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة تشير إلى خصائص أمتنا ، وإلى الرسالة التي كلفت بحملها إلى آخر الدهر ..

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) البقرة : ١٤٥ .



إن العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء، تعرف الله، وتلتزم هداه، وترفض الفلسفات المادية، والرغبات المجنونة في عبادة الحياة ونسيان ما بعدها ..

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية، عندما جعل قبلة العالمين في أرضهم وعندما طالب البشر في كل مكان أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام! .. فما معنى ذلك؟ ..

إذا قيل: إن موسكو قبلة الشيوعيين في العالم، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين إلى جدار في «الكرمين»! بل المعنى أنهم يستفون أفكارهم ويتلون توجيهاتهم من هناك! ..

والواقع أن القرآن الكريم في سياق تحديده للقبلة قال للعرب في جلاء: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١). والآية توضح الوظيفة التي اختارها القدر لأمتنا، فإن الله اختار محمداً ليحمل أمانات الوحي، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسنة! وقد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا، وليهدوهم كما اهتدوا، أو ليكونوا أساتذة للعالم كما كان محمد أستاذاً لهم! تلك وظيفتهم التي رفعهم الله إليها، والتي لا بد من حسابهم عليها ..

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادي! قد يكون المرء شاهداً في قضية لا علاقة له بوقائعها، كل دوره فيها أنه يقول الحق، فهل هذا دور الأمة العربية في تاريخ البشرية؟ كلا، ربما تحول الشاهد إلى متهم إذا تبين من التحقيق أن له أصابع في وقوع الجريمة!! ..

والعرب منذ حملوا رسالة الإسلام وجب عليهم أن يستنبروا بها وأن يرفعوا منارها، وأن يستطوا بأدويتها، ويعالجوا علل العالم بدوائها، فمستوليتهم مضاعفة. الرسول أمام الله يشهد بأنه علمهم من جهالة، وأقامهم من عوج، وهم أمام الله كذلك مطالبون بالشهادة على سكان الأرض، إنهم بلغوهم الوحي الأعلى وقدموا من أنفسهم نماذج عملية للتقوى والإصلاح والإنصاف! ترى هل قام العرب بهذه الأمانات؟ ..

(١) البقرة: ١٤٣.

إن رباط العروبة بالإسلام وثيق، وهذا الرباط وحده هو الذي يجعل العرب أمة قائدة رائدة فإذا هت صلتها به، فهي تخون أساس وجودها، وهي ستتحول حتماً من رأس إلى ذنب! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير، إلى أمة يدرجها الآخرون إلى الشر أو إلى الهاوية!.

وقد تأكد هذا المعنى مرة أخرى في سياق تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ (١).

أي حتى تنقطع حجج العرب الخراص على كعبتهم الضائقين بالاتجاه السابق إلى بيت المقدس! أما أهل العناد والمتشبتون بالجاهلية الأولى، فلا تخافوهم، فأمرهم إلى إدبار ونارهم إلى رماد .. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢).

أي إن الله باختياره للمسجد الحرام قبلة لكل مصل في الدنيا، يضاعف على العرب منته، ويتم عليهم نعمته .. وقد بدا الإنعام عليهم بانبعاث الرسول منهم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

والمعنى أن العرب بهذا الدين أضحي لهم تاريخ جديد، وافتتحوا به صفحة مجد باذخ ما كان لهم به عهد من قبل، ذلك أنهم يتلون آيات الحق، ويمهدون طريق التربية الفاضلة، ويخطون معلم الحكمة والرشد، فليعرفوا الله حقه وليقدروه قدره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (٤) وهكذا يخاطب الله العرب ويشرح لهم ما أسدى إليهم من جميل! فهل نذكر ونشكر؟؟ ..

والأنبياء شهود على أهمهم بالبلاغ المبين، وقد كان رسولنا ﷺ وهو يخاطب الناس في حجة الوداع يقول: اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهد! ..

وهناك قبل شهادة الأنبياء موثيق الفطرة التي أخذها الله على أبناء آدم. إن الله أودع في كل ضمير صوتاً يذكر بالله ويدفع إلى صراطه المستقيم، ويقاوم التقاليد

(١) البقرة: ١٥٠. (٢) البقرة: ١٥١. (٣) البقرة: ١٥٢.

المنحرفة والأصوات الزائفة ، وما من إنسان إلا هو مسئول عن هذا الميثاق : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١) .

ويتضح من ذلك أن العدل الإلهي يستظهر على كل مخطئ بشاهدين من العقل والنقل ! ومع ذلك ، فإن ناسا يوم الحساب سيحاولون بالكذب الإفلات من مصيرهم ! ..

مشركون يقولون : ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٢) ودجالون مرنوا على الاحتيال والمخادعة في الدنيا يحاولون في الآخرة أن يقوموا بالدور القديم ﴿ يَوْمَ يَعْثُورُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٣) .

وهيهات أن يجدى هذا التملص مهما صاحبه حلفا ! ..

ولما كان محمد ﷺ شهيدا على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذي بلغه ، ويسرى عندئذ من وفي ومن غدر؟ بل من آمن ومن كفر؟ قال الله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَزَلُّوا عَلَيْكَ الْكِتَابُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

إننى أحببت أن أشرح هذه القضية لأن العرب من أمد قريب أو بعيد شرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم ! بل بدا لهم أن يستقيلوا من الوظيفة الشريفة التى أثرهم الله بها أو اصطفاهم لها .

وسمعنا من يقول فى جهل فاضح : إن العروبة شىء ، والإسلام شىء آخر ! وإن العروبة يمكن أن تشق طريقها بغير دين إلى مستقبل مكين ! ..

وقد استجاب نفر من الأغرار لهذه الفرية ، فإذا الأمة المسكينة تتراجع فى كل ميدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة فى كل أفق ، ولولا بقايا إيمان مبثوثة هنا وهناك لخل بها خزي الأبد ، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شديد معتمدة على موارث الإسلام وحده .

(١) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ . (٢) الأنعام : ٢٣ . (٣) المجادلة : ١٨ . (٤) النحل : ٨٩ .

هل للعرب فى قديم الزمان وحديثه رسالة أخرى غير الإسلام يمكن أن يؤدوها للعالم؟ ..

إن لمحمد كتابا وسنة قامت عليهما دولة ، وأينعت حضارة ! وتصدرت قافلة البشرية أمة تعتز بها وتبنى عليها ، فماذا لغيره فى الأولين والآخرين؟ وما قدر العرب من غير محمد والإسلام؟ .

قال شخص غر : وهل ضرورى أن تكون لأمة ما رسالة سماوية حتى تقتعد مكانة مرموقة فى العالم ؟ ما أكثر الشعوب التى استراحت واستقرت برسالات أرضية !! ..

قلت : هذا الكلام قررة عين الاستعمار والصهيونية ! إنهما لا يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلا من كل سلاح فعال .

وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الدينى أمام أتباع التوراة فستضيع فلسطين ! .. وعندما يزهد غيرهم فى معتقداته الإسلامية فسينطلق التبشير العالمى دون عائق ، وتكسب الصليبية جولتها الجديدة .

لا بل إن الوثنية التى ذبحت المسلمين فى «أسام» ستقطع شوطا أوسع فى الإجهاز على مبدأ التوحيد ! ..

إن تحقير الثقافة الإسلامية وتوهين أركانها لا بد أن ينتهى بهذه النتائج ! .. أما يحق لنا أن نحصن الأجيال الجديدة ضد هذه الخيانات الفكرية والاجتماعية؟؟ ..



## ٨٥. هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة؟

في قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولاً : هل الإسلام مبتدع التعدد مخالفاً بذلك الأديان التي سبقته؟ إن الأديان كلها ، وثنية أو سماوية أباحت التعدد فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟ ..

ليس في العهد القديم حظر على تعدد الزوجات ، وقد جمع سليمان الحكيم صاحب نشيد الإنشاد العامر بالغزل - ألف امرأة في بيته بين حرائر وإماء! .. وليس في الأناجيل التي كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر على التعدد! إن التحريم الذي وقع بعد ذلك كان تشريعاً مدنياً لا دينياً ، أو كان كنسياً يعتمد على الاجتهاد لا على النص! ..

قد يقال : فليسمح الإسلام ما وسع الأديان قبله ، وليحرم التعدد! ..

وهنا لا أجد مناصاً من توجيه سؤال آخر؟ هل اكتفى كل رجل ، أو أغلب الرجال ، بما لديهم فلم يتصل أحدهم بأخرى؟ بل أسأل الرجال الذين تظلمهم حضارة الغرب في عدة قارات : ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الأمد أو قصيرة بأعداد كبيرة من النساء الأخريات؟ ..

لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليفة لا خليفة؟ لماذا يرمى ابنها لقيطاً ، أو ينشأ زنيماً ، ولا ينسب لأبيه الحقيقي؟ ..

إنني أتهم إخواننا أهل الكتاب بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة ، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، وأنهم - من الناحية الجنسية - استباحوا الأعراس واجتاحوا الفروج ، ويسروا الشذوذ ، ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة إلا في حضارتهم المادية الموغلة في الإثم! ..

أيعنى ذلك أنني أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبتها المسلمون باسم التعدد؟ كلا ، لقد عدد من لا يعدل ، وهذا مرفوض! بل عدد من لا يستطيع الإنفاق على واحدة! وهذا مرفوض! ..

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية فإذا لم تتوافر هذه الشروط فلا تعدد .. وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى سطوة القانون ، ومكاسب النساء من التعدد - والحالة هذه - ليست أقل من مكاسب الرجال! ..

أما إباحة التطليق للرجل فأحب أن أضع بين يديه هذه الروايات ، قال رجل لعمر ابن الخطاب: أريد أن أطلق امرأتى! فقال له عمر: لم؟ قال: لا أحبها! فقال له عمر: أو كل البيوت بنى على الحب؟.. فأين التذم والوفاء؟ ..

وشبه هذا مارواه ابن مردويه أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبي ﷺ، قال أنس: فقال له الرسول: إن طلاق أم أيوب لحوب! أي إثم فكف عن مراده وأمسك امرأته .. وقد روى مثل تلك من طريق آخر ، أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته، فقال النبي ﷺ: «إن طلاق أم سليم لحوب، فراجع الرجل عن مراده ..

وقد يكون الأصل في هذا الإمساك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنْ أَطَعْتُمْكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴾ (١)

إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة ، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخسه إلا لثيم ..

بيد أن سياج الأسرة لا يقيمه إلا الخلق الزكي ، والأسر التي يمسكها القانون هي أسر على الورق وحسب . وقد سئم الأوروبيون هذا الخداع واضطروا إلى الاعتراف بالواقع المرير ، فأباحوا الطلاق في انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة في الموضوع ..

إنني لا أدري كيف يدفع رجال الشرطة امرأة إلى زوجها أو رجلاً إلى امرأته! الحل الأمثل هو في قوله تعالى :

﴿ فَأَمْسِكُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (٢)

وذلك بعد مراحل من الإنذار والإصلاح مبسطة في كتب الفقه ..

قد يكون الطلاق جراحة لا مفر منها بعد ذهاب الود وجفاف الحنان وتولد مشاعر أخرى على نحو ما قيل :

إن القلوب إذا تفرقت ودعا

مثل الزجاجة كسرها لا يجبر!

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) الطلاق : ٢ .





وقبل أن تحكم على ظاهر هذا الحديث ونشرح معناه نذكر حديثاً آخر يساويه في قوة السند ، ويزيد عليه في تكرار سياقاته ، وتعدد رواياته ..

هذا الحديث هو قول رسول الله ﷺ : «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء! واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء» . وفي رواية أحمد .... فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء ..

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام» ..

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : «قمت على باب الجنة فكان عامته من دخلها المساكين! وأصحاب الجدة اليسار والعافية . محبوبون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار ، وقمت على باب النار فإذا عامته من دخلها النساء» !! ..

ماذا تعني ظواهر هذه الأحاديث جميعاً ، وما أثرها المنظور في بناء الأمة الإسلامية؟؟ ..

إنها تعني ترجيح الفقر على الغنى ، والمسكنة على السعة ، والصعلكة على الثراء والتمكين! ..

أيمكن أن تقوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسب المسلمون معركة وهم واقفون عند هذه الظواهر لما روى عن نبيهم؟ ..

إن ذلك مستحيل ، والحق أن هذه الظواهر غير مرادة أصلاً ، وأن معناها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا في كتاب آخر : إنه لاسنة بغير فقه!! ..

الزعم بأن كل غنى رذيلة زعم سخيف ، فالغنى المحقور هو المكسوب من سحت ، أو المكتوز لا يستفيد منه مجتمع ، والأغنياء من هذا القبيل أعداء الله وأعداء الشعوب وإذا ملأوا جهنم فهي بصير عدل ..

أما تكوين الثروات من وجب شريف ، وإيتاء حق الله فيها ، وتطويعها لإعلاء الإيمان ، وحماية الثغور فهذا محض الإيمان .

وقد كان العشرة المبشرون بالجنة من هذا الصنف ، ولم يكن فيهم رجل مقل .. والفقر الذي أثر القلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذي ملك بجهده المبذول ولكنه ضحى بما يملك في سبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسبق غنياً أو يسبقه غنى ليس إلينا : وإنما يبت فيه علام الغيوب ..

ثم عندما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعالى :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (١)

الواقع أن عرض الحديث النبوي دون فقه صالح ، لونه من تحريف الكلام عن مواضعه ، ومصاب الإسلام شديد من هذا التصرف! ونعود إلى حديث النساء ونقصان العقل والدين ..

صدر هذا الحديث بقى الأسرة الإسلامية شراً يشيع بين الناس ، جرثومته امرأة تحيا على خير رجلها ، وتكر فضلها وتحجده حقه ، قد يخطئ الرجل ، وكل بنى آدم خطأ ، وينبغي أن تتجاوز المرأة هذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هي .. ولكنها بدل ذلك تغضب غضباً طائشاً ، وتنسى في ثورتها كل شيء ، وتزعم أنها ما رأت خيراً قط من زوجها ، وقد تلعن نفسها وحظها وما حدث أو يحدث لها! ..

أليس من حق النبي ﷺ أن يحذر من هذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهن إن أصررن عليه يكنن من أهل النار؟؟ .. ثم يستطرد الحديث ... ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغضب لذي لب منكن ، والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فإن الرجل قد يستكين لامرأته ، والحق معه ، حتى يوفر الهدوء في بيته! ويمنع اللجاجة والخصام! وقد يلغى فكره الصائب من أجل ذلك الهدف بما قد يدفع بالمرأة المغرورة إلى مزيد من العنت! ..

وهذه هزيمة ذى اللب كما عبر الحديث أو أولى الألباب كما نرى في مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال ..

والمرأة - على ضعفها - تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها! قد تقول وما هذا الضعف؟ واجواب في تكوينها الخلقي ، فإنها تضحي عليلة أو شبه عليلة خلال الدورة الشهرية التي تعتادها ، وتؤثر في أعصابها وأفكارها ، وقد عذرها الله من أجل ذلك ، وأعفاها من بعض الفروض .

إن نقرا من المتحدثين في الدين شاء أن يفهم من هذا الحديث أموراً لا علاقة لها به ، فصاغ قاعدة كلية نشرها في طول الأمة وعرضها مفادها «النساء ناقصات

عقل ودين..، وسواء كانت «أل» للجنس أو الاستغراق فهذه الكلية الشائعة فاسدة، من ناحيتي العقل والنقل، فقد اكتملت قدباً وحديثاً نسوة أرضين الله ورسوله وخدمن الدين والأمة خدمات جليلة.

وهذه الكلية المزعومة تناقض الآيات القرآنية التي قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض، وتناقض الأحاديث التي جعلت النساء شقائق الرجال! ..

وزاد الطين بلة في تأليب المرأة المعاصرة على الإسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية، وعد الأنوثة ترادف الخسة والهوان، وهذا التفكير امتداد للجاهلية الأولى، وهو بعض ما يشين النفسية العربية، والإسلام برىء من هذا اللغو ..

ونسأل بعد ذلك البيان: أكل امرأة تتصف بالبخل؟ أكل امرأة تتصف بنكران الجميل؟ أكل امرأة تتهم بكفران العشير؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة ..

لكن من المسلمين إلى الآن من يظن الغنى أخطر طريق إلى النار، ومن يظن الأنوثة أسرع شىء إلى جهنم ..

ونريد أن نقى ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة، وأن ننصف النصوص والأخبار ممن يتجهمون عليها دون وعى ..



## ٨٦. ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعاتنا؟

إننى أسأل أولاً:

هل عوملت المرأة في العالم الإسلامى وفق تعاليم الإسلام؟ ما أظن ذلك وقع إلا لماماً ..

إن الحاكم فى مستدركه روى حديثاً موضوعاً حكم العالم الإسلامى أكثر من ألف عام، يقول هذا الحديث: لا تعلموا النساء الكتابة، ولا تسكنوهن الغرف .. أى إذا كان البيت مكوناً من طبقات لم يجز إسكان النساء فى الطبقات العليا، حسبهن ظهر الأرض أو تحتها إن أمكن !! ..

وتطبيقاً لهذا الحديث المكذوب لم تفتح مدرسة لتعليم البنات فى قرية أو مدينة خلال قرون الماضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول، بل من المناكر المحظورة !! ..

وروى عبد الله بن عمر قول رسول الله ﷺ: لا تصنعوا إماء الله مساجد الله، وفى رواية أخرى: ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد! فقال ابنه معترضاً التوجيه النبوى، إذن يتخذنه دغلاً - أى مهرباً لاقتراف المفاصد - والله لنمنعهن .

فوكز عبد الله ابنه فى صدره، واشتد عليه غضبه، وقال: أقول: قال رسول الله وتقول: لا .. وقاضعه إلى آخر حياته ..

والغريب أن العالم الإسلامى لم يكتثر لرواية ابن عمر - على صحتها - وتبع رأى الولد السبى الأدب!! ..

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد ..

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة فى المسجد أمكن فتح أقل من ١٠٪ من بيوت الله لإماء الله، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء ..

كنت في دولة الإمارات المتحدة ، وشاركت في قضية جدية بالعرض ،  
نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الأستاذ مصطفى شردى : نحن في  
إحدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبي وقاص . انتهى المحاضر من حديثه  
وبدأ التحاور .

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال إنها متزوجة  
منذ سنوات ، من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها  
ورعايته بين الحين والآخر ، على الرغم من أن الأب وحيد يحتاج إلى الرعاية  
والعناية ، والشعور ببر الأبناء لأبائهم بنقصها فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية  
الأب ، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها؟ أثار السؤال الهمس ، ثم  
سكت الجميع انتظاراً لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح أن  
السؤال مس أوتاراً في العديد من القلوب ، وأعتقد أن قلب المحاضر من بينها ..

حمد الرجل الله وأثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة  
الزوج ، وكيف أن الإسلام شدد على لوفاء والتمسك بهذا الالتزام لصالح الأسرة  
وسلامة المجتمع ، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهدها لإقناع زوجها حتى يسمح لها  
برعاية أبيها ، إلا أنه اختتم إجابته برأى محدد اجتهد فيه فقال : إنه في حال  
تمسك الزوج بموقفه القاسي الغريب دون مبرر مقبول ، فإنه على الزوجة أن تبادر إلى  
زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها إليه ، لأن النص القرآني بشأن بر الوالدين واضح  
وقاطع وصريح ، ولأن لهذا الزوج بالذات أكثر من زوجة تخدمه وترعاه إذا غابت  
عنه واحدة لأداء واجب البر والإحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها الله  
بأن ترعاه وتحسن إليه .

انتهى المحاضر من إجابته فاشتد الهمس ! وبين الحاضرين عدد كبير من  
المتزوجين بأكثر من واحدة! وقد رأوا في إجابة المحاضر تحريضاً للزوجات على عدم  
الالتزام بأوامر الزوج ، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع العقول!  
وبدأ فريق من الحاضرين يناقشون الرأي بأعصاب توشك على الانفلات! فقالوا : إن  
رأى المحاضر يتعارض مع تعاليم الإسلام! ولا بد من التراجع عنه! لأن طاعة الزوج  
واجبة قبل أى اعتبار آخر ، وتمسك المحاضر برأيه وكادت تهب عاصفة من  
الاحتجاجات بسبب هذا الرأي ، وتتحول إلى مهاترة لايسمح بها ..

المهم أننا انصرفنا من المسجد ، وظل السؤال معلقاً بين الآراء التي  
اختلفت عليه! ..

كان مطلوباً من الشيخ المفتى أن يغير فتواه ، وأن يحكم بحبس المرأة في البيت  
ولو مات أبوها! وأيد ذلك الاتجاه أن متفهمها ذكر حديثاً معناه أن الله رضى عن  
زوجة بقيت في بيتها حتى توفي والدها فلم تعد في مرضه الأخير ؛ لأن زوجها  
كان في سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت ! .

قلت : هذا حديث مكذوب! واستغربت أن يطلب من امرأة ما باسم الإسلام أن  
تقرب أباه ، وتقطع به صلتها ، وتدعه يموت مستوحشاً لأن هذا حق رجلها! ..  
وعندما تفقد المسكينة عاطفة البنوة فماذا يبني من كيانها الإنسانى في بيت  
الزوجة؟ إنها ستكون أسيرة فحل يملك أمرها وقهرها .. وحسب! ..

وفى الأرياف كان أغلب النساء يفقد ميراثه الشرعى ، فتقسم الأرض على  
الذكور وحدهم ، ويقول الإخوة الذين اجتاحتهم الأرض : كيف تترك غريباً ينزل  
بأرض أبينا؟ ويعنون بالغريب زوج أختهم! ..

فإذا حدث أن طالبت الأخت بنصيبها الشرعى قاطعها إخوانها إلى الأبد! ..  
والأسر الشريفة لها تقليد عجيب - أعنى الأسر التي تدعى الانتساب إلى  
البيت النبوى - فالمرأة توت عانساً بائسة إذا لم يجشها الكفء من الأشراف ، أما  
الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان! ..

ويظهر أن بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النساء  
اللاتى نكبن بالدم الشريف ، فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا الموت! ..

وروى البخارى عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى  
القوم ونخدمهم ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة ..

ويبدو أن هذا التقليد كان قصير العمر جداً ، فاستخفى في أيام الحرب  
والسلم على سواء وتعتمد المستشفيات في العالم الإسلامى اليوم على  
الممرضات الأجانب ، وإذا كان النساء قد تمتعن المساجد أكان يؤذن لهن بالذهاب  
إلى ميادين القتال؟

ولا أريد أن يفهم غرأني راغب في نقل معالم الحضارة الغربية إلى مجتمعاتنا .  
فهذه الحضارة تجمع خليطاً من التقاليد الحسنة والتقاليد الرديئة ..

وإنما أريد إعمال النصوص المكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول ﷺ ، وسلفه الأول ، وهذا مسلك يعجز عنه أصحاب الخيال والشذوذ ..

لقد رأيت في قضية المرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححها الغرض المدخول ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها ..

واستغربت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد الحرام أو المسجد النبوي!

وقلت: لو كان الأمر كذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن في مسجده؟ ولم جعل لهن باباً خاصاً بهن؟ ولم ذهب إليهن فعلمهن وحثهن على الصدقة ، ولم حذر «البعض» أن يحرص على القرب من صفوفهن؟ ..

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلى في البيت إذا كانت مسئولة التغذية أو التربية تفرض عليها ذلك ، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلاً أو نهاراً .

أى إن صلاة الجماعة ليست مؤكدة في حقها كالرجال ، وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العلمية والعبادية ، وتحويلها إلى مسخ لا مكان له في دنيا ولا دين ، كما انتهت بذلك الأوضاع الاجتماعية في العالم الإسلامى ..

عندما فتح النبي ﷺ مكة خرج النساء لمبايعته ، وتلقى تعاليم الإسلام منه ، ولم يحتسبن في بيوتهن قعوداً عن هذا الغرض ، أى إن علاقة المرأة بالحياة العامة كانت قائمة ، وكانت من الناحية العملية - تسير في خط يحاذي علاقة الرجل ، ولا يتطابق معه ..

وقبل فتح مكة اهتمت نساء كثيرات إلى الإسلام ، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة إلى المدينة ..

وحدث ذلك في وقت كان المسلمون فيه ملزمين برد كل من يلحق بهم من مكة فاراً بدينه - تنفيذاً لمعاهدة الحديبية .

ولكن القرآن نزل يستثنى النساء من ذلك الحكم فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ ﴾ (١)

وورد أن عمر بن الخطاب كان في ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : الله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض! وبالله ما خرجت من بغض زوج! وبالله ما خرجت التماس دنيا! وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ..

ماذا ترى في هذا القسم؟ .. وفيمن أدته؟ .. ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محترمة المسلك ، تحارب وتسلم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها؟ .. أين هذه الشخصية التي واثقت الرسول في مكة ، والتي هاجرت إليه في المدينة ، من شخصية المرأة المسلمة في القرون الأخيرة؟ ..

المرأة التي لا تعرف كتاباً ولا إيماناً ولا صلاة ولا ثقافة عامة ، بل التي يعتبر من العيب الفاضح أن يعرف لها اسم ، أو يبدولها شبح! لأنه لا وظيفة لها إلا إعداد الطعام ، وإرضاء لبعل !! ..

(١) المنتحنة : ١٠٠ .



## ٨٧. ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي؟

في النشاط الاجتماعي للمرأة يمكن أن نعرف أبعاد هذا النشاط إذا ذكرنا أن قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشمل الرجال والنساء على سواء، وذلك ظاهر قوله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (١).

إن الأمر والنهي والصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ليست حكراً على أحد الجنسين، والزعم بأن المرأة تصلى وتركى وتسكت في ميدان النصيحة زعم باطل..

والذي حدث في القرون الأخيرة، في قرى كثيرة أن المرأة سقطت عنها هذه التكليف كلها، فلا تصلى أو تركى، إلا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر بحسب الملابس!

على أن حراسة المجتمع تنقل من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، وهنا تبتعد المسافة بين أقوال الفقهاء في الإمكانيات التي تعطاها المرأة، ويبلغ الاختلاف حد التضاد..

فابن جرير الطبري يجيز للمرأة القضاء في كل شيء يجوز للرجل أن يقضى فيه دون استثناء!

ويقول الأحناف - كما جاء في البدائع - إن الذكورة ليست شرطاً لتقلد منصب القضاء في الجملة، لأن المرأة من أهل الشهادة في الجملة، إلا أنها لا تقضى في الحدود والقصاص لأنها لا شهادة لها في ذلك، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة!

وهنا نسأل: ما قيمة شهادة المرأة في الحدود والقصاص؟ والجواب أن جمهور الأئمة يردّها!.. جاء عن الزهري رحمه الله، مضت السنة من رسول الله والخليفين بعده أنه لا تجوز شهادة النساء في الحدود والنكاح والطلاق، وفي رواية أخرى والدماء!..

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله! ويجيز شهادة النساء في كل ما ذكر! ويقول في حديث الزهري: إنه بلية، وإن إسناده منقطع، وهو من طريق إسماعيل بن عياش - وهو راو ضعيف - عن الحجاج بن أرطاة - وهو هالك - تلك قيمة حديث الزهري عنده..

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة في كل قضية بعد مضاعفة النصاب، فيقبل في حد الزنا ثمانى نساء بدل أربعة رجال!

والدليل الذي يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر في حديث مسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، وما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلنا: بلى»..

فقطع رسول الله بأن شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل.. قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل - حيث يقبل رجل لو شهد - إلا امرأتان، وهكذا مازاد..

ويفسر ابن حزم قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (١).

فيقول: هذا متوجه بعمومه إلى الرجل والمرأة والحر والعبد، والدين كله واحدا! لا حيث جاء النص بالفرق بين المرأة والرجل، وبين الحر والعبد، فيستثنى من عموم إجمال الدين!..

وقبل ذلك يقول ابن حزم: وجائز أن تلى المرأة الحكم، وهو قول أبي حنيفة، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه ولي الشفاء - امرأة من قومه - السوق..

فإن قيل: قد قال رسول الله ﷺ: «من يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة، قلنا: إنما قال رسول الله في الأمر العام الذي هو خلافة..

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «المرأة راعية على مال زوجها وهي مسنولة عن رعيته». وقد أجاز المالكيون أن تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص بمنعها من أن تلى بعض الأمور..

والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة في المعاملات المالية لقوله تعالى : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (١) ..

وقد نقلت في أحد كتبي كلاماً للأطباء عن اعتلال مزاج المرأة وبدنها عند الدورة الشهرية وقلت : لعل ذلك سر توكيد خبرها بأخرى معها ، والضلال هنا يعنى الذهول والشروء .

وأبادر إلى القول بأننى لست ظاهرياً ، لكنى أتبع الدليل حيث كان ، وكثيراً ما أرفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه ، لأن وجهات نظر أخرى بدت لى أرجح .

وغايتى خدمة الإسلام بما يناسب المرحلة التى بلغت الإنسانية كلها فى هذا العصر الخطير ..

إن تعاليم الإسلام قسمان ، قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه ..

وهذا القسم هو صلب الدين ومعقد أموره ، ولا أثر لاختلاف الأمكنة والأزمنة فيه ، والدعوة عامة إنما تكون إليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا إنما تكون عليه ..

أما القسم الآخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

إن المجال رحب هنا للأخذ والرد والفعل والترك .

وقد رفض أولاً الألباب أن يكون رأى مجتهد ما بمنزلة الوحي المعصوم فى الأخذ به والتعويل عليه .

ومن ثم يجب ترك الناس أحراراً فى التحول إلى غيره لسبب أو لآخر .

ولتوضيح ما أعنى أريد - وأنا أعرض الإسلام فى بلاد أخرى - ألا أغير سلوكاً فى هذه البلاد يرى بعض فقهاءنا ألا جرح فيه ..

فإذا كانوا يقتنون الكلاب فليفعلوا فمالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة الريق والعرق ، وقد كان للفتية المؤمنين من أهل الكهف كلب يلزمهم فى أحلك الأوقات .

وإذا كانوا يسمعون الموسيقى فليفعلوا ، فالغزالي وابن حزم وغيرهم يرون سماعها ولا مساغ لزوجهم عن أمر ليس لدينا قاطع فى منعه ..

وإذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا فما أستطيع باسم الإسلام أن أحظر عليهم ذلك ، إن الحظر عندنا رأى مجتهد ، وليس وحياً حاسماً .  
الشيء الذى أتثبت به فعلاً وتركاً ما انعقد إجماعنا عليه .

أما عرض بعض المذاهب السائدة أو الشاذة ، وعرض بعض التقاليد البدوية أو الحضرية على أنها الإسلام ، فهذا ظلم للإسلام ، وربما كان صدأً عن سبيل الله ..

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الأول الذى نشر الدين عقائد وعبادات وأخلاقاً وقيماً جوهرية .. وقلما اكترت بالتوافه والأشكال ..

وأمر آخر أريد التنبيه إليه . أرى مع سير الزمن أن تغلغل النظر فى الاجتهادات الفقهية لتعرف بدقة نتائجها التطبيقية .

إن الأئمة الأربعة أمضوا الطلاق الثالث ثلاثاً ولو بكلمة واحدة ، وغبرت على ذلك قرون ، ثم جاء ابن تيمية وغيره فجعلوا الثلاث واحدة ..

وكنت فى مصر أرقب أثر الطلاق على كيان الأسرة فوجدت صلوفاً رهيباً فى هذا الكيان جعلتى أؤثر فقه ابن تيمية وغيره ، وأؤيد تحول المحاكم الشرعية عن رأى الأئمة .

لقد تركوا اجتهاداً إلى اجتهاد ، ولا حرج ، فالعصمة للوحي وليست لبشر ما ..

وما يقال فى قضايا الطلاق يقال فى معاملات أخرى تجارية وزراعية ، كانت مسرحاً رحباً لأنصار الفقهاء الأقدمين ، أنه لا قداسة لاجتهاد ، والخلود لكتاب الله وستة رسوله .

وبديه أننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله ، ولا نفتح الباب للأدعياء والدجالين ومن لا قدم لهم فى علوم الشريعة ..

وبديه أيضاً أننا نضاعف الأسوار حول المقطوع به ، ونستमित دون أن يمسه أحد ..

وقضايا المرأة فيها نصوص قطعية ، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب . ويؤسفنى القول بأن الجراءة على النصوص المستيقنة كان سببها تشبث المقلدين البلبه بأفكار رديئة عن حقوق المرأة العادية والعبادية ..

إن الله أمر بالغض من البصر ، ووجه هذا الأمر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من أمر بمنع النظر أصلاً ..

فلا يجوز للمرأة أن ترى أو تُرى ، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبداً فى البيت ..

ونشأ عن ذلك الغلو قتل إنسانية المرأة وإضاعة حقوقها الدينية والمدنية ..

ثم جاء من يعالج هذا العوج ينقل تقاليد أوروبا وأمريكا ، أى استبدال داء بداء .. ونحن نأبى غباوة هؤلاء وانحلال أولئك!! .. ونريد الأوضاع التى عرفها العهد النبوى والفقه الذكى الذى يدرك هذه الأوضاع ..

إن محدثاً جليل القدر كأبى عبد الله البخارى نظر إلى السنن الصحاح ثم استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكاماً يرفضها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب المرضى يذكر إمام المحدثين هذا العنوان «باب عيادة النساء الرجال ، وعادات أم الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار .. إلخ» ..

وفى مكان آخر يثبت عنواناً آخر «باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال» و «باب غزو المرأة فى البحر» .. إلخ .

ولو أن امرأة طلبت شيئاً من ذلك فى بعض البيئات التى تحترق التدين لضربت حتى الموت ، إنهم يقرءون البخارى للبركة لا للقهقهرة ..

وقد يسطون ألسنتهم فينا بالقدح ، لأننا أحيينا هذه الحقائق من ديننا السمح .. ومع ما ذكرنا فنحن نؤكد أن نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ، وأن حق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الأخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية ، وأخرى إنكليزية أن عمل المرأة فى بيتها هو رسالتها الأولى .. وهذا تفكير جيد . فإن منصب «ربة البيت» منصب كبير وهو فى نظرى يحتاج إلى مؤهلات رفيعة ..

وإنشاء الحياة وفق المقررات الإسلامية يتطلب حظوظاً مضاعفة من العلم والخبرة ، فكيف توائم بين شتى الأوضاع والغايات؟ ..

ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتنسيق ..

## ٨٨. ما نظرة الإسلام إلى الأسرة،

### وما عمل المرأة فى بنائها؟

الذين خبروا الحياة فى أوروبا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أذكى وأقوم .. إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعتهم ميادين العمل والعلم ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضنة ، وانشغل كل امرئ بعد - بما انشغل به ..

وهم يسمعون عن جو الأسرة فى بلادنا ، وربما حلمت بعض المراهقات أن تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكرى والنفسى الذى يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات عن التعرض لمأسيه . وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيراً من الجاهلة التى تعيش داخل هذا البيت ..

ألا فلنعلم أنها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد ، وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .

وليس الإنتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا فى توارث العقائد ، وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل ..

إن الأسرة هنا حصن الدين وسياس مبادئه وعباداته ودور المرأة وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء .

وعن عظمة هذه لتعمة يقول الله سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (١)

إن الرجال هم حملو الأعباء الثقيل فى قافلة الحياة السائرة ، سواء كانوا أساتذة أو ساسة ، أو أجراء أو بعة فهم يعودون إلى بيوتهم فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول ..

(١) النحل : ٧٢ .







## ٨٩. يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة، فما قيمة هذا الرأي؟

في العصر الأول وجدنا عمر بن الخطاب - وهو المشهور بغيرته - يولى على سوق المدينة الشفاء بنت عبد الله المخزومية قضاء الحسبة، وهى وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة ..

وذكر ابن كثير فى كتابه «البداية والنهاية» أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير النساء فيمن يخلف عمر بعد مقتله - من الستة المرشحين - فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره ..

كانت النساء تستشار! ولم لا وقد استشار النبي أم سلمة عندما تقاعس الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

أما المرأة المسلمة فى العصر الأخيرة فقد ماتت أدبيًا وراء تقاليد جاهلية ليست من الدين حتى دهمتنا الحضارة الحديثة بمنازعتها المادية ومسالكتها الإباحية، فلم يدرك أهل الدين ما يفعلون .. لقد طالعت فى السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الأول فى صورة أرحم وأرحب من الصورة التى يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم، وهى صورة قائمة موحشة .

روى مسلم فى صحيحه أن جارا فارسيا للنبي ﷺ كان طيب المرق، فصنع لرسول الله - طعامًا - ثم جاء يدعوه فقال: وهذه - لعائشة - فقال الفارسى: لا فقال رسول الله ﷺ: لا! أى لا أذهب معك وحدى . فعاد يدعوه . فقال رسول الله ﷺ: وهذه .. قال: لا .. فقال رسول الله ﷺ: لا .. ثم عاد يدعوه - للمرة الثالثة - فقال رسول الله ﷺ: وهذه! قال الفارسى: نعم . فقاما يتدافعا حتى أتيا منزله (١) ..

وروى البخارى أن أبا سعد الساعدي دعا النبي ﷺ لعمره، وأصحابه رضى الله عنهم، فما صنع لهم طعامًا ولا قربة إليهم إلا امرأته أم سيد، فقد بليت من

(١) ربما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب، لكن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين، كما قرر ذلك المحققون ويبدو أن الفارسى المضيف كان قد أعد الطعام لواحد فقط ولذلك تخرج من قدوم ضيفين معًا .. ولم يدرك أن طعام الاثنين يكفى ثلاثة، وأن الرسول الكريم يريد إيناس زوجته على مائدة فارسية .

الليل تمرات فى تور - إناء من حجارة - فلما فرغ النبي ﷺ أمأشته له - أى هرسته بيدها - فسقته تحفه بذلك - وكانت امرأته خادمتهم يومئذ وهى عروس .  
وبديه أن ذلك الاختلاط المحدود تم فى إطار تعاليم الشريعة التى توجب على المرأة المتحشمة الكاملة ..

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقد زعم البعض أن النقاب كان مضروبًا على الوجه، فلم يبد من المرأة شئ قط .. وهذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثني عشر حديثًا فى أصح كتب السنة تشير إلى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبي ﷺ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شئ من ذلك، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون ..

ومع ذلك فإن ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلقون السواقر بلسان حاد، مع أنهم تامات الحشمة، ويرون انسياقا مع أفكار غبية أن وجه المرأة ويديها وصوتها عورة! ..

مات سعد بن خولة فى السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملا، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة - قبل أربعة أشهر وعشرة أيام - فتركت المرأة إحداها، وتحملت للخطاب - اكتملت وتخصبت وتهايات - فلقيها رجل اسمه أبو السنايل، وأنكر عليها ذلك وقال لها: لعلك تريدين الزواج؟ بعد أربعة أشهر وعشر! ..

قالت: فأنت النبي ﷺ، وذكرت له ما قيل .. فقال لها: قد حللت حين وضعت .. والقصة موجودة فى الصحيحين ومسنند أحمد، وهى كقصص وقعت فى آخر حياة رسول الله ﷺ، ولا مساغ للزعم بأنها قبل الحجاب ..

إن شيئا آخر غير دين الإسلام يراد فرضه على الأمة الإسلامية ..

والذين يريدون ذلك يخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية ..

والشئ الوحيد الذى يذكرونه هو التأسى بأمهات المؤمنين، ونقول: لو كان التأسى بهن مطلوبًا فى هذه القضية فلم تركه الرسول وصحابته، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض؟

والواقع أن تنظيم البيت النبوى خضع لظروف خاصة، وقد صرح القرآن بذلك

عندما قال لزوجات الرسول: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (١) ..

(١) الأحزاب: ٣٢ .

والأمر القصة ثابتة في البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن أبي شيبة  
والمعجم الكبير وصحاح ابن خزيمة وصحاح ابن عسكروني وصحاح ابن الجوزي

[illegible][illegible][illegible]

(1)  $R_1 \rightarrow R_2$  : 00

... و ...  
...  
...  
...  
...

[illegible]

(۱) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ﴾

[illegible][illegible]

كشف وجهها ، أو اتهمها بيث الفتنة وقلة الحياء! . ولكن الملكيين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على المشرع الأعظم ، وإطلاق ألسنتهم فى الناس ويريدون طي هذه السنن الصحاح ، وإبراز آثار منكرة تفيد أن المرأة تغطى عيئنا وتبدي أخرى! .. أو تغطى جسدها كله من الوجه إلى القدم ، فلا يرى منها شيء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الآخر عورة!! ..

إن هذا الغلو أعقب - على امتداد القرون - آثارا اجتماعية سيئة قتلت شخصية المرأة ، وإنسانيتها وأساعت ولا تزال نسيء إلى الإسلام ..

يقول البعض : لا بأس أن تضع المرأة نقابا على وجهها اقتداء بنساء الرسول ﷺ .. نقول : ولا بأس أيضا من تحريم الزواج على المرأة إذا مات زوجها امتدادا لهذه الأسوة .. إننا نريد التزام خط إسلامى صحيح لا علاقة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات وإهدار آدميتهن ..

إن الغضب لله على العين والرأس .. أما الغضب لتقاليد ملصقة بالوحى دخيلة عليه فشيء لا نكثر له ، ولا نخشى أصحابه ..

قال لى صديق : إن الطريقة التى تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليد قوية ومذاهب مستقرة ، وهذا يسىء إليك وقد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس فى ميادين أخرى .. قلت : نصيحة مقدورة! .. وأحب أن أذكر لك ما عندى لتدرك ما هنالك .

إننى فى هذه القضية وفى غيرها أرفض الأحاديث الموضوعة والواهية ، ولا أحترم التقاليد التى تبني عليها .. إن العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم إليه ، والأساس المرعى هو كتاب الله وسنة رسوله ..

وإننى أعوذ بالله أن أكون قد خرجت عليهما ، إن المتواتر يحكمنى والصحيح يلزمنى .. أما الروايات الأخرى فلا أكثرث .

ومازلت أذكر أن رئيس جماعة إسلامية كتب مقالا ضدى تحت عنوان «مدير المساجد يكذب رسول الله!!» ..

وقد اقشعر جلدى من التهمة ، فأنا أحد الأرقاء لجميل محمد ، الشاعرين بعظمته ، المتابعين لسيرته ، فكيف أكذبه!! ومحور المقال حديث منكر يقول إن المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد ..

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكتنب للتواتر والصحيح فى قضايا المرأة كلها! وهذا ما فعله البعض وأقام بعدئذ تقاليد فرضها على الدين فرضا ، كيف احترام هذه التقاليد؟ .. وهناك آثار صحيحة السند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما مالوا إليه من فهم وإن كان معتلا ، وليس لهم إلزام غيرهم .. فقلوه تعالى :

﴿ لَا يُدِينُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١)

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبدا ، ولا يجوز إظهارها بتاتا ، وإن الاستثناء هو لما يقع أحيانا من مجاذبة الريح للثياب المضروب على لوجه ..

إن كشف الوجه كان العادة السائدة ، وربما تنقبت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى ﷺ اعترض امرأة سافرة ، والسنن شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائما على هذا الوضع دون تكبر ..

وتأمل فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده - والحديث صحيح - قال عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر رضي الله عنه وهو بالربذة - أيام عثمان - وعنده امرأة سوداء مشعثة ليس عليها أثر الحاسن ولا الخلو - الطيب - فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى هذه السويداء؟ .. تأمرنى أن أتى العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا على بدنياهم .. وإن خليلي رضي الله عنه عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقا ذا دحض ومزلة ، وأنا إن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار أخرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونخن مواقعير ..

يعنى إذا كنا خفافا فى الدنيا قدرنا على النجاة من هذا الطريق الزلق ، أما إذا أوقرنا أحمالها وأنقلنا مآربها فسنهوى .

وأبو ذر يشكو امرأته ليعض صحنه ، لأنها تشير عليه بالارتحال إلى العراق ، وقد رأى الصحب المرأة ووصفوها بما قرأت ..

أعرف أن هناك من يرى أن المرأة لا يجوز أن يلمح لسيحها فى مكان! فما الذى يجعل هذا الكلام هو دين محمد ، إنه أمر بالغ السخف أن يرى أحد رأيا ثم يقول : هذا هو الدين ، لا دين غيره ..

نعم قد قال : هو وجهة نظر فى فقه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هذا ، وإنما أضم إلى الموضوع حقيقة أخرى ليست خاصة بالميدان النسائى ، وإنما تعم كل ميدان اختلفت فيه آراء المجتهدين ..



هناك خلافات لا يضر بقاؤها إلى قيام الساعة ، فليقت من شاء في صلاة الفجر أو لا يقت ، إن مذاهب المجتهدين هنا تترك آثاراً مهمة في مسيرة المجتمع .  
 لكن هناك من يرى أن الخمر والحشيش والأفيون سواء في الحرمة ، وهناك من يفاوت بينها ، بل هناك من يبيح بعضها! وقد شعر أولو الألباب أن الأمم التي تقبل على المخدرات أسوأ حالاً وأضعف إنتاجاً من الأمم التي تشرب المسكرات ..  
 فهل يقبل من أتباع بعض المذاهب الفقهية القول بأن الإسلام يبيح كذا من المخدرات فلا تحرموا ما أحل الله؟ ..

لماذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما إذا كانت الأيام قد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة؟ ..

ولماذا يريدون جعل ما يعتنقون ديناً لا يمس؟! ولحساب من هذا التعصب والحماص؟!  
 الأمر كذلك في قضايا المرأة .. إن ترددها على المساجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر ..

ثم نبئت وجهة نظر أخرى فحرم عليها الذهاب إلى المساجد ، وحظر عليهم التعلم .. وهذه الوجهة لاتعدو أن تكون فهماً رديئاً لأثر ما أو تباعاً أعمى لحديث موضوع ..  
 ثم انهار العالم الإسلامي كله ، وأصبح رجاله ونساؤه أمثلة مزرية للتخلف ، فإذا جاء من يعيد الكرامة الأدبية والعقلية للمرأة . ويعيد الأمة إلى معالم سلفها الأول . قيل له : لا! ..

والدليل؟ فقه مغشوش! أو نقل مريض ، أو رأى امرئ يريد التقدم بين يدي الله ورسوله ليجعل من سلوكه وإدراكه النهج الذي يفرض على الكتاب والسنة لا نهج غيره ..

إننا نؤكد أن النصوص على العين والرأس ، وأن الخلاف الفقهي وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لإحداها ، وأن من حق المسلمين في أي بلد أن يدعوا رأياً تبين من تطبيقه أنه حطهم في الداخل وأزرى بهم في الخارج ..

ولا يوصف أبداً ترك هذا الرأي بأنه ترك للدين ، بل إن أغلب ما يشيع بين المسلمين في المجال الإنساني مخالف للدين ، وليس وراءه اتباع محترم ..

من أجل ذلك كله أرفض عرض الإسلام في هذا العصر على أنه نقاب ، أو أنه رفض لشهادة المرأة وعملها فيما تصلح له ، أو رفض لقيادتها السيارة مثلاً ، ورفض لاضطلاعها بمهام تطبيقها مع تأكيدى أن عمل المرأة في الأسرة يصدر كل أعمالها الأخرى ويحكمها ..

## ٩٠. يرى البعض أن هناك مملكة في عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد. إلخ تؤثر في عالم الشهادة فما قيمة هذا الرأي؟ وما مصادر المعرفة في هذه القضايا وأمثالها؟

العلم الذى يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان : دينى ومدنى ، ولكل منهما مصادره المحترمة بين أهله ، وحدوده التى يقرها خبراؤه ، والراسخون فيه والعلوم المدنية متروكة للاجتهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاستقراء ، ولما كانت هذه العلوم متصلة بشئون الدنيا ، فإن دائرتها ليست وفقاً على جنس من الأجناس أو عصر من الأعصار ، والسياق العالمى فيها يجرى دون توقف! ..  
 وقد أفهمنا المعصوم - صلوات الله عليه - أننا فى هذا الضرب من المعرفة الإنسانية أحرار حرية تامة فقال : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» ..

وليت العقل الإسلامى انطلق فى هذا الميدان يستدع ويكتشف ، ويأتى بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى ..

إنه لا يتقيد فى حركته هنا إلا بالحقائق التى يستقر الناس عليها . وينتهون إليها ، وليس للوحى الإلهى دخل فى بحوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو إنتاجه الصناعى ... إلخ .  
 أما العلوم الدينية بأساسها العتيد ، النقل عن الله ورسوله ، وتستمد مكانتها من قيمة النقل ، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء : الإسناد من الدين ، ولولاه لقال من شاء ما شاء .

ولا يمكن اعتداد شئ ، ما دينا إذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها! وتتفاوت قيم الشبوت تفاوتاً شاسعاً بين التواتر المقطوع به وأخبار الأحاد المعتلة التى يرفضها البعض ، أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بفضائل ، أو بمناقب الرجال ..

على أن ما استقر عليه الأمر فى دوائر التشريع أن الأحاديث الضعيفة ليست مصدراً لحكم شرعى عملى ، وأن القضاة والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأنيب ..

فإذا لم يكن ثمت سناد من نص ديني قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن لله في هذا الأمر توجيهًا خاصًا ..

للناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لإعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين ..

إننى أثبت هذه المقدمة وبين يديّ نقل طويل قرأته لإمام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان : «مراتب أهل الغيب» مايلي :

للمصوفية - بحسب مراتب الأدواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بمفاهيم الآيات والأثار - أقوال شتى فى مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريبًا فى الآتى :

١ - الغوث الأعظم ، وفرد الجامع ، الذى هو قدم النبى ﷺ ومجاله الروحى حول العرش .  
٢ - ثم الإمامان ، وهما وزير القطب عن يمينه وشماله ، ومجالهما الروحى فى طرفى القرش (القرش بالفاء ، ما دون العرش بالعين) .

٣ - ثم الأوتاد ، وهم الأقطاب الأربعة الكبار ، ومجالهم الروحى : الجهات الكونية الأربع .

٤ - ثم الأبدال السبعة ، ومجالهم الروحى : السبع الطباق ..

٥ - ثم النقباء الاثنا عشر ، ومجالهم الروحى : البروج السماوية الاثنا عشر ..

٦ - ثم النجباء السبعون ، وهم أهل الخلوة والليقات ، ومجالهم الروحى : الأفلاك والنجمرات ..

٧ - ثم الأخيار وهم الخواريون وأهل المعارج وعددهم بين الثلاثين والثلاثمائة ، ومجالهم الروحى : أقطار الأفق الأعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الأقطاب .

٨ - ثم المفردون ، وهم الأولياء المختارون من صالحى الأمة ، ولا عدد يحصرهم ، ومجالهم الروحى الأفق الأدنى . وأقطار المدن والقرى ..

٩ - ثم الصالحون ، وهم أتقياء الأمة وهم درجات شتى ، ومجالاتهم الروحية متعددة ، ثم إن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فإذا خلا المقام انتقل إليه الخليفة ، ثم ارتفع العريف إلى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى الثانى من هو أهل للمعرفة ، وهكذا ..

وقد تختلف هذه الصورة عند بعض السادة فى التسميات والأعداد وترتيب المستويات وكلها صحيح فى ذاته معتل بدليله (كما قدمنا) وهو راجع إلى اختلاف

نسب المقامات وإفاضات الكشوف لكن مذكروناه هنا هو الأوثق عندنا ، والله أعلم .

وعندنا أيضًا أن كل مستوى من هذه المستويات مخفوف بأرواح كل من سبق أن شغله من أهل الله السابقين وعلى هذا فإن شأغله من الأحياء يعتبر مثلًا للأرواح التى سبقته ، إلى هذا المقام ، فهى تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والإفاضة .

وكما أرجعنا أقدام الأقطاب الأربعة الكبار إلى نظام أهل الملأ الأعلى باعتباره مرجع النظام الكونى كله ، والتناسب الرابط بينه وبين العالم الأرضى حقيقة مسلمة فكذلك . مقام الإمامين أحدهما مستغرق فى (الجلال) على قدم (مالك النار) ومن هنا صح مقام (الكمال) للغوث الأعظم ، جامعاً فيه بين الجمال والجلال ..

ثم نجد مقام الإمامين عند أهل الكشف مثلًا ، هما مقاماً : آدم وإدريس ، ثم إلياس وإخضر ، ومن شاء الله من أهل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الإمامين السعدان : سيد الأوس والخزرج ، والسعيدان : ابن المسيب وابن جبير ، والصاحبان الفقهيان : أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، والشيوخ المحدثان : البخارى ومسلم وهكذا ..

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب لوظائف الغيبية ، أرواحاً وهيولاً ، فى المعاهد الثلاثة المقدسة : الحرم المكى ، والحرم النبوى ، وبيت المقدس ، ثم فى أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لأهل القلوب ، على توقيت وترتيب دقيقين ، فليس فى الغيب فوضى ، ولا تجمد وعدم ، ولا انفصال الغريب المفصل المعالم !! هـ .

قرأت هذا الوصف للكون وحركات عالمى الغيب والشهادة ثم تساءلت عن هذا اللون من المعرفة : أهو مادى ألتمس أدلته من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء؟ ..

وكان أجواب السريع : لا .. فإن علماء الكون والحياة لا يقررون من هذا الكلام حرفاً ..

أهو دينى نلتمس أدلته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة؟ .

وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شاهداً ، وأخذت أتذكر ما أعرف من لسنن التى رواها البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حنبل .. إلخ ، فلم أجد لهذا الكلام شاهداً ..

قلت : هل هذا الكلام رأى فقهى يستند إلى أثر ضعيف عند الناس قوى عند صاحبه! .. إن هذه الآراء وجدت فى علومنا ، ألا ترى الأحناف يحكمون بنقض





القرآن، إنها من عند محمد (كذا)! وإنها من عند جبريل... وإياها سمعنا من عند الله..

وإيراد هذا الكلام ضرب من الجهل رفضه المسلمون أجمعون، فالقرآن ألفاظ ومعاني من عند الله، ولكن السيوطي حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تمحيص، ونحن لا نأخذ ديننا بهذه الطريقة البلهاء..

وانتنى أعجب: لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المنكورة؟! إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما تفعل وتترك..

ويمكن تسميته على الأخلاق الدينية، لأن ترائه المتقى لا يخرج على هذا الإطار وقد كان أبى رحمه الله صوفيا من أتباع الشيخ أبى خليل، فما عرفته إلا كادحاً يتقى الله فى رزقه، ويقرأ كتابه فى دكانه، ويعايش الناس على الأخوة السمحة، ولا يعرف شيئاً بعد ذلك من هذه الحيلالات.

أخشى إذا حرص صوفية العصر على التثبث بغير الكتاب والسنة أن يجنوا على التصوف جملة وتفصيلاً، فيحتاج من أصله..

ولهذه المناسبة نذكر ما لهجت به الألسنة أخيراً من تفسير الدكتور عبد الحليم محمود لأوائل سورة النجم.

يقول الله تعالى واصفاً الوحي النازل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَمَنْ هُوَ شَدِيدُ الْقُوَى (١٠) الَّذِى اسْتَوْى بِالْأُفُقِ (١١) ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنَ الرَّسُولِ فَعَلِمَهُ مَا تَعْلَمُ؟..

فى سورة التكويد يذكر هذا المعنى بأسلوب آخر ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٥) ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٦) إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (١٧)﴾..

وفى سورة الشعراء يصاغ هذا المعنى نفسه فى قالب آخر: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٧٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٧٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٧٤)﴾..

(١) النجم: ٩-٥.

(٢) التكويد: ٢٣.

(٣) التكويد: ١٩-٢٠.

(٤) الشعراء: ١٧٢-١٩٤.

قلب الرسول الأمين هو ملك الوحي، جبريل لا غير..

لكن الدكتور عبد الحليم محمود عفا الله عنه لوى عنق الآيات من أوائل النجم، وجعل الذى دنا فتدلى، هو الله - سبحانه وتعالى.

وهو خطأ مبين، وينبغى عند تفسير آية ما نزلت فى موضوعها آيات أخرى وأحاديث متعددة الروايات ألا نحصر أنفسنا داخل آية واحدة، ورواية واحدة، ثم نتعسف القول، خصوصاً عندما يتصل الأمر بذى الجلال والإكرام.

وحب رسول الله ﷺ لا يشفع فى هذا الخطأ..

لقد اعتمد الدكتور الفاضل فى رأيه على حديث للبخارى أخرجه من رواية شريك بن أبى نمر عن أنس بن مالك، وهذه الرواية مجرحة، قال النووى فى شرحه لمسلم: قد جاء من رواية شريك فى هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله: قدم وأخر وزاد ونقص!! يعنى فى الرواية التى أوردها البخارى عنه..

وهذه الرواية المنكرة تصرح بأن الإسراء قبل البعث! وأن القصة كلها رؤية منام! وأن رب العزة هو الذى دنا فتدلى!

ونقل القاضى عياض إنكار أهل العلم لهذه الرواية، قال النووى: وهذا الذى قاله القاضى عياض قاله غيره..

وقال الحافظ عبد الحق فى كتابه «الجمع بين الصحيحين» بعد ذكر هذه الرواية عن أنس - التى أثبتها البخارى - قد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأتى فيها بألفاظ غير معروفة.

هذه هى الرواية التى اعتمد عليها الدكتور عبد الحليم فى تفسيره الذى دافع عنه بحرارة وأثبته فى رسالته التى نشرها مجمع البحوث، وهو تفسير لا يقبل بتاتا!..

ولا أدرى لم تلقى الأحكام الخطيرة بهذه الطريقة المستغربة؟ ولم لا نعود إلى كتبنا الأولى نستبين منها الرشد؟..





## ٩١. هل حرم الإسلام لحوماً معينة، وهل لذلك حكمة؟

بين العباد وربيهم عقود تتصل بحقوقه جل شأنه، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسخر لهم، والأحياء التي ظللها لمنافعهم .. وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والإحساس بحرمتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ (١).

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الإجمال، وعشرة على التفصيل ذكرت في قوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (٢).

والتحريم مشروع هنا لمصالح الناس، والحفاظ على صحتهم، ولا يقال: إن الناس تأكل الخبائث ولا يصيبها ضرر ظاهر، أو أن الجماهير تشرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها، أو تكون وعكاتها خفيفة، إن هذا الكلام مردود، إذ إن التحقيق العلمي أثبت أخطار هذه السموم، وإذا كان البعض ينجو منها فلاسباب غير مطربة .. والواجب أن تنتزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات، فراراً من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة ..

أول هذه المحرمات «الميتة» وهي الحيوانات أو الطيور التي تموت حتف أنفها، ويغلب أن يكون هلاكها لمرض باطن بها، وليست الأسماك التي تموت بعد خروجها من الماء من صنف الميتة، بل هي لحم حلال ..

ثم الدم، أي المسفوح الذي يسيل من عروق الذبيحة، لا يجوز تجميعه وطبخه. ولحم الخنزير لقذارته واحتوائه على جراثيم وديدان خبيثة! ولحم الخنزير محظور في الأديان الأولى كما هو واضح في تعاليم العهد القديم، وقد أباحه «بولس» ولا ندرى لماذا؟ مع أن شرائع العهد القديم ملزمة للنصارى ..

(٢) المائدة: ٣.

(١) المائدة: ١.

وما أهلٌ لغير الله به، وهذا تحريم تعبدى محض، والمقصود قطع دابر الوثنية وما يمت إليها بصله! فما ذبح مقترناً باسم صنم أو بأى اسم آخر غير اسم الله حرم أكله .. والأصل في الذبح أن يكون باسم الله الذى سخر وأباح، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١)، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (٢).

ويرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسم الكريم مستحب وليس فرضاً، فذكر الله مستكن في قلب كل مسلم وإن لم يجر على لسانه، وأنا بوصف المذبوح بأنه فسق إذا ذكر عليه غير اسم الله، وقد اعتمد هؤلاء في فهمهم على سنن واردة! وهنا قضية أخرى: هل ذبائح أهل الكتاب باسم لصليب أو باسم الكنيسة تندرج في هذا التحريم، وتعد ما أهلٌ لغير الله به؟ يرى ذلك جمهور الفقهاء.

ومن رجال المذاهب من يخص العموم هنا بإباحة طعام أهل الكتاب التي قررت في آية أخرى، وهو استدلال قد يقبل، وإن كنت أعاف الأكل من ذبيحة على هذا النحو! ولكنى لا أعيب الأكلين ..

ومن أنواع الميتة المحرمة «المنخنقة» وهي التي شنت نفسها أو شنتها غيرها بأن لف حبلها حول عنقها حتى طاحت.

و «الموقوذة» وهي التي ظلت تضرب حتى هلكت سواء كان بعضاً أو بما أشبه بالعصا ..

و «التردية» وهي التي هوت من مكان عال، أو داخل حفرة، ففقدت حياتها ..

و «النطحة» وهي التي ماتت في صراع مع حيوان آخر ظل ينطحها حتى أهلكها.

«وما أكل السبع» التي عدا عليها وحش مفترس فأعطبها، فإذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الأخيرة، ولا تزال بها حياة، فذبحها حتى سال منها الدم، جاز أكلها، مادام قد رأى أن ذبحه هو الذى أجهز عليها ..

أما «ما ذبح على النصب» فهو من قبل ما أهلٌ لغير الله به، والنصب شاخص يقيم الناس لعنى يتواضعون عليه، كالنصب التذكاري للشهداء، أو للجندي المجهول مثلاً ..

والذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية يأباه الإسلام، ونعم به الذبيحة ..

(٢) الأنعام: ١٢١.

(١) الأنعام: ١١٨.

إن الله الذى خلق كل شئ هو الذى سخر لبنى آدم بعض مخلوقاته منها ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١)، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ تَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢) ..

وللنباتيين رأى فى ترك اللحوم كلها لا تفرهم الأديان عليه ، ولا أعرف شريعة سماوية حظرت ذبح الحيوان ..

ومادام الله هو الذى أحل فينبغى التزام الأسلوب الذى قرره فى الارتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عداه .

والحرمات التى أحصيناها هنا تكرر ذكرها فى أربعة مواضع من القرآن الكريم على طريق القصر والحصر ، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهى عن أكل غيرها من قبيل الكراهية ، وفى ذلك خلاف فقهي معروف ..

وقد أطال صاحب المنار فى التعليق على تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، واقترب من مذهب مالك رضى الله عنه ، ولا نقحم أنفسنا فى هذا الميدان ، وإنما نلفت النظر إلى أن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام قد بعث بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث! ونحن نحزم بأن ما نص الشارع على تحريمه فهو من الخبائث .. فما رأى فيما لم يتناوله الكتاب بنص ؟ ..

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : «مالا نص فى الكتاب على حله أو حرمة قسمان : طيب حلال ، وخبث حرام . وهل العبرة فى التمييز بينهما ذوق أصحاب الطبايع السليمة ، أو يعمل كل أناس بحسب ذوقهم ؟ كل من الوجهين محتمل .. والموافق لحكمة التحريم الثانى ، وهو أنه يحرم على كل أحد أن يأكل ما تستخبثه نفسه وتعافه ، لأنه يضره ولا يصلح لتغذيته . ولذلك قال بعض الحكماء : ما أكلته وأنت تشتهي فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهي فقد أكلك! ..»

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم «التغذية» وما وصل إليه الأخصائيون فى علوم الأحياء مطلوبة ، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب .. على أننا نرفض كل احتيال على إهمال النص ، فإن الإسلام حرم الخنزير مثلاً لوساخته وحمل لحمه لمصادر البلاء! فإذا جاء اليوم من يقول : إنه ربى خنازير معينة على مراعاة حسنة واتخذ ضمانات لإبقاء لحمها من مصادر العلل ، لم نقبل قوله ، ولم نستبح الحرام! ... إن ذلك يشبه ما

تزعمه شركات التبغ من أن «الفلتر» الذى تضعه فى سجاثرها يمنع القطران من تلويث الرئة .. ما أغنانا عن هذا كله ، وفى الحلال الكثير الميسور ما يغنى عن هذه الخيل .. ولا يجوز تعذيب الحيوان عند ذبحه ، وأفضل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه ، وقد رأى فقهاؤنا القدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمرىء والودجين - عرقان على صفحتى العنق - أو أكثر ذلك ، لتتم تنقية البدن من الدم الكائن فيه! يقول صاحب المنار : «إن هذا لتحكم فى الطب والشرع بغير بينة ، ولو كان الأمر كذلك لما أحل الصيد الذى يأتى به الجارح ميتاً» ..

ثم يقول : «وانى أعتقد أن النبى ﷺ لو اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان ، ولا ضرر فيها كالتذكية بالكهربائية» (١) إن صح هذا الوصف لفضلها على الذبح ، لأن قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس إلا ما فيه ضرر لأنفسهم أو لغيرهم من الأحياء ..

ولا أعرف الطريقة التى يومئ إليها الشيخ رشيد! وقد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخدر أعصابها ، ثم تقطع الرأس ، وتضى فى تهينة اللحم لأكله ، قد تكون الصدمة التى تذهب بإحساس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشبهة للمخدر الذى يتناوله المريض قبل جراحة يجريها الأطباء ولا شئ فى ذلك بداهة ..

بيد أن أعداداً من الغربيين والشرقيين يخنفون الطيور ، أو يجهبزون على حياتها بوسائل همجية أقسى من الذبح ، وإن كانوا يعيرون الذبح! وذلك مانأباه الشريعة الإسلامية .

ذلك ، وقد عطف القرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١) .

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبيزة والصقور يكون بالأسلحة الفاتكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُتْلَوْنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ (٢) .

وفى عصرنا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الأسلحة النارية التى تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة . وعند إدراكه حيا ينبغى أن يذبح الذبح الشرعى المعبود ، وإلا فإن موته بأى أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له ..

وليس الصيد مسلاة لطلاب الله وهواة قتل الحيوان ، بل هو مصدر من مصادر التغذية التي كان الناس ، ولا يزالون في بعض البيئات يحتاجون إليها ..

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه ، أو يطلق رصاصه ، وروى ابن جرير : «إذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج ، أي إن عدم الذكر لا يحرم الصيد» ..

وروى البخاري أن قوما قالوا : يا رسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندري ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : «سموا عليه أنتم واكلوا» .. وكانوا حديثي عهد بكفر ..

تابعت عن كُتب النقاش الحاد الذي دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الأمم ؛ وكان الناس يطلبون رأيي فأقول في قلة اكتراث : من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها ، ومن شاء تركها ، واستعاض عنها بما يحب .. وألح عليّ بعض الإخوة أن أُلّى برأيي في القضية .. فلم أر بأساً من نقل وجهات النظر فيها مع تعليق لابد من إثباته ..

يقول الشيخ عبد الله بن زيد رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر : «كل ذبيحة من حيوان ، أو دجاج تجلب إلى الناس وهي مجهولة ، لا يعلم من ذبحها ولا كيف ذبحها ، فإنها تندرج في عموم الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنهم قالوا : يا رسول الله إن قوما حديثي عهد بجاهلية يأتوننا باللحم ، لا ندري ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : «سموا الله أنتم واكلوا» ..

وقد أباح القرآن ذبائح أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط ، وما سكت القرآن عن تحريمه فهو حلال لقول رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى ليرض فرانس فلا تضيعوها ، وحد حدود أفلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها» .. قد يقال : إننا نعلم بيقين أن من أهل الكتاب من يذبح باسم الصليب ، أو من يخنق الطيور ، أو من يهوى بمنقل على أم رأس الحيوان فيقتله ، فكيف نطعم شيئاً من ذلك ؟ ..

قلت للسائل : هذا بحث قديم ، وقد اختلف الفقهاء فيه ، فمنهم من أخرج هذه الصور المحكية تحت عنوان «ما أهل لغير الله به» أو تحت عنوان (المنخقة) أو تحت عنوان «الموقودة» .. واستثنائها من ذبائح أهل الكتاب المباحة .. ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهل الكتاب المباحة بالنص ، واستثنائها من المحرمات السابقة ، وقال : الله أعلم - إذ أباح أطعمتهم - ما يقولون وما يفعلون .. من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله فقد جاء في «المدينة» أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها ، فقال أكره ذلك ولا أحرمه !

إن الله أباح لنا ذبائحهم وقد علم ما يفعلونه . وقال القاضي ابن العربي المالكي في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ﴾ (١) .. قال : وسئلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها ؟ فقلت : نعم كلوا منها ، فإنها طعام أحبارهم ورهبانهم ، وإن لم تكن هذه الطريقة ذكاة عندنا .. ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقاً ..

الخلاف الفقهي قديم كما نرى ، والأساس الشرعي لكل مذهب قائم ، من شاء تبع هذا فأكّل ولا حرج ومن شاء تبع هذا فامتنع ولا حرج .. ولا أشتغل بمزيد من عرض الأدلة المتقابلة لا تأييداً ولا تنفيذاً ، فوراء هذه القضية أمر آخر يتصل بالسلوك الإسلامي العام ، أو يتصل بحاضر المسلمين ومستقبلهم لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطيور ؟ .. لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها في بلادهم ؟ هل تربية الأبقار والدجاج تحتاج إلى أخصائيين في علوم الذرة ؟ وعندما تصاب قدرات المسلمين بالشلل في مجال الثروة الزراعية والحيوانية فهل ينتظر لهم تفوق أو نجاح في الميادين الأخرى ، يراً وبحراً وجواً ؟ إن الحماس في عالم الجدل مرض عفن إذا صحبه برود في عالم الإنتاج .. وقد رأيت التدين التقليدي يتسم بهذه الخاصة المزعجة ، قصور في فهم أو في عرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تراشق بالتهم ، وتبادل لسوء الظن .. فإذا تطلب الإيمان ضرورة اكتفاء الأمة بمواردها ، واستغنائها عن سواها تبخر الحماس ، وخلا الميدان .. لست من هواة التغلغل في الفروع الفقهية ، فإن أصول العقيدة والأخلاق والتشريع تهمني وتستغرق وقتي . وما أنظر في الأمور الفرعية إلا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقصى التزمتمين والمعلولين عن أماكن الصدارة ..

إن حاجة المسلمين إلى القمح لصنع الرغيف ، أو إلى الدواء لعلاج العليل ، أو إلى اللحوم ميتة أو حية شيء - في نظري يهدد عقائدهم ذاتها ، ويجعلهم يعيشون عالة على أهل الأرض ..

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض إلى عمل إيجابي ؟ أم تبقى مهمة بعض المتدينين اظعن في الدواء ؛ لأنه ذائب في «الكحول» ورفض اللحم المستورد لأن ذكاه موضع ريبة ؟ .. ثم ينتهي دورهم ! .. إنني أقدر النية الحسنة لكل من شارك في هذا البحث . ولكن الطريق لما يهدف بعد لعمل جاد تتحرك به أمة كسول ! .

## ٩٢. هل توجد صحوة إسلامية معاصرة؟ وما أبعادها؟

لست بعيداً عن هذا الميدان ، بل أحسبني واحداً من الكادحين في جنباته . لقد تلقيت العلم على مجاهدين ذوي صلابة ، ثم قمت بتعليم شباب سبقوني سبقاً بعيداً في إحراز الرضوان الأعلى ، لأنهم ماتوا شهداء في سبيل الله ..

إنني لمست بيدي صحوة الإسلام في هذه الأيام ، وصافحت بحرارة وحب رجالاً يقاتلون عن بقايا الإسلام في «الفلبين» على شواطئ الهادي ، ورجالاً آخرين يحرسون موارث الإسلام على شواطئ الأطلسي .. وبين الشاطئين المتباعدين قامت مدارس مجاهد بالقلم وكتائب مجاهد بالسلاح ، تذود الغزوين الثقافي والعسكري عن أراض فيحاء نام سامتها حيناً من الدهر ، فدفعوا ثمن نومهم ذلاً فادحاً واستعماراً فاضحاً ..

إن الصحوة الإسلامية حقيقة قائمة! ولكن الإعداد لسحقها وتبديدها حقيقة أبرز للعين وأرهب للنفس ..

والمستشرقون الأوربيون يعرفون طبيعة الإسلام ، ويرصدون تاريخه القديم والحديث بعيني ذئب جائع وتدبر قول المستشرق الألماني «باول شمتر» في كتابه «الإسلام قوة الغد العالمية» الذي صدر من نصف قرن تقريباً : «إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير لأوروبا وهتاف يحجب آفاقها ، يدعوها إلى التجمع والتساند لمواجهة العملاق الذي بدأ يصحو» ..

ويقول : «إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصيبها الوهن! ولم تفلح الأحداث الكثيرة في زعزعة ثقتهم به .. وإن الروح الإسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم .. وستظل كذلك مادامت الشعوب الإسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة» ..

إن هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من إعداد لضرب الإسلام غيلة أو جهرة ، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة ..

والحق أن الصحوة الإسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة ، يشارك في صنعها مبشرون ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء وإعلاميون ، وملاحدة وكتابيون ، ومصارعون ومدهتون وأناس غرباء وأناس من جلدتنا ..

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الإسلامية من معدن إسلامي صاف يجددون سيرة سلفنا الأول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو إلى الله وحده .. لقد كانت الدعوة الإسلامية تعلن إفلاسها منذ قرنين تقريباً ، بل لقد تركت الميدان خالياً لشتى الملل والنحل تنشر الخرافة وتعلي راية الباطل .. ثم بدت تبشير صبح جديد وتيقظت الثقافة الإسلامية من سباتها تدافع بقوة وتمهد لغد أفضل ..

وأريد أن أقدم للصالحين الجدد بعض ما أفدت من تجارب حتى يتجنبوا التكرار ، وحتى لا يقدموا أرض الإسلام غنيمة باردة للمترصين من كل لون .. إنني أشعر بالزعاج حين أرى المجاهدين في قطر ما يبدؤون العمل من الصفر ، غير منتفعين بما حدث لإخوانهم في قطر مجاور ، بل حين تبدأ جماعة ما العمل غير منتفعة بما وقع لزميلتها في القطر نفسه من بضع سنين .. إنهم يلدغون من جحر واحد مرتين ، أو أكثر دون وعي ..

ماتقول في مدير يبدأ العمل في شركة مضطربة دون أن يدرس أسباب الاضطراب ومسالك المديرين من قبله ، وأسرار فشلهم أو توقفهم؟ ألا يستحق التأديب؟ ..

إن خسائر جسيمة أصابت الدعوة الإسلامية من هذه القيادات الذاهلة ..

ولا يقبل في هذا المجال اعتذار بحسن النية ، ولا تنجو الأمم المسترسلة وراء هذه القيادات .. وإذا كان الجهل بقوانين البشر لا يتجنى من اللاتمة ، فإن الجهل بسنن القدر أسوأ عقى ، ومن هنا رأينا الحساب شديداً للمنهزمين في أحداً قيل لهم دون مواربة لما سألوا عن سر هزيمتهم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (١) ..

ويوجد عاملون في الحقل الإسلامي يظنون أنفسهم فوق المساءلة ، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة! ..

والذي أراه أن القوم يعانون عللاً نفسية ، وأنه لا بركة هنالك بل فوضى! ..

ولأترك هذا التعليق العابر إلى أخطاء لها جذور في ماضيها الطويل ..

كان الأدباء قديماً يلتزمون السجع في مقالاتهم ، وممرت بالأدب العربي عصور احتبس فيها داخل هذه القيود اللفظية ..

وال التزام السجع يتم على حساب المعنى غالباً ، فلن نجد فكراً عميقاً ولا أداءً مناسباً سهلاً ولا معالجة خصبة ثرة تختلف القضايا والموضوعات ، بل إن السجعة قد تخلق

(١) آل عمران : ١٦٥ ..





وقبل ذلك كله وبعده هل هذه الأحكام تسبق في الترتيب إحياءات العقيدة ، ومقررات الأخلاق ، وضوابط التربية ؟ لا .

إن الذي يكره مسلماً لأنه لا يضع يديه تحت رقبته في الصلاة ، أو لأنه يقتل في الفجر مثلاً ، رجل منحرف ضعيف الخلق ..

وإنقائه للصلاة على النحو الذي يألف لا يحو عنه هذه الوصمة فالخطأ الفقهي مأجور ، أما الخطأ الخلقي فهو إثم ، وهذه الأخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التي تسلب منها الغزو الاستعماري وفنك بنا ..

أحسست غضباً شديداً وأنا أسمع مفتياً في إحدى الإذاعات يجيب عن سؤال وجه إليه : هل يجوز إخراج زكاة الفطر نقوداً؟ قال المفتي : لا يجوز ، ومن أخرجها نقداً وجب عليه أن يعيد إخراجها شعيراً أو قمحاً ، واستتلى : إن هذا التصرف بدعة ، ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه ..

وخيل إليّ من غضب المفتي أنه لو وجد أبا حنيفة لأمسك بخناقه وأحمد أنفاسه لأن هذا الإمام يرى إخراج الزكاة بما هو أنفع للفقراء نقداً كان أم حبوباً ..

وأغلب المسلمين يتبع هذا الرأي ، فلماذا نخرجهم؟! .. ولماذا نرى فهمنا هو وحده الدين؟ .. لم ضيق الأفق .. وقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ .. إن المتوقعين في نطاق الأحكام الفقهية المحدودة يسيئون أكثر مما يحسنون ..

وحدث في إحدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوساً على بعض مقاعد الحديقة وخف الكل إلى استقبال أستاذهم وقوفاً ، إلا واحداً ظل على كرسيه لم يتحرك ، زاعماً أن ما فعل هو السنة ! ..

قلت : إن الرسول ﷺ قال للأوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : قوموا إلى سيدكم! والطلاب الذين قاموا مرحبين بعميدهم أقرب إلى الفطرة والسنة والأدب من هذا الطالب ، وهو يسىء إلى الإسلام بهذا المسلك .

قال لي أحدهم : إنه طالب محافظ يربى لحيته ! قلت : تربية اللحية من سنن الفطرة ، وتربية النفس من أركان الإيمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع؟ ..

إن الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلي يحفظ حركات جسمه ركوعاً وسجوداً ، ويبدأ محاكاته فيها .. أما مشاعر الخشوع

ومعاني الكلمات فهو لا يراها ، ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلاً بالدراسة والتجربة والمعاناة ..

والأم الطفلة هي التي تبرع في تقليد الشكل وتفصله فصلاً تاماً عما ارتبط به من معان ، فهي في ميدان الأدب تحسن السجع والجناس أكثر مما تعمق الفكرة وتسدد النظرة ، وهي في ميدان الدين تضحى بوحدة الأمة في سبيل إخفاء البسمة أو الجهر بها ..

وسلفنا الأول كان أرفع كثيراً جداً من هذا المستوى ، ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته .. هل من الصحوة الإسلامية أن يهمل البعض التفوق الصناعي مدنيّاً كان أو عسكريّاً لانشغاله بحكم الصلاة في النعال ، وجواز دخول المساجد بها؟ هذا المسلك إغماء عقلي وهوس ديني ، ولا يوصف أبداً بالخير ..

ثم - أيصنع العقل الغربي السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها «عين الحسود فيها عوداً» .. أو كايده الأعداء! ..

إن أية يقظة إنسانية إنما تنهض بدءاً وختاماً على حدة العقل ، وسناء القلب ، والإسلام إنما أنهض العرب وحلق بهم في الأوج لأنه أنعش هذه الملكات الإنسانية وأطلقها تسعى ، والصحوة الإسلامية الحاضرة ينبغي أن ترسم الخطأ الأولى لا أن تتبع خلوقاً ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء ..

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن؟! .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير في الشوارع برتابة وكياسة؟! .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير في أداء الشهادات وإجراء الانتخابات ضرب من الوثنية؟! .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف ندفع الكفاءات إلى الأمام ونرد التافهين إلى الوراء؟! ..

إن هناك أبجديات في الفطرة الإسلامية لا ندرى لماذا ننساها؟! ولن تتم صحوة إلا عندما نفتتح بها أولاً ..

قال لي صديق عالم في «الجيولوجيا» : إنني قلق الآن أمامنا عشرات السنين حتى نظوى مسافة التخلف الحضاري بيننا وبين من سبقونا في ميادين الذرة والفضاء والطاقة وغيرها! .. ودعم الحق ميثوس منه بالوسائل البدائية ..

قلت : إنني أؤمن بعون الله .. ثم استتبت أقول لنفسي ولكل مهتم بأمر دينه : إن العون الأعلى يظفر به الصاحون بين السكارى! فلنجهتهد في ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتي جناها ..

## ٩٣. ما مكانة العمل والعلم في الإسلام؟ وهل هما قاصران على العمل العبادي والعلم الديني؟

الإسلام هو الوحي النازل على محمد ﷺ ليوجه به الحياة إلى ربها ، ويهدي الناس كافة إلى الصراط المستقيم .. أي إنه حقائق مقررّة أولاً ثم أساليب متجددة في البلاغ والعرض ، والحماية والدفاع ..

لنفرض أن صاحب فلسفة ما اقتنع بأن مالمديه ينفع العالم .. إنه ابتداء يشرح ما عنده ويطبقه في ذات نفسه ، ثم ينتقل إلى تفهيم الآخرين بكل وسائل الفهم ، ويحتاط ضد المعتدين والمعوقين بكل أسباب المقاومة ..

وقد مضى الإسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته ، أو منذ استمع نبيه إلى صوت الوحي : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ .

إن العلم هنا من شقين ، علم بحقائق الوحي ، وعلم بطرق غرسه ، وذود الأذى عنه ! ..

في الفلسفات المادية المعتادة يسير العلمان معاً سيراً لا يتسم بأي تناقض ! .. فالشيوعية تسوى بين رجل الإعلام الذي يعرض مبادئها في الصحف المحلية والهيئات الدولية ، وبين رجل الفضاء الذي يستكشف الكون ، ويستخدم الأقمار الصناعية في الكر والفر والظفر في حرب الكواكب ! ..

كلا الرجلين يؤدي واجبه نحو مبدئه ، وكلا العلمين يعمل للأخر ويعانقه .. إننا نضرب هذا المثل ليعلم السذج من المسلمين أن تالّي القرآن الكريم في الإذاعة يعرض نوعاً من المعرفة الدينية ، وأن الذي يشرف على توجيه صاروخ في الفضاء كي يدافع عن هذه المعرفة لا يقل مكانة عن القارئ المرتل ، وقد يكون - بصدق نيته - أولى بالله منه ! ..

(١) العلق : ١ - ٥ .

إنه هو الآخر يمثل علماً لا بد منه ، ما يحيا العلم الأول إلا به ، فالإيمان أس والجهد حارس .

والواقع أن الثقافة الإسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها ، وتشعب العمل الذي يقوم به المسلمون فرادى وجماعات ، وليس في تاريخ هذه الثقافة علم ديني بعيد عن الحياة ، وعلم مدني بعيد عن الدين ، ولم يقع انقسام العلم إلى ديني ومدني إلا في عصور السقوط والاضمحلال ..

وبديه أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلمية في الإسلام ، فنشأت علوم القرآن والسنة والفقه والأخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة من خصوصية فكرية ، ونباع غزيرة للفكر والوجدان والسلوك ، إنهما مهادهما جليل لحضارة إنسانية ذكية رحبة ..

ثم صاحب ذلك ميلاد العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع ، وازدهار الأدب والبحث في فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواميس ، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءاً أصيلاً من عمل المعاهد الدينية ..

ونشطت الدراسة الفلسفية - التي تحولت في عصرنا إلى علوم إنسانية - فلم تبق في أرض الله إشارة من معرفة إلا استقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقوم مسرّها ..

ومع نضج الفكر الإسلامي ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة - وهو منطق قرآني المنبت - فكانت علوم الرياضة من حساب وجبر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، والفلك ! ..

ويكاد المنصفون من مؤرخي الحضارة يجمعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الأوروبية ، وأنهم السبب المباشر في عصر الإحياء ..

وقد كان من وراء الانتصارات العسكرية الإسلامية - إلى ما قبل بضعة قرون - تفوق علمي وصناعي ، هو الذي أعان على فتح « القسطنطينية » وحصار « فينا » ووقف الزحف الصليبي .

ويرى الخفقون أن الحرب التي نشبت بين العلم والدين في أوروبا ، قد أشعلتها الكنيسة عن عمد لأنها رأت أن الاتجاه العلمي المبتكر الناشط هو أثر الزحف الإسلامي الناجح ، وأن العلماء لباحثين هم - طابور - خامس للجهاد الإسلامي القديم .

بيد أن هذا كله تلاشى مع خمول المسلمين الأخير ، وانطفاء جذوتهم ، وانتشار الجهل العام فى ربوعهم ، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والموايىء وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الفضول .

وقد دفعوا ثمن ذلك الخطأ سوادا صيغ الوجوه وأخزى النفوس ، وجعل بلادهم بين الأطلسى والهادى مسرحاً لاستعمار أنانى ظلوم ، أكل دينهم وديناهم على سواء ..

ومن الغرائب أن بعض الفتية المشتغلين بالدين لا يزالون صرعى هذا الغلط الفاحش ، وأن المنتسبين منهم إلى كليات عملية أو مدنية يصدقون عن الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون : ندرس علوم الدين ..

ويحكم! وهل يقوم الدين إلا بالعلوم التى فيها تزهّدون؟ .

وكما لا يقوم إلا بها ، فهو ما يحسن فهمه إلا فى ضوءها .

من هؤلاء الفتية من أمضى عدة سنوات فى كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها ، ورأى أن يضحي بالسنوات التى قضّاها ويلتحق بإحدى الجامعات الإسلامية ..

وأقتطف هذه الفقرات من رسالة كتبها لى أحدهم يقول فيها : « .. يؤلنى ألما شديداً ، ويعتصر قلبى حزناً تعدد الأهواء ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه! وقد دعوت الله أن يلهمنى الحق ويهدينى الطريق القويم ويوفقنى إلى الالتحاق بالجامعة الإسلامية فقد علمت من قراءة للإمام الشافعى «أن العلم ما كان قال حدثنا ، وأخبرنا ، وغير ذلك وساوس شياطين! ولذلك فإننى أرغب فى التعلم الدينى المنهجى! والله يوفقك لمساعدتى» .

وقد رق قلبى لصاحب الرسالة ، وحاولت إلحاقه بكلية الشريعة فى دولة قطر ، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح ! ..

ولابد من وعى الكلمة المنسوبة للإمام الشافعى - إن صحت - فالمراد منها أن شئون العبادات لا مجال فيها للأراء الشخصية ، وإنما تأخذ العبادات من النقول الثابتة عن المعصوم ..

وقضايا العبادات قطرة من بحر فى سلوك المسلمين وشئونهم العلمية ، ولا دخل للروايات فى موضوعات العلوم الأخرى ..

وقد تأملت فى سيرة نفر من خريجي الجامعات الإسلامية فكنت أيلس من جدواها ، هنا رجل يحمل حملة شعواء على الأضرحة ، قال لى أحد مستمعيه : لكن لا توجد فى هذا البلد أضرحة .. قلت : كلام سمعه لا يعرف غيره فأفرغه بيننا ..

وفى افتتاح مسجد بباريس ، وفى أثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء فى حالة تشنج ، يذكر أن التصوير الشمسى حرام! ..

فقال له أحد الحضور : ذلك رأيك! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك ، إنك توقف سير الدعوة الإسلامية فى باريس بهذا التعصب الضيق لرأى ما ، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظرك أو لأناس قاصرين خلفك؟ ..

قلت فى نفسى : ما أتعب حفظ الإسلام ، إذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الخادم نه أو الميىن عنه .. إلا بعض المرويات ، وبعض الأفهام ..

عندما عرض عقريت من الجن على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه .. ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ (١)

ما أحوج مسلمين إلى رجال أوتوا علم هذا الكتاب .. أم أن هؤلاء الرجال خشوا سوء الاستقبال عندنا ، فحطوا رحالهم فى أوروبا وأمريكا ؟ ..

ليس للعلم ولا للعمل صورة واحدة صالحة ، أو ميدان واحد مقبول .. فإن الله أمر المسلمين أن يفعلوا الخير ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وكلفهم مع فعله أن يدعوا الآخرين إليه ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ (٣) فهل للخير المطلوب شكر واحد؟ لا يرى إلا فى الصلاة والصيام؟ ..

إن صنوف الشر لا تحصى ، وصنوف الخير لا تحصى! وما يحشده البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يحصى ، وللوسائل حكم الغايات ..

والحق أن لعمل الصالح - الذى هو صنو الإيمان - هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة ، وقد يكون فلاحاً أو صناعة أو إدارة ، وقد يكون سفرًا أو إقامة ، وقد يكون قتالاً أو سلاماً .. إنه مسلك غير محدود لباعث واحد هو حب الخير ، وطلب الإصلاح ..



﴿... فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا  
بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١)

وقد سمي القرآن الكريم تجويد الصناعات الحربية - لدعم الحق بداهة - سماها  
عملاً صالحاً، فقال عن نبي الله داود: ﴿... وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١٠) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ  
وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١).

وجعل كل تعب يعانيه المجاهدون، وكل بذل يتكلفونه عملاً صالحاً ﴿ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ  
الْكُفَّارَ وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢).

وما يذكره القرآن الكريم ليس إلا نماذج وأمثلة .. ولقد اعتبر الرسول الصلة  
الجنسية بين الرجل وامراته عملاً صالحاً يثاب عليه لأنها حصانة من الإثم، ووقاية  
من الشرود ..

إن كل علم تسمو به الإنسانية، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين، ترجع  
به الموازين، وترتفع به الدرجات، في الدنيا والآخرة.



## ٩٤. لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا؟ وما موقفه الحقيقي من هذه القضية؟ وهل يجوز للمسلمين في حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقاً؟

في مظالم البعثة المحمدية كان الرقيق واقعاً غير مؤلم ولا مستغروب ولا منكور ..  
وكانت جماهير الأرقاء تزحم المشرق والمغرب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر في  
إنقاذهم مصلح ..

في أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون في صمت، وربما قدم  
بعضهم طعاماً للوحوش في بعض المناسبات، وكان اليهود - وفق تعاليم التوراة -  
ينظمون أساليب الاسترقاق للعبيرانيين وغير العبيرانيين ..

ولم لأسى على الرقيق وحدهم؟ إن المنبوذين في القارة الهندية كانوا أنجاساً لا  
تعرف لهم حرمة، ولقد وقع ابن لامرأة برهمية في بئر، وكان أحد المنبوذين يستطيع  
إنقاذه لو أدت أمه! لكن الأم فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعد ما لمس منه منبوذ ..

وجاء في الكتاب المقدس أن طعام التبيين لا يعطى للكلاب .. والنيبون هم بنو  
إسرائيل .. والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديماً ..

في هذا الجو القابض الظلوم كانت الإنسانية تعيش، ما أنصفتها فلسفة اليونان  
التي تقدر الاسترقاق بعقلها المفكر! ولا أنصفتها موارث الشديين التي احتضنها  
الكهنة .. وأظلمت بها الأرض ..

حتى تكلم محمد، وأصاخ الناس إلى ما جاء به فإذا هم يسمعون أن البشر كلهم  
إخوة بينهم نسب واحد، وتسرى في أوصالهم نفخة من روح الله، وأنهم سواسية  
في الحقيق والواجبات .. وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ  
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)

(١) الحجر: ١٣.

(٢) التوبة: ١٢٠.

(٣) سبأ: ١١، ١٠.

(٤) الأنعام: ٤٨، ٤٩.

وسمع الناس للمرة الأولى فى تاريخهم أن المسترقين يجب أن تفك قيودهم وتعتق رقابهم ، وأن العائنين ينبغي أن يحرروا من الذل والجوع واليهوان ، وأن العقبات دون هذا كله لابد من اقتحامها لمن يريد رضوان الله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقَرَّةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ .

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لأداء هذا الواجب ، فلا يحرروا الأسرى ليجعلوهم أتباعاً ، أو عبيد إحسان بعد ما كانوا عبيد سطوة كلا إنهم ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٢﴾ .

ولما جاء دور التشريع لنقل هذه المبادئ إلى قوانين ملزمة نظر الإسلام إلى مصادر الرق فألغاها كلها على النحو الآتى :

كان الرومانيون ومن قبلهم العبرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفى بعض الجرائم .. ومن هذه الجرائم عند الرومان عجز المعسر عن الوفاء بالدين .. وقد رفض الإسلام هذه النظرة رفضاً حاسماً ، ولم يسترق فى أية مخالفة ، بل رصد من الزكاة المفروضة سهماً لازماً لسداد ديون المعسرين ، وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وكان الخطف إلى القرن الماضى مصدراً هائلاً للاستعباد ، وقد ظل الأوروبيون يصطادون البشر بضعة قرون من غرب إفريقيا ، فى ظروف تكتنفها الوحشية المطلقة ، وتم خطف عشرات الملايين وهلاك مثلهم فى أثناء الغارات التى كان يقوم بها قراصنتهم ..

وأبى الإسلام إباء شديداً خطف الأحرار ، وهدم كل ما انبنى على هذا الخطف من آثار ، وجاء فى الحديث القدسى عن رب العزة قال الله تعالى :

(١) البلد : ١١ - ١٦ . (٢) الإنسان : ٨ ، ٩ . (٣) البقرة : ٢٨٠ .

«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته. غلبته. رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكَل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه الأجر» .

والمصدر الثالث للاسترقاق - وهو مصدر خطير - أسرى الحروب ، إن أولئك المنكودين الخزايا كانوا يواجهون مستقبلاً غامضاً ، وقد يكون الاسترقاق أهون ما يتوقعون .

وفى الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصاير الألوف المولفة من أسرى الروس لدى الألمان ، أو أسرى الألمان لدى الفرنسيين ..

فإن كان ذلك ما وقع أيام التحضر والارتقاء فما ظنك بما كان يقع قديماً ؟ .. على أية حال فإن الإسلام فى أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادئ أزكى وأرق فى معاملة الأسرى ، فنزل على رسول الله ﷺ فى الأسرى بعد معركة بدر .. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ .

والخيانة التى تشير إليها الآية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والإنسانية كلها ، فقد كان موقفاً غيبياً متعنتاً مليئاً بالكبرياء والقسوة .. أكان هذا موقف عبدة الأوثان وحدهم ؟ ..

كلا ، فإن أهل الكتاب كانوا أحسن وأظلم ..

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ (٢) .

ليكن ! ليس لأحد أن يرغمهم على اتباع ! لكنهم لم يكتفوا بهذا بل لجأوا إلى صد الاتباع وفتنة الضعفاء وقيل لهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِنُورِنَا عُرْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

(١) الأنفال : ٧٠ ، ٧١ . (٢) البقرة : ١٤٥ . (٣) آل عمران : ٩٩ .



أين تجد الموارث الدينية في تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الأول إلى أهل كورنتوسى ، الأصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها : «لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن! .. كما يقول الناموس أيضا ، ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فيسألن رجالهن فى البيت ، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن فى كنيسة» ..

وأين تجد الموارث الدينية فى تحرير الأرقاء عندما تقرأ رسالة بولس إلى أهل أفسس «أيها العبيد، أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف وورعة! فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كما يرضى الناس، بل كعبيد المسيح.. إلخ»<sup>(١)</sup> .

إن رجالا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهدوا بشرف لتكسير القيود التى أنشأها النظام البشرى على مر العصور .. والحقيقة أنه لا دين إذا طمست الفطرة وطمغت الأثرة! ..

وللإسلام علامة مميزة يعرف بها ، ويلفت كل امرئ إليها ، تبدو فى قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا حكمنا بأن التقاليد التى يتعارف الناس عليها يجب نبذها إذا خالفت الفطرة! ..

ويستحيل أن تكون هذه التقاليد ديننا وإن استمسك بها بعض الكهان ..



(١) على هذا النص وغيره استقر الرق فى القرب ، وقتل أحد المتدينين المتعصبين له «لنكولن» محرر العبيد ..

(٢) الروم : ٣٠ .

## ٩٥. ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة؟

### وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها؟

هناك جوانب فى الحضارة الحديثة جدية بالاحترام كله ، بل أعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق ، الحفى بالمعرفة ، المستغل لأمن مواهب الإنسان ..

إن الوصول إلى اليقين فى قضية حسية أو عقلية ليس شيئا رخيصا ، إنه ثمرة غالية لأعلى مواهب البشر بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾<sup>(١)</sup> .

وهو كذلك البعد المطلوب عن نهج المنحرفين والواهين والقاصرين الذين قيل فيهم : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

والحضارة الحديثة نجحت فى ميدان البحث المادى ، وتعمقت فى الدراسات الكونية كلها ، وهذا النجاح - فى رأى - يجعلها أقرب إلى منطق القرآن الكريم ، وأدنى إلى منهجه ، فإن التفكير فى الكون أرضه وسمائه وما بينهما ، مطلب إلهى لا ريب فيه ..

والمسلمون يحملون أوزار التخلف فى هذا المجال ، وقد دفعوا ثمنه فادحا ، وأرى أنه من عصيان الله ، والفسوق عن أمره الانشغال بالجدل العقيم ، وفلسفة ما وراء المادة ، وتشقيق الخلاف وتكثيره فى شئون يستوى فيها العلم والجهل ..

إن الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرا من قوى الكون وأسراره ولها الآن حصيلة كبيرة فى علوم الذرة والفضاء و «الإلكترونيات» و «الكمبيوتر» وقد نقلت آثار ذلك إلى تفوق مدنى وعسكرى فى البر والبحر والجو ..

ومع هذا سبق البعيد ، فإن الحضارة الحديثة لا تزال واقفة عند العصر الحجرى فى ضبط الغرائز ، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشرى ، وكبح الأثرة المسعورة ، وجعل المرء يحب غيره ويغار على حقوقه ، أو على الأقل يعدل مع غيره ، ويعترف له بحقوقه طوعا لا كرها! ..

(٢) النجم : ٢٨ .

(١) الإسراء : ٣٦ .



وقبل ذلك فشلت هذا الحضارة في التعرف على رب العالمين ، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقدير نعمته والشعور بعظمته والتسبيح بحمده والتعويل عليه في الأزمات والأطمئنان إليه في المخاوف .  
إن الإنسان مهما قوى بالعلم لن يكون إلهاً ، وسيبقى ما عاش فقيراً إلى سيده ، لا يحس طمأنينة إلا في السجود بين يديه ، واستلهامه الرشـد ..

لكن من أين تطرّق الخلل إلى هذه الحضارة حتى إنه ليهدد مستقبلها؟ ..  
قد يكون الجواب : من غرور الماديين بما وصلوا إليه ، واستهانتهم بما قصروا فيه .. والغرور بالعلم داء قديم ، وقد حدثنا القرآن الكريم أن أمة عمرت هذه الأرض قبلنا ، وأقامت بها مدنيات فخمة ، وأنها انتشت بما تيسر لها من لذة وسخرت مما قدم من نصـح ، فماذا كانت عقباها؟ ﴿ قَلَمًا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١)

والاعتزاز بالتقدم العلمي مرض مخوف ، بيد أنى لا أرد إليه وحده عوج هذه الحضارة ! .. السبب الأول ناشئ - فيما أرى - من خيانة أهل الأديان لرسالات الله ، فالاسترخاء العقلي السيئ عند المسلمين ، والغش المجوج عند إخوانهم أهل الكتاب ، من وراء هذا البلاء !  
أهل الكتاب قدموا من عند أنفسهم تعاليم نسبوها إلى الله ، ضاق بها العقل ، وتبرمت بها الفطرة نشب العراك بين العلم والدين ، كانت النتائج المعروفة ، ألد العلم ومساء ظنه بالوحى كله ..

وأما المسلمون فقد أوغلوا في البعد عن دينهم حتى أمسوا في واد ودينهم في واد آخر ! .. التفكير الذى هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحول إلى تقليد وجمود ، وإذا عرض له نشاط ففى ما وراء المادة لا فى المادة نفسها كما شكونا مراراً .  
ومفاخر الحياة الإسلامية الأولى تلاشت ، فإذا قال شوقي :

فالدِّينُ يسرٌ ، والخلافة بيعة الأمر شورى ، والحقوق قضاء !

وجدت التاريخ فى أعصر شتى يؤكد أن الأمر استبداد ، والخلافة اغتصاب ، ويسر الشريعة رياء وتعقيد ، واحقوق دعاوى « من الناس والظفر برهانها » ! ..  
على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وإدارية أدنى إلى الفطرة والشورى والاختيار الحر وإن شابهها ما لا يسها من هوى جامع وإسراف كثير ..  
وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل ؛ لأن الباطل جدير بالزوال ! كلا ، لا بد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله ، ويؤدى عمله بقدرة أعظم وأشرف ..

(١) غافر : ٨٣ .

وأعترف بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص ، ولا هم اليوم أهل لتلك القيادة .. الحضارة الحديثة نسبت الله كل النسيان ، ولم تأخذ أى أهمية للقائه ، إنها تعبد اليوم الحاضر ، وتجدد ماوراءه ، وتعبد الجسد وتعالى بمطالبه وحدها ..  
ونحن باسم الإسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائغ ، ونرفضه جملة وتفصيلاً ..

أما الاقتدار العلمى ، وتسخيرها لتنعيم الإنسان وتكرمه فنحن معجبون به ، كذلك نحن معجبون بالقدرة التنظيمية التى جعلت الإدارة فناً رفيع المستوى ، وأبدعت أساليب لمنع الطغيان الفردى والهوان السياسى ، وإن كان الغربيون جعلوا هذه الثمار حكراً على الرجل الأبيض ..

ولا أستحي من أن أسائل نفسى وقومى : أين كنا حين استخرج الأوربيون النفط من أرضنا؟ ماذا كنا نصنع؟ وأية ثقافة كانت عملاً آدمغتنا؟ ..  
أؤكد ، وأنا من علماء الدين ، أن الصحابة تجهل تسعة أعشار الفكر الدينى الذى شغلنا! وغنا فيه وصحونا عليه ! ..

وأؤكد أن نظم الحكم فى بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم فى فارس والروم على عهد سلفنا الفاتح العادل الذكى ..  
وأؤكد أن اللغة العربية فى الجاهلية الأولى كانت أضوأ وأنصح منها فى الأعصار النكدلة الأخيرة ..

إن مجددى الإسلام بنلوا جهوداً جبارة ليعود إلينا الوعى الغائب! ومن عجب أن البعض الآن يفتح فمه لسبهم ، ويتنقص أقدارهم ، إننا لم نستشف - بعد - من عللنا ..  
وقد مضت حضارة الغرب فى طريقها لا يثنىها شىء ، غير أن الاستغراق فى الدنيا لا يحقق الخير لا للفرد ولا للمجتمع ، وقد كرع « أبو نواس » من اللذة حتى آخر قطرة . ثم استيقظ من سكرته يقول :

إذا عرف الدنيا لييب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق !

وكذلك يفعل الخراب الروحى ، وخواء الإيمان بأوروبا وأمريكا ، إن الجماهير تشعر بالقلق والضيق ، ولأثبت هنا كلمة للأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت كتبها وهو يزور « لندن » يصور أثر هذه الحضارة : قال : « عيون الناس هنا ملونة ، وبشرتهم كشمع مسقى بالدم ، وابتساماتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأى سؤال .. رغم ذلك ، ثمة طيف غامض من الكآبة يلوح وراء ألوان العيون والبشرة ، ويتبدى فى هذا الصمت الذى يغرقون فيه حين يركبون المترو أو الأتوبيس ... »

هنا لاحد لجمال الناس ، ولكنه جمال يشبه جمال الجزر المنعزلة فى المحيط ، إن صفحة المياه الزرقاء تمتد بصمتها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات ..

رغم العزلة المرشحة ~~ببعض~~ الجمال، ويكتسب الجمال شحوبه من العزلة النفسية، حتى لتعكس ~~أفكار~~ العيون قلناً يبدو وسط يسر الحياة وسهولتها مثل حزن غير مفهوم في عرس من ~~أفكار~~ الحياة ..

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبدلوا لندن عاصمة مبهجة في الصيف، هي سوق عظيمة للمرح والمتعة والجمال والثياب واللهو والحرية. كيف تفسر إذن هذا البحث الذي قامت به إحدى شركات البحوث. وقالت نتائجها: إن مليون بريطاني يعانون من اكتئاب نفسي، وإن من المحتمل أن يقدم ثلث هذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة .. كيف تفسر أن معظم المصابين بالاكتئاب من النساء ..

استبعد البحث مشكلة لبطالة كسبب رئيسي للكآبة .. وأشار إلى المشاكل الزوجية والمنزلية والإنسانية ..

عاودت النظر في وجوه الناس ..

أهؤلاء مكتئبون ..

إن النظرة السريعة تقول إن الناس تعيش وسط نعيم مقيم في لندن .. كل شيء ميسر .. لا صوت للشوارع ولا صوت للناس، وكل ما تريده موجود وحاضر، هناك مكان في الأتوبيس والمترو والتاكسي والقطار، ليست في الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية في مدن العالم الثالث أو الشرق ..

إن المدنية الحديثة توفر للناس جهدهم الإنساني وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضى جهداً بدنياً أو عضلياً ..

والخدمات أكثر من الحاجة إليها. والعرض أكثر من الطلب، والتليفون لا يستعصى عليك، ولا يتكلم معك في الخط أحد .. لماذا يكتئب الناس إذن وحياتهم تفتقر بهذه النعومة والكفاءة.

إن الحضارة الغربية تكشف هنا عن أحد أسرار الحياة .. إن للتخلف مشاكله وللتقدم مشاكله ..

وليست مشاكل التقدم بأخف في الميزان من مشاكل التخلف، هنا توفر الحياة للناس وقتاً يفكرون فيه في حياتهم وهدف هذه الحياة ومصيرهم بعدها ..

وهنا يحس الناس بالوحدة القاسية رغم كل مبهجات العيش .. إن الوضع الصحيح الوحيد للإنسان أن يكون تابعاً لله لا مستقلاً بنفسه، وأن يسترشد بوجيه لا أن يغتر بفلسفته الخاصة ..

ما أضعف الإنسان إذا لم تستد قوة ربه .. وما أشقاه حين يحرم بركته ..

## ٩٦. هل في استطاعة الإسلام أن يقدم حلولاً للمشكلات

### الكبرى التي تعاني منها الإنسانية اليوم؟

تقع المصائب والمشاكل عندما يفرط الإنسان فيما يجب عليه، أو يستهين بما يمنع منه .. فحوادث الطرق تنشأ غالباً من السرعة الزائدة عن الحد، أو من التوقف المبالغت، أو من خروج المرء عن المسار المحدد له ..

ولو تبع الناس التعاليم الصادرة إليهم لوقاهم الله سيئات كثيرة، ولكن ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ (١).

ولسنا ننكر أن هناك أقداراً قاهرة تعرض لنا بما نكره، وتفاجئنا بما لا دخل لإرادتنا فيه وهذه المصائب والمشاكل لا تؤاخذ بوقوعها، وإنما علينا أن نتصرف تجاهها بشأت وتسلم، لا بجزع وتمرد فهي بعض بلاء الدنيا الذي نختمر به !! ..

ولكنني أستعرض مشكلات كبيرة في عالمنا المعاصر، فأجد أغلبها من صنع الناس .. إنها تنشأ في غياب الإيمان الصحيح، والاستهداء بنور الله، والاستشهاد بالعلامات خضراء والحمراء التي تعصم من الزلل.

القلق الشديد محنة كامنة وراء الركض الوحشي طلباً للرزق، إن هؤلاء الراكضين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام، بل قد يدوسون العجزة والضفاف كي يصلوا قبل غيرهم .. ثم نفسر هذا السعار الذي ملأ الدنيا؟ لا تفسير له إلا الجهل بالله، وبقيامه على الخلق وتدبيره للرزق ..

وأذكره جملة من الحقائق الدينية غير خاش من تأويل الجهلة لها وانحرافهم بها .. لو كان لإنسان صديق نبيل أخلق حلول العشرة، مأمون الوفاء لجعله واحته الظليلة في صحراء هذه الحياة! أفتكون صلة المؤمن بربه أنزل من هذه الصلة؟ ربه نودود المحبة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٢).

(١) الروم : ٤١

(٢) طه : ٨١

إننا نحيا في رحمته الواسعة ، ونعمته المبذولة ، وبركاته الهامية ، ولكن ذلك كله يشبه العافية التي قيل في تبدل الشعور بها : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ..

إنه شيء مؤسف أن يقل إحساننا بفضل الله الذي يغمرنا بالليل والنهار .. ثم يتضاعف جوارنا بالشكوى إذا فقدنا بعض مانهوى! والغريب أننا نعتبر ما نفقده هو مصلحتنا المؤكدة ، أو الخير الذي حرمناه .. إن مواقفنا مع القدر تكرر لموقف موسى مع الخضر حين اعترض ما يجهل عقابه ..

مع أن القصة ذكرت لتقول لنا : رب ضارة نافعة .. رب أمر أنكرنا بدايته وحمدنا نهايته ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

هناك أبجديات للإيمان لو عرفناها لزال مشكلة القلق والاكتئاب والتوتر التي تسود العالم .. وأرى أن الغرور البشري أو إحساس الإنسان بأنه يقوم وحده من وراء تلك المشكلة ..

لقد خيل إلينا مع التقدم العلمي الجاف أننا مديرو هذا الكون ومالكو زمامه .. وإن الإنسان يستطيع المضي وحده إلى هدفه دون صحبة من رعاية عليا ، أو مساندة من رب قدير .. وهذا هو الغباء المحض ..

إن المساحة التي تعمل فيها إرادتنا الحرة ضيقة جدًا ، حقًا هي موجود بيد أنها محكومة بطور لا دخل لنا فيها منذ ولدنا إلى أن نموت ، ما أغيب السمكة التي تظن أنها صنعت مياه البحار والمحيطات ، وأنها صنعت الخياشيم التي تستخلص بها أنفاسها وسط الماء ..

الواقع أن الخطط التي تحكم حياة البشر خفصًا ورفعًا وضيقًا وسعة جزء من الخطط التي تحكم الفضاء وتقلب كواكبه بين شروق وغروب ..

مبتدؤنا ومنتهانا وما بين ذلك يشرف عليه ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .. ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .. ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

(١) النساء : ١٩ . (٢) الملك : ١ . (٣) المؤمنون : ٨٨ . (٤) القصص : ٨٨ .

فما معنى تجاهل هذا الواقع ، الانطلاق في الدنيا دون وعي ودون غاية ؟ .. الإيمان بالله وصفاته هو لاغير حل تلك المشكلة! والإسلام يعرف الناس بربهم على نحو رائع مقنع مشبع ، يغمر القلب والقلب بهداه ويجعل المرء إذا كرب فزع إلى الصلاة ..

ثم هو ينظر إلى ما أصابه وما أخطأه عارقًا : من يدبر الأمر؟ فيقول : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند ..

وعند هذه الجملة الأخيرة نقف قليلًا .. فأصحاب الحظوظ الحسنة قد يكثرون أو يقلون في هذه الدنيا ، غير أن مجرد وجودهم يثير لغيرة والتساؤل : لماذا أوتوا هذا الثراء أو هذا التقدم أو هذا الرجحان ؟ ..

ويؤكد الإسلام أن هذا الجدل لا يجدي أصحابه شيئًا ، ولا ينفعهم عند الله أبدًا! إنه بعض ما يساءلون عنه يوم الحساب ، أو هو جزء من الاختبار الذي يكون للبعض باجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك ، ورب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة ، وذلك من ثمرات الإيمان بيوم آخر ..

ومن المشكلات التي يشكو العالم منها الفقر المتوطن في بيئات كثيرة ، وأحب أولًا أن أحشد المفاهيم حتى تنضبط الأحكام! أعرف موظفًا في وزارة العدل يقوت أسرة كبيرة ، عرضت عليه يومًا مائة جنيه كي يدع أحد الخصوم يستولى على وثيقة تفسيده في ملف تحت يده! وأبى الموظف الشريف مع أنه كان يبيت طويًا ليعشى أولاده ، وكن بحاجة إلى جنيه واحد لا إلى مائة ..

هذا الفقير وأمثاله هم الذين قال الدين عنهم : إنهم سواد أهل الجنة ..

وأعرف أن الزعيم محمد فريد فقد ما كان يملك من أرض في سبيل أسفاره كي يعرض شكوى وطنه من الاحتلال الإنجليزي! هذا فقر يذكرنا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين ضحوا بما لديهم في سبيل عقائدهم ..

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئًا! فلما ولوا الحكم فاضت أنفوسهم عليهم سمنا وعسلًا ، فأضحوا هم وأزواجهم وأصدقائهم ومن يلوذ بهم أصحاب جاه عريض ومال معدودا ..

هؤلاء الأغنياء من سحت هم الذين قال الدين عنهم : إنهم جمهور النار ، وبش القرار ..





فماذا يحدث إن أعرضوا عن هذا النداء؟ ستمتلئ الأرض بالأحزان والخراب ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿١﴾ .

لقد قرأت قصصاً أليمة عما يصيب الرجال والنساء والأطفال في أثناء الحروب من أسى وضياح يهتكان الأستار، ويسترخصان العارا ورأيت صوراً قابضة مبيكة للجثث على عرض الطريق أو تحت الأنقاض، أمست رفاتا هامداً وولت عنها بشاشة الحياة وآمالها العراض ..

إن الحرب شيء كرهه حقاً، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها ..

وفي الأديان السماوية كلها لم يأذن الله بحرب عدوان، وإنما أذن في حرب تحمى بها الحقوق وتسان الحقائق، وتبقى فيها بيوت الله قائمة لعبادته وحده ..

وفي قراءة صحيحة يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ صَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (٢) .

ورب البيت لا يطالب بالاستسلام للفساد المغير إيثاراً للسلام، وصاحب العقيدة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف ..

وإذا خلصت النيات يمكن إقامة مؤسسات عالمية للحفاظ على السلام، بعد غسل النفوس من الأثرة والبغى، وإشعارها بأنها أولاً وأخراً من الله بدأت وإليه تصير .

## ٩٧. بم تفسر النكسات التي أصابت الأمة الإسلامية،

### بدءاً من الخلاف الداخلي بين علي ومعاوية حتى يومنا هذا؟

أجمع أولو الألباب من عدو وصديق على أن الإسلام عقائد وشرائع، وعبادات ومعاملات، وأخلاق ونظم وترايب إدارية وتقاليده اجتماعية .. وأنه يكلف أتباعه بتطويع الشئون العادية لخدمة ذلك كله ..

وكنا في أثناء دراستنا الإسلامية نعرف الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى، وبين الإسلام والحكم الإسلامى .. الإسلام وحى معصوم لا ريب فيه، أما الفكر الإسلامى فهو عمل الفكر البشرى فى فهمه، والحكم الإسلامى هو عمل السلطة البشرية فى تنفيذه، وكلاهما لا عصمة له ..

وعندما يخطن مفكر فإن خطاه لا يبقى طويلاً حتى يستدرك عليه مفكر آخر .

وعندما يخطن حاكم فإن زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد ..

والأمة الإسلامية - بفضل الله - لا تجمع على خطأ، وجهاز الدعوة بها حساس، وهو عن طريق لتعليم والأمر والنهى ينصف الحق ..

ولما كانت هذه الأمة حاملة الوحي الخاتم فإن القدر يؤدبها إذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم، ويتعهد بها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحي وسبل فقهه وساليب حكمه .. قال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١) .

ومن هذا التقديم يظهر أنه لا غرابة فى وجود أخطاء فى تاريخنا الثقافى والسياسى، وإنما الغرابة فى التسرع على هذه الأخطاء أو الاستمحاق فى معالجتها والتعقبة على آثارها ..

وجمهور المسلمين يعلم أن سلفنا الأول شغله قتال الاستعمارين الرومى والمجوسى، ولعله أشرف قتال عرفته الدنيا، ولكنه يشعر بغضاضة وألم لما أعقب ذلك من قتال داخلى بين المسلمين أنفسهم كانت له آثار بعيدة المدى على حاضرهم ومستقبلهم ..

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكد أن على بن أبي طالب - الخليفة الرابع - كان إمام حق، وأن معاوية بن أبي سفيان كان يمثل نفسه وعصبته في خروجه على علي ..  
 وشاء الله أن يكسب معاوية هذه المعارك، ومن ثم تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض في بني أمية ..

ومع أن هذا التحول كان هزيمة للحق، وضربة موجعة للمثل العليا إلا أنه من الغلو المرفوض تصحيح نتائجه لما يأتي:

(أ) إن الخلفاء أو الملوك الذين ولوا أمور المسلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاهم للإسلام .. وأن التغيير في أشخاص الحاكمين لا يعنى التغيير في القوانين أو الأهداف الإسلامية، ومن أجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة، ما لم يمسوا سلطانهم فى الزعامة ..

(ب) إن العلم الدينى مضى فى طريقه يوسع الآفاق ويربى الجماهير، ويقرر الحقائق الإسلامية كلها من الناحية النظرية، أى إن الإسلام الشعبى مع ازوراره عن السلطة بقى قديراً على الامتداد والتأثير ..

(ج) مع أن الدولة كانت عربية، تتعصب لجنسها فإن الجماهير والتعاليم الإسلام وحدها، ولقت قيادها فى أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربين من الأعاجم! ..

وأجدنى هنا مسوقاً لتوكيد حقيقة مهمة: إن الجنس العربى له خصائص رفيعة رشحته لظهور الإسلام فيه، واختيار النبوة منه، وهو إلى جانب ذلك جنس له نقائص منكورة مثل الاعتزاز بالنسب إلى حد السخف وازدراء الحرف من فلاحه وصناعة، والحرص على الإمارة ولو بطريق اللف والخطف ..

وقد أفاد الإسلام من خصائصه، وخبر من نقائصه، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الإسلامية والتقاليد العربية، فإن الأخيرة غلبت الأولى فى مجالات كثيرة.

إن أسرتين عربيتين احتكرتا فى ذرايهما مهام الخلافة العظمى بضعة قرون إلى أن سقط الإسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار فى بغداد، وتحت وطأة الصليبيين فى الأندلس .. بأى منطق وقع ذلك؟ ..

إن ديننا عالمى الشرائع والشعائر لا يحتمل هذا السفه!

وجاء العثمانيون فقلدوا العرب! ولماذا يكون عثمان التركى أقل من حرب أو هاشم المولودين فى بطحاء مكة؟ لقد بقيت هذه الغلظة حتى أنزلت لواء الخلافة عن الأستانة وحلت بالإسلام نكبة هائلة مهينة ..

وأرى أن الروح القبلية عند العرب كانت من وراء هذا الانحدار كله، قديمه وحديثه .. وعلى العرب أن يحترموا الإسلام، وليس على تعاليم الإسلام أن تلتين للتقاليد العربية .. والعرب - مع بعض الأم القليلة - كانوا يؤخرون المرأة، ويضيقون بالأنثى! كان الهنود يحكمون على الزوجة أن تنتحر بعد وفاة زوجها! وكان عرب كثيرون يثدنون البنت بعد ولادتها ..

وجاء الإسلام فأعلن حرباً شعواء على هذه التقاليد الهمجية، إلى أن رد للمرأة كرامتها، وصان حقوقها المادية والمعنوية ..

لكن الاستهانة بالأنوثة بقيت كامنة فى النفوس، تنشئ تقاليد وتمحو أخرى حتى كادت تعاليم الإسلام تطوى وتحل محلها التقاليد العربية الأولى ..

وظهر ذلك أول ما ظهر فى حرمان المرأة من التعاليم، ومن حرمانها من غشيان المساجد، ولصلاة فى الجماعة، وقد وازنت بين النصوص الواردة والشروح المصاحبة لها قرأت النقاظض المضحكة ..

جاء فى الصحاح عن أم عطية رضى الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ فى الفطر والأضحى أن تخرج العواتق - الشواب البالغات - والحُصص، وذوات الخدور - المكنونات فى الأستار - ولكن الحُصص يعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين! قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب! قال: لتلبسها أختها من جلبابها .. أى تستعير من إحدى المسلمات جلباباً وتخرج لتشهد الجماعة ..

قال صاحب التاج، الجامع للأصول فى أحاديث الرسول: هذا كان فى سالف الزمان! .. أما الآن فلا يجوز خروجهن لما هن عليه من زيادة التبرج، إلا العجائز إن كان لهن مكن خاص ..

وصاحب لنج غفر الله له يتابع فى هذا الحكم علماء السنة من قبله، فإن شروجهن غالباً لا تخرج عن هذا المعنى ..

والواقع أن أولئك الشراح يذهبون بعيداً عن مراد الرسول ﷺ، وتجرفهم التقاليد العربية، فيسنخون بها أحكام الشريعة، ومقررات الدين ..

وفى حديث جابر - وهو فى منتهى الصحة - أن امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين، استفهمت من الرسول عن بعض ما قال فى خطبة العيد .. والسفعاء الحمراء وزناً ومعنى، أو التى فى حمرة خدودها سمرة! ..

وظاهر أن المرأة كانت سافرة الوجه دون حرج ، وهذا أمر يمارى فيه المتعصبون لبعض التقاليد الموروثة .. أما تعاليم الإسلام فموضع نظر ؛ لأنها تخالف ما ألفوا من تقاليد ..

ومن النكسات التي أصابت جماعة المسلمين ، وأوهنت قواهم من قديم ، انفصال الحكم عن العلم ، وسير كل منهما فى مجرى اختص به ، لقد كان الخلفاء الراشدون حكماً وفقهاء معاً .

ولست أعنى بالفقه الاستبحار فى تفاصيل العبادات وفروع الأحكام كما يتصور الناس ، كلا .. كلا .. إنما أعنى بالعلم إدراك الأصول والغايات العظمى لدين الله ، وإدراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه ، والقدرة النفسية على الغرس والحصاد ، والكر والفر ..

إن المرء ليعوض فى بحار الحيرة عندما يرى كراولة العالم النصرانى يختارون أدهامهم وأذكاهم وأجلدهم على خدمة الدين ، وعندما يرى معتقى الشيوعية يختارون أقدارهم وأمههم وأشجعهم على خدمة المذهب على حين يقود المسلمين على مر التاريخ رجل أعظم مؤهلاته أنه ينتمى إلى المأسوف على شبابه أمية بن حرب! أو الصحابى المعروف عباس بن عبد المطلب<sup>(١)</sup> أو ابن الأناضول عثمان بن هيان بن بيان! ..

إن أولئك الخلفاء لا ترشحهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذى بال ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله إلا ما يشجب هذا المسلك ، بيد أن تقاليد العرب اعوجت بتعاليم الإسلام كرها ودفعتها فى هذا المجرى .

ونشأ عن ذلك أن العلم بدأ يستوحش ، وقد كابر وقاوم واستمسك بحقه فى الحياة مستمداً كفافه من تعاليم الإسلام ، وما بقى له من كرامة بين الجماهير ..

لكن العلم ، وأعنى الدينى منه خاصة ، أخذ يتحدر ، وتقل وجاهته ، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقات الثرية ، أو المرشحة للوظائف العليا ، ولم يبق على الوفاء له إلا بعض المغامرين بأولادهم فى سبيل الله .. أو بعض الذين عز عليهم السير فى ميدان آخر من ميادين المعرفة فرفضوا بما لا محيص عنه ، أو لا مفر منه ..

ومن انفصال العلم عن الحكم ورث المسلمون المعاصرون مشكلتين جديرتين بالنظر العميق الأولى : هجرة العقول الكبيرة إلى الغرب ، والأخرى : رداءة الأوعية الحاملة للفقه ، وطلبها للدنايا تحت أقدام السبطين .

(١) نحن نحب نبينا من أعماق قلوبنا ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى شرح لنا سنن الخلافة الراشدة فليس لأحد من أسرته أن يحبسها فى ذريته بضعة قرون .

## ٩٨. هل نجح الإسلام فى تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل ؟

عندما قرأت هذا السؤال أسرعت بالقول : لماذا لا يوجه هذا السؤال إلى الدينين السابقين عليه من الناحية التاريخية ؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه ، وفرض على العالم صيغته ؟ ..

سكان العلم الآن أربعة مليارات ونصف تقريباً ، فيهم مليار مسلم ، ومليار نصرانى ، ومليار وثنى . ولباقى شيعيون ! فلكم هو الانتماء الظاهر الذى يمكن إحصاءه ..

غير أننى أنظر فى الإجابة من ناحية أخرى ، أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يقتل فى سوق الأحياء جميعاً تحت لوائه ! إنه يمثل الأديان كلها فى الحقيقة ، فمعنى أنى مسلم أنى يؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه ، وأؤمن كذلك ببعيسى كواحد من حواريبه الذين يحبونه وينصرونه ! كل ما هنالك أنى لأصم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين ! إيماناً برجل آخر هو أخ لهما ومحى لتعاليمهما ، رجل تلقى عن ربه هذه العبارة ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾<sup>(١)</sup> .

فإذا لم ينجح أتباع محمد فى بسط دعوته على الناس ، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسول جميعاً ! ..

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة ! أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض وفقدانه لوعى الصحيح . فإذن اللوم أو التساؤل لا يوجه إلى الإسلام ، بل إلى الأمة لئى أساءت البلاغ ، وشانت المبادئ التى تحملها ! ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال ..

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال يجب أن يصاغ على هذا النحو : هل نجح المسلمون فى خدمة رسالتهم خلال تقرون الأربعة عشر ، أم كان فشلهم أغلب ؟ ..

ومع أنى شديد اللوم لأمتى ، دائم التقرع لها فإننى لا أستطيع أبداً الزعم بأن

(١) فصلت : ٣ :





إليك ما كتبه «ستيفن رنسيمن» فى الجزء الثالث من «تاريخ الحروب الصليبية» بعد ما شرح مراوغات «ريتشارد» وتغنت مفاوضاته قال : أضحي «ريتشارد» حريصا على أن يغادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له ثم انشرح صدره للخلاص منهم بعد ما دبر اعتذارا رآه مقبولا ، قال : إن صلاح الدين نقض عهده معه ، ومن أجل ذلك فقد أمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ ألفين وسبعمئة أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا! .. قال المؤلف : « .. واشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وحمدوا الله فى جزل وسرور .. حسبما يروى المدافعون عن ريتشارد - فقد هيا لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها ، ولقى زوجات الأسرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم ! .. »

ولم يبق الصليبيون إلا على بعض رجال يستفيدون منهم فى أعمال السخرة ، وبعض الأعيان ، أما الباقون فقد فتوا جميعا ، وشهد المسلمون المرابطون فى أقرب المعازل إلى عكا ما قد حدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهليهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول إليهم ..

ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا ..

لندع هذا المشهد الكئيب ، ولنترك دلالاته البينة ، ولننتقل مع «ستيفن رنسيمن» إلى مشهد آخر ذكره فى الجزء الثانى من كتابه بعد ما انتصر صلاح الدين فى حطين .. قال : «وقبل صلاح الدين أن يضع شروط الصلح ، فعرض بأن بوسع كل مسيحي أن يقتدى نفسه ، على أساس عشرة دنائير للرجل ، وخمسة دنائير للمرأة ، ودننار للطفل ، وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالى عشرين ألفا من الفقراء ، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغا إجماليا ، لافتدائهم ورضى صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألفا ، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على أوامر باليان ، ألقى العسكر السلاح . وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ووافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذى

يجرى فيه الاحتفال بعيد الإسراء ، حين أسرى النبى إلى بيت المقدس ، ثم ارتقى إلى السماء ..

والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه . إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفى تلك الأثناء حرص كل مسيحي على أن يلتمس المال اللازم لافتدائه . وأخذ باليان كل ما فى بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء ، وقديما ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاستبارية والدواوية عن شىء من أموالهم إلا بصعوبة ، ولم يحفل البطريك وهيئة الكنيسة إلا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريك هرقل يؤدى عشرة دنائير ، مقدار الفدية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة . وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما حوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة . وبفضل ما تبقى من متعة الملك هنرى الثانى ، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق آلاف عديدة من المسيحيين لو أن الاستبارية والدواوية والكيسة كانوا أكثر سخاء . ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين . تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم ، أو تم اقتداؤهم بفضل جهود باليان . أما الطابور الثانى فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا اقتداء أنفسهم ، ولذا توجهوا إلى الأسر . ومن المناظر التى تدعو للأسى والحزن ، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير ، على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . وقد ابتهج البطريك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسهل إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير . ثم أمر صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . ولما أقبل نساء الفرنج الدائى افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أن يكون مصيرهن ، بعد أن لقي أزواجهن أو أبائهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن .

وبذل الأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى ..

إن الأمة الإسلامية - برغم تعاسة الظروف التي ألمت بها - أرست قواعد خير كثير في هذه الحياة ، وما يبقى لها بعد معادلات الحذف والإضافة يزينها ولا يشينها ..

وأعرف أن خصومها أصفق وجوها وأقدر على فعل المناكر ودفنها فلا تعرف ، وأجرأ على تلمس العيوب للبرء ، والإصرار عليها حتى تثبت ..

وفي عصرنا هذا أمر رجل دين أحرق في غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعي ، فماتوا كلهم في صمت! ولو فعل شيخ مسلم واحد في المائة من هذه المأساة لدمغت الأمة الإسلامية بعار لا تقدر على الإفلات منه! ولنسب للإسلام كل شر! ..

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم وآخر ماقرأنا لهؤلاء كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» لأستاذة ألمانية طاهرة الذمة ..

صحيح أن المسلمين اليوم في أوضاع بالغة السوء! وصحيح أن فساد الحكم حقبا طويلة من وراء هذا الانحدار ، بيد أن الأمة الجريحة لا تزال أنبل من قاتليها ، ولا تزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير ، وأحق بالتقديم ..

إن الذكاء الأناني في أوروبا وأمريكا سيجر الويل على أصحابه وقد يجره على العالم كله ، ما لم يرحمنا الله ..



## ٩٩. كيف تتصور مستقبل الإسلام في عالم الغد؟

حاضر المسلمين يقبض الصدر ، وقد يبعث على التشاؤم! ولكنني واثق من أن هذه المحنة ستجلى كما انحلت محن أخرى في أيام مضت ..

على أن الخلاء الخن لا يشبه انقشاع السحب ، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدي .. كلا ، لا بد من عمل جاد وسعى لاغب .. أو كما قلت في موضع آخر : لا بد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينا وخلقاً ونشاطاً وفكراً ..

أما مع لتقائض الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيراً ..

إن أعصاباً نفسية وعقلية أصابت كياناتهم بشلل لا تعرفه أمة أخرى ، وألحقت برسالتهم مهانة كبيرة .. أقول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس ماهر أباطة وزير الكهرباء جاء فيها : إن قطاع الطاقة ظل يبحث منذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مدنة معينة في العازلات الكهربائية دون جدوى فقد رفضت الشركات الأجنبية - نحو سبع شركات - أن تعطي أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصدر الوحيد له وحتى تبيعها وفق شروطها ..

قال البير : ثم تطوع العلماء الصينيون بإخبارنا أن المواد التي تصنع منها هذه العازلات موجودة في تربتنا ، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشدونا إليها في بلادنا! ..

علماء لصين درسوا طبيعة أرضنا في البحر المتوسط إنني لم أدهش للخبر .. لأنني لما نعتبت إلى «نواكشوط» عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التي تغذي العاصمة تأتي من آبار جوفية اكتشفها الصينيون ، وقاموا بمد أنابيبها إلينا ، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادئ خيرات أرضنا على المحيط الأطلسي ..

قلت لنفسي : إنني أعرض الدعوة الإسلامية كلاماً ، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملاً .. وخامرني حزن عميق ..

ومضيت أتابع ما قرأته في موضوع العازلات الكهربائية ففوجئت بأمر آخر ، لقد تكلم عالم مصري هو الدكتور عصام حسن يقول : إن مادة الكولين التي تنتج العوازل المطلوبة موجودة في سيناء وفي كلابشة ، وإن إمكانات استخدامها قدمت

إلى الإدارة المصرية من سنين طويلة ، وهى إلى الآن حبيسة أدراج بعض الرؤساء !  
قال : وإن العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة إلا من كتابات وبحوث العلماء  
المصريين التى نشروها فى الخارج !

لقد صدقت هذا التعليق ، وأدركت أن الحنة ليست جهلنا ، وإنما هى تبلد بعض  
الرؤساء أو هى ما أشرت إليه فى إجابة سابقة ، انفصال العلم عن الحكم فى أغلب  
البلاد الإسلامية .

فالأمر كما قيل :

إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم !

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئى يقطع دورة الإحساس فى الكيان  
الإسلامى العام ، ويقعد الأمة عن أداء رسالتها الكبرى .. ذلك لو بقى لدينا شعور  
بأننا نحمل للعالم رسالة كبرى ..

إن الوهن الذى حل بالمسلمين دؤخهم ، وجعل أبصارهم عند مواطني أقدامهم .  
ولكى نطمح فى استماع الناس إلينا يجب أن نقول ما يعقل ! أو نعقل ما قيل لنا  
فى كتابنا ونكون نموذجًا حسنًا له ..

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقول بعض «العلماء» : الحاكم يعضى فى  
طريقه دون اكتراث بالشورى ! لأنها غير ملزمة له ؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من  
هذا اللغو ..

هل من التصور المحترم للإسلام أن يقال فى حكومته : إنها حكومة الحزب  
الواحد ؟ ..

إن أرقام التجسس الأمريكية صورت الطائرة الكورية التى أسقطت قريبًا من قاعدة  
عسكرية روسية ، ولا يزال بعض علمائنا يحارب التصوير بضراوة ، ويراه وثنية ! ..  
وبعضهم حكم بأن وصول الأمريكين إلى القمر خبر آحاد ، لا يفيد العلم ، وأن  
الأمر إشاعة ..

ولنترك هذا الهزل إلى أفة تחדش انكر الدينى ! إن مناقشة السند أو التمهيص  
النظري للحكم المروى أساس الحكم فى القضايا المعروضة ، أما ملاحظة الآثار  
الاجتماعية عند ترجيح اجتهاد على اجتهاد فلا يلتفت إليها ..

ومن هنا استبعد رأى ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى ، ورفض الآثار  
المرتبة عليه ..

واستبعد رأى أبى حنيفة فى أن المسلم يقتل فى الذمى أو أن المرأة تبأشر  
عقدها ، وكان العملة عند المستبعدين مجرد النظر فى قواعد الاستدلال ، أما  
استقصاء الأبعاد الاجتماعية لهذه الأحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال ..

ونحن لا نهون من قيمة الاستدلال فى القضايا الاجتهادية ، وإنما ندعو إلى  
احترام التقاليد المستقرة فى بيئات كثيرة مادام لا يصادمها نص ، كما نرفض  
التشبث باجتهاد ما إذا كان يعوق سير الدعوة الإسلامية ، فلا وزن لاجتهاد فرعى  
يعترض انتشار الأصول والأركان ..

وإذا رأينا أن الأوربيين يقبلون الإسلام لو سمحنا للمرأة بالقضاء فى الدماء  
والأغراض ، وولاية المناصب العامة فليدخلوا فى الإسلام ! وليعلموا بمذهب ابن  
حزم ! أليس ذلك خيرًا لنا ولهم ؟

وقد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة بعد ما اقتحمت دار  
الإسلام من أقطارها ، ومن أيجديات الجهاد العلم بكل ما أودع الله من قوى فى  
أرجاء البر والبحر والجو ، إن هذا العلم الضرورى يسبق علومًا كثيرة ظهرت أيام  
الترف والتفوق ، بل لقد أمست علوم اللغة العربية من فروض العين على المثقفين ،  
بعد ما تدرجت هذه اللغة ، وأسقطت مكانتها عن عمد ..

ومن التناق أو الجبن شغل المسلمين بنوافل علمية أو عملية قبل استكمال  
الفروض المهمة ..

بناء الأمة الإسلامية من جديد يفرض على الساسة والدعاة والفقهاء أن يمعنوا  
النظر ، ويطلبوا التفكير ، وأن يحاربوا بجهد متساو الغزو الثقافى الوافد من الخارج  
والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل ..

وللأخلاق قصة لا يجوز إغفالها .. هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة الله ،  
أو من صدق عقيدة التوحيد ، أبحث عنها فى سلوك خاصة وعامة فلا أجدها ..

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف الله . ويسترضى الناس ولا  
يسترضى الله ، ويتوكل على الناس ولا يتوكل على الله ، هل أستطيع وصف هذا  
المخلوق بأنه مسلم !؟

وهناك جملة أخلاق تقوم على نحو النفاق وتزكية السرية وتنضبط بها الأعمال والأحوال، نبه إليها النبي العظيم الذي قال: «بعثت لأتصم مكارم الأخلاق»، إنه أحصى أمارات النفاق في الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة ونكث العهود والفجور في الخصومة! ماذا يقول المسلم؟.. إذا كانت مجتمعات أخرى أحرص منا على الصدق والأمانة والوفاء والسماحة؟..

ولقد رأيت نظافة القرى والمدن في أم شتى، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مشاتها وركابها وألقيت نظرة خاطفة على بلادنا ثم شعرت بغصة..

لا أدري ماذا حدث لنا؟ إننا نموت ونميت ديننا معنا!

ورأيت عمالاً يكرهون الإتقان، وموظفين يكرهون الخدمة العامة، ورؤساء يشبعون مركبات النقص أو عقد الوضاعة وينظرون إلى الجماهير من أعلى.. وهم ألهم وعشيرتهم..

إن قضايا الأخلاق أخطر من قضايا أخرى لاسيما والخلق عندنا يتركز على الإيمان بالله، ولا يتركز على فلسفات بشرية أو مادية، وذلك يعني أن هدم الإسلام - وهو دين أكثر من تسعة أعشار العرب - لا ثمرة له إلا ضياع الأخلاق يقينا..

وعندما يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾<sup>(١)</sup>

فلا تنتظر عدالة، ولا شهادة ننية من شخص خرب القلب! والواقع أن الذين ينتقصون الإسلام ويعيثون بشعائره يهزون الأخلاق هذا، وينشئون أجيالا لا تصلح في حرب ولا سلام..

وليس بقائم بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خراباً..

يجب أن تقوم للإسلام أمة تعمل به، وتعطي صورة صادقة له.. ومن السفاهة تكليف العالم أن يدرس الإسلام مجرداً من سيرة معتنقيه.. وتحمله مسئولية فلسفية عن كفره وإيمانه بعد تلك الدراسة العجيبة..

وأرى أن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلفة بتكوين هذه الأمة الجديدة، وإنصاف رسالة الإسلام من هذا البلاء..

(١) النساء: ١٣٥.

ومع تمام هذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكني القارات المعمورة، واعتقادي أن النجاح سيكون حليفنا، فإن لصاحب الحق مقالاً، وللحقيقة سناؤها وإغراؤها، وقد سئم الناس ما صحب الحضارة الحديثة من جفاف وإباحية، ومن شره ووحشية، ومن بعد عن الله وكفر بلاقائه..

وفى حقائق الإسلام، وشعب الإيمان الجامعة الجليلة ما يغنى ويستحق كل حفاوة..

وفى لقائي ببعض الكبار الذين أسلموا رأيت أن الجانب العاطفي من الإسلام هو الذي اجتذب الانتباه، أو المنطق العقلي للقرآن الكريم، أي أن القوم ينشدون ما ينقصهم..

وهنا ألقت النظر إلى أن بالإسلام أصولاً صلبة، وفروعاً مرنة، وفيه أقوال وآراء نسبتها إلى الناس أقرب من نسبتها إلى رب الناس، والدعاة الراشدون يعرفون واجبههم بإزاء هذا كله..

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن في قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرماً، وأن السكينة لا تنقطع بحدماً، كما هو مقرر في كتب الكلام عندنا..

أو ليذهب آخر ليقول: لا تقيدوا الحاكم بالشورى، وليس يجب عليه ذلك..

أو يذهب آخر فيقول: لا بد من ضرب النقاب على وجه النساء وحسهن في البيوت أغلب العمر، فلا تتعلم ولا تعبد ولا تمشي في الأسواق..

إن أصول الإسلام ومعاهد العبادات والأخلاق هي التي يدعى إليها، والناس يتخيرون بعد ما يعجبهم من تفاسير ووجهات نظر..

وفى رأي أن النموذج العلمي الذي يقدمه المسلمون هو الأساس الأول لنجاح الدعوة..

ثم إن الدول الإسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتوحي الحدود بينها، ولا بأس أن يبدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكوين اتحادات إقليمية كما تم بين دول الخليج، ودول وادي النيل، وما يقترح بين دول المغرب الكبير.. على أن يكون الهدف الأهم تجميع المسلمين كافة في كيان واحد، أو جسد روحه الإسلام..



## ١٠٠. إلى أي مدى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة؟

كان رجال التعليم والتربية في اليابان أيقاظاً عندما اتصلت بلادهم بأوروبا في القرن الماضي، أو قل: كان حراس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعي الغربي، فقد أعدوا لكل جديد يقبّس مكانه فوق أرضهم، ومساحتهم المادية والأدبية التي لا يعدوها، وهمنوا بصر حاد على الآثار المتوقعة حتى لا تغفل من أيديهم، أو تحرك بعيداً عن خطتهم المرسومة ..

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات ثابتة الملامح، فانتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوروبيين في عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم ..

إنهم فعلوا ولم يفعلوا وقادوا ولم يتفادوا ..

وكانت هناك أديان بينها فجوات، البردية من ناحية، والشنتوية من ناحية أخرى .. والأتباع المخلصون تنقسمهم وجهات نظر شتى، ومذاهب فقهية كثيرة - إن صح التعبير - بيد أن لونا من المعاشية السلمية فرض نفسه على الجميع فإذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية يتعاونون على إنهاض بلدتهم ورفع لوائهم، وتم لهم ما أرادوا ..

إن للنجاح الحقيقي أساساً لا يتغير .. هو النفس الإنسانية، فإذا استقر هذا المهادر لم يبق شيء ثوبال، وقد كان محمد ﷺ أعرف إنسان بهذه الحقيقة، فاتجهت جهوده كلها قبل أي شيء إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه وتطمئن إلى قراره ومساره، وهو يعرف أن هذا الإنسان سوف يفرض نفسه على بيئته يوماً عندما تتزاح العواقل من أمامه ..

ولم يحاول قط الاصطدام بالأسوار الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم .. ومن ثم ترك الأصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة، لم يهشم واحداً منها في معركة طائشة، بل الثابت في سيرته أنه طاف في عمره في السنة السابقة حول الكعبة والأصنام جاثمة حولها، وفي الأوضاع التي كانت عليها من بدء الدعوة ..

أكان ذلك بقيا عليها، أو توقيراً لها؟ .. كلا .. لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ريب فيه، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذاً ..

ومن الذي يقوم بهذا التحويل الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل، وتربوا على التوحيد الحق ..

لقد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الأصنام، وأنها لا تثبت في معركة معه .. ألم يتلوا قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (١)

فليتربصوا بهذه الأصنام يوماً لا ريب فيه دون استعجال، وليهتّموا بداخلهم يتعهدونه فيوجود الآتي مع الغد ..

ويتساءل أناس: ما هذا التعهد الشاغل المهم؟ ونقول: هو تعهد الوعي ليكون صحيحاً. والباطن ليكون نظيفاً، والخلق ليكون عظيمًا، والإخاء ليكون وثيقًا، والهدف ليكون واضحاً .. فالأتم لا تبني بالصور وإنما تبني بالحقائق ..

إن المتفكرين أحسن الناس للمراسم، وقلوبهم هواء .. أما المؤمنون فإن نضج نفوسهم .. بركة سرائرهم، هما سر عظمتهم، وسر مان الأمور إليهم ..

ولا يعرف في تاريخ الهداة رجل مثل محمد ﷺ أحسن صوغ النفوس وإيقاظ ملكاتها ودارتها بأعظم ما فيها من طاقة، وجعلها تدفع ولا تندفع، وتؤثر ولا تتأثر ..

فهل نحن الدعاة المنتمين إليه نفهم هذا المنهج، ونلتزم منطقهم؟ .. إن الموجهين اليابانيين كانوا أذكى منا وأقدر في مواجهة المشاكل ومزيمه الصعاب ..

نظرت بحسرة إلى «الخلق الفردي» في الإفادة من التقدم الصناعي العالمي، ما هذا؟ هذا شاب يقود سيارة فارهة، تنهب الأرض نهبا، يتزل منها بأناقة وكبرياء، ويرمق الشارع بنصرة استعلاء، يشتري بعض السلع ثم يمتطي سيارته ويعود من حيث جاء ..

إنه ما زل من الناحية الإنسانية شيئاً عن الأيام التي كان سلفه يمشي فيها حافياً أو منتعلاً .. وما تتصرف به أمته ولا أسرته ..

وهذا عامل قادم من وادى النيل ماذا حمل إلى وطنه؟ «فيديو»! إن المسكين جمد عرق جبينه وأرهاق أعصابه في هذا الجهاز المسلى، وسيحمله منتصب القامة والهامة لأنه أصبح به أرفع مستوى، وما درى المسكين أنه بما يحمل نقص وما زاد ..

العرب في الحضارة الحديثة شعوب مستهلكة تتنافس الدول الصناعية على إلهاؤها بالأدوات البراقة والمخترعات المريحة .

والدعاة لا يدرون كيف يستنفذون أمتهم المخروبة من هذه الأوضاع القتالة؛ لأنهم لا يتجهلون إلى داخل الإنسان المسلم، يحركون ماتوقف من أجهزته، وينيرون ما أظلم من مصابيحهم .. إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل ..

إن قدرة أمة ما على الصدارة في الأرض، أو توريث أمة ما قيادة العالم كما يعبر القرآن الكريم، لا يجيء بين عشية وضحاها، ولا يتم بخصائص سهلة، لا أن له صلاحيات معينة أو ما إليها الوحي في قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١)

لا تظن المدى قريباً بين ما قصه القرآن الكريم عن ذل بنى إسرائيل قديماً، وبين فكينهم في الأرض بعد ذلك . عندما توعد فرعون قوم موسى، وجاء على لسانه .. ﴿ سَنَقْتِل أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (٢) . قال موسى لقومه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

ومرت السنين، وتغيرت الأوضاع ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ (٤) إن ذلك كله لم يتم في أيام قلائل، إنه استغرق عشرات السنين، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يرزق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية ..

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصقل والتهديب يد صناع، ومضت بهم في طريق المجد نبوة ملهمة، نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورياحين ..

نعم إن الإسلام حول العرب إلى ربانيين بعد ما كانوا شياطين، وجعلهم نماذج تحتذى في ميادين العبادات والمعاملات، فكانت قياتهم خيراً وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية أخارقة ..

(١) الأنبياء: ١٠٥ . (٢) الأعراف: ١٢٧ . (٣) الأعراف: ١٢٨ . (٤) الأعراف: ١٣٧ .

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد، لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الآخرون ملأه! بل الذى حدث أن الشعوب تنفست الصعداء، ورأت أن ما جد في ربوعها أولى بالتقدير والاحترام، أو أولى بالرعاية والحماية .

لكن عرب اليوم على غرار آخر، ودعك من التخلف الصناعى والحضارى، ولننظر إلى قضايا اجتماعية وأخلاقية هي من صميم حياتنا الداخلية ..

ما تقاليد الزواج عندنا؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة .. وأن أسرة أعرق من أسرة .. وأن مكانة امرئ ما تتبع من نسبه .. وقد ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهي يؤكد أن المرأة من بنى أمية أو بنى هاشم لا يرقى إلى مستواها الرجل من عرق آخر ..

أليست هذه هي التفرقة العنصرية التي جاء الإسلام لمحوها؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير إلى العالم؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزع أن ذلك دينه؟ .. وهل يقبله أهل الأرض منا؟ ..

وفي أقطار كثيرة رأيت الشباب يثمن من غلاء المهور، وأحسست أن العواطف هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام، فهل هذا العجز في علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصراً إسلامياً، وهل رسالة أمتنا الاجتماعية تصعب الطيبات وتيسر الخبائث، وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك؟ ..

ولا أمضى في سرد أمثلة لتعثر قضايانا الاجتماعية، وإنما أمد البصر لقضايانا الخلقية التي لن نستورد لبحثها خبراء أجانب ..

شكالى شاب ناشئ موهوب، وعورة الطريق أمامه، فقلت له يائسا: امض بمواهبك إلى الأمام دون انتظار عون من أحد .. بل توقع الكبد والصد لأن البيئات التي نعيش فيها لا ترحب بالموهوبين، ولا تؤتي كل ذى فضل فضله .. لا كارهة، أو مغلوبة ..

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه، وقلما يلتفت إلى الآخرين ليسدى عونا، أو يقدم يدا ..

والطريقة التي يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس وسنائها، فالأجرب عندما يرتدى ثوبا غالياً جميلاً قد يستر علة حيناً، بيد أن ذلك لا يشفى سقامه . هكذا نرى الذين يؤدون مراسم العبادات، ولا يهذبون أنفسهم ..

الفارق بين الإنسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته الخاصة ولا يحس إلا ذاته! أما الإنسان فالمفروض أنه يحيا في مجتمع له ضوابطه وأدابه،



## الفهرس

- مقدمة ..... ٣
- ١ - ما الإسلام ؟ ولماذا سمي كذلك ؟ ..... ٥
- ٢ - لماذا كان الإسلام خاتم الأديان ؟ ..... ٩
- ٣ - هل يستطيع الإنسان السوى الرشيد أن يعيش بلا إسلام ؟ ..... ١٢
- ٤ - كيف بنى الإسلام على خمس ؟ وما هي ؟ ولماذا خمس بالذات ؟ ..... ١٦
- ٥ - ما مكان التصوف في الإسلام ؟ ..... ٢٠
- ٦ - ما موقف أهل الكتاب في الإسلام ؟ ..... ٢٤
- ٧ - هل الإيمان بالأنبياء الأولين ولكتب السابقة ضروري في الإسلام ؟ وما حكمة ذلك ؟ ..... ٣٠
- ٨ - ما مفهوم الإسلام عن الحياة والموت ؟ ..... ٣٥
- ٩ - ما فكرة الإسلام عن البعث والجزاء ؟ ..... ٣٩
- ١٠ - ما البرزخ ؟ وما دلالاته في الإسلام ؟ ..... ٤٣
- ١١ - ما طبيعة الجزاء الأخروي ؟ هل هو روى أم مادي ؟ ..... ٤٧
- ١٢ - ماذا عن القضاء والقدر ؟ وكيف نوفق بين الآيات التي تدل على أن الإنسان مختار والأخرى التي تدل على أنه مجبر ؟ ..... ٥٢
- ١٣ - ما دور المسجد في الإسلام ؟ ..... ٥٧
- ١٤ - لماذا كانت الصلوات خمساً في اليوم ؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة ؟ ..... ٦١
- ١٥ - ماذا يرمز إليه الوضوء ؟ ولماذا لا تصح الصلاة إلا به ؟ ..... ٦٥
- ١٦ - ما حكمة الحج ؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهي بناء من حجر ؟ ..... ٦٩
- ١٧ - ما هي دار الحرب ؟ وما هي دار الإسلام ؟ ..... ٧٣
- ١٨ - ما حقيقة الحرب والسلم في الإسلام ؟ ..... ٧٧
- ١٩ - لماذا حمل الرسول السيف ؟ ولم يكتف بالإقناع ؟ ..... ٨٢

- ٢٠ - هل الجهاد مقصور على الدفاع أم يتجاوز ذلك لإكراه الناس بالقوة ..... ٨٦
- ٢١ - هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة ؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها ؟ ..... ٩٠
- ٢٢ - ما معنى أن الله جعل المسلمين أمة وسطاً ؟ ..... ٩٤
- ٢٣ - كيف بنى الإسلام الأمة المسلمة ؟ ..... ٩٨
- ٢٤ - كيف بنى الإسلام المسلم القوي في مواجهة متغيرات العصر ؟ ..... ١٠٢
- ٢٥ - لماذا كان الحل الإسلامي لمشاكلنا هو الأفضل والأمثل والأجمع ؟ ..... ١٠٧
- ٢٦ - ماذا صنع الإسلام لحفظ العقل والنفس والمال ؟ ..... ١١٢
- ٢٧ - ما دور الإسلام في ترشيد الضمير الإنساني ؟ ..... ١١٧
- ٢٨ - ما موقف الإسلام من العنصرية السائدة في بعض الحضارات ؟ ..... ١٢١
- ٢٩ - ما موقف الإسلام من مظاهر الحضارة الحديثة ، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها ، كالرسم والنحت والتصوير ؟ ..... ١٢٥
- ٣٠ - كيف أعن الإسلام حقوق الإنسان ؟ ..... ١٣٠
- ٣١ - هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الإسلامي وحده أم تجاه المجتمع البشري كله .. وكيف ؟ ..... ١٣٤
- ٣٢ - ما تأثير القرآن في الفكر الإنساني ؟ ..... ١٣٩
- ٣٣ - كيف ، وناذا ، وقع النسخ في القرآن ؟ ..... ١٤٤
- ٣٤ - هل الاستدلال القرآني في قضية الألوهية على الوجود أم على التوحيد ؟ ..... ١٤٩
- ٣٥ - ما أهمية القصص في القرآن ، وهل لها أصل تاريخي ، وما الحكمة في تكررها ؟ ..... ١٥٤
- ٣٦ - ما تفسير الآيات التي قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفاً مادياً ؟ ..... ١٥٩
- ٣٧ - كيف تفسر ما ذكره القرآن من أن السموات سبع والأرضين سبع مع حقائق لعلم التي ترى أن الأرض واحدة والسماء فضاء ؟ ..... ١٦٣



- ٣٨- هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك؟ وكيف تم جمعه؟ — ١٦٧
- ٣٩- ما الفارق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي؟ — ١٧٢
- ٤٠- ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم؟ — ١٧٧
- ٤١- هل الصورة التي رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية؟
- وما معنى الحديث «خلق الله آدم على صورته»؟ — ١٨١
- ٤٢- هل يؤخذ القرآن بنصه، أم على أساس الظروف التي نزلت فيها آياته؟ — ١٨٦
- ٤٣- ما حاجة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر؟ وما أثر إنكاره على السلوك الإنساني؟ — ١٩٠
- ٤٤- ما أثر الإيمان على الأخلاق والسلوك والضمير، على ضوء ما يحدث في الدول المتقدمة التي تأخذ بالعقل ونتائج العلوم فقط؟ — ١٩٥
- ٤٥- لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها أربعة، وما ضرورتها؟ — ١٩٩
- ٤٦- ما مدى حرية الفكر في الإسلام وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد؟ — ٢٠٣
- ٤٧- ما الاجتهاد، وهل هناك ضرورة لفتح بابه، ولماذا؟ — ٢٠٨
- ٤٨- ماذا عن تجديد الفكر الديني في الإسلام؟ — ٢١٣
- ٤٩- ما مكانة الفقه الإسلامي في الإسلام كله؟ — ٢١٧
- ٥٠- لماذا يجب أن يكون الفقه الإسلامي المصدر الأساسي للتشريع؟ — ٢٢١
- ٥١- ما معنى الإجماع؟ وما مكانته في الإسلام؟ — ٢٢٧
- ٥٢- ما نظام الحكم في الإسلام؟ وهل الأمة مصدر السلطة فيه؟ — ٢٣١
- ٥٣- ما المعالم الأولى للدولة الإسلامية؟ — ٢٣٦
- ٥٤- ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة؟ — ٢٤٠
- ٥٥- كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟ — ٢٤٤
- ٥٦- يوجب الناس من الحكم الديني، وعدة الخلافة! فهل هناك ما يدفع هذا الوجمل؟ — ٢٤٨
- ٥٧- متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟ — ٢٥٢

- ٥٨- ما الضرائب في الإسلام، وما نظامها؟ — ٢٥٦
- ٥٩- كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادي في المجتمع؟ — ٢٦٠
- ٦٠- ما موقف الإسلام من نظام المصارف الحالي، وما البديل الذي يقدمه؟ — ٢٦٤
- ٦١- ما هي حدود الكسب الحلال في التجارة؟ وكيف يضع الشارع حداً لأرباح التجار؟ — ٢٦٦
- ٦٢- ما دام الدين واحداً فلماذا تتعدد حركات التجديد وتكثر مناهج المصلحين؟ — ٢٧٠
- ٦٣- ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معينة؟ — ٢٧٥
- ٦٤- هل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونأخر الولاء للدين؟ — ٢٧٩
- ٦٥- أصحح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟ — ٢٨٣
- ٦٦- يدرس الآن في بعض الجامعات أن القومية العربية هي العامل الأول في نجاح الفتح الإسلامي وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة في هذا القول؟ — ٢٨٧
- ٦٧- ألا يمكن ردم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الأمة رد الغارات المتتابة عليها؟ — ٢٩٣
- ٦٨- ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟ — ٢٩٨
- ٦٩- ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسماً وما مغزاها؟ — ٣٠٣
- ٧٠- هل من شرح وجيز لأسماء الله الحسنى؟ — ٣٠٨
- ٧١- طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟ — ٣١٦
- ٧٢- لماذا أوصى الإسلام بصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة؟ — ٣٢١
- ٧٣- ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟ — ٣٢٦
- ٧٤- ما الحكمة في قيام الليل؟ وكيف يكون؟ — ٣٣٠

- ٧٥- كيف ، ولماذا اختيار الأذان للصلاة ، ولماذا لم يأت عن طريق الوحي مباشرة ؟ ٣٣٥
- ٧٦- ما حقيقة الصوم وما حكمته ؟ ٣٣٩
- ٧٧- في المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباعدة أو متناقضة ! فلم هذا ؟ ٣٤٥
- ٧٨- ما موقف الإسلام من اختلاط الجنسين ؟ ٣٤٩
- ٧٩- ما موقف الإسلام من تحديد النسل ؟ ٣٥٤
- ٨٠- لماذا حرم الإسلام الخمر ؟ وما عقوبتها ؟ ٣٥٩
- ٨١- التدخين عادة شائعة ؟ فهل للدين رأى فيها ؟ ٣٦٤
- ٨٢- ما حكمة الزكاة ؟ وما نصابها ؟ ٣٦٨
- ٨٣- ما العلاقة بين الإسرائاء وبنى إسرائيل ؟ ٣٧٢
- ٨٤- لماذا كانت قبلة العالم في أرضنا ؟ ٣٧٩
- ٨٥- هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق وجعلها نصف الرجل في الميراث والشهادة ؟ ٣٨٦
- ٨٦- ما موقف الإسلام من المرأة في ضوء الأوضاع السائدة في مجتمعنا ؟ ٣٩٣
- ٨٧- ما أبعاد النشاط الاجتماعي للمرأة على ضوء الاجتهاد الفقهي ؟ ٣٩٨
- ٨٨- ما نظرة الإسلام إلى الأسرة ، وما عمل المرأة في بنائها ؟ ٤٠٣
- ٨٩- يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة فما قيمة هذا الرأى ؟ ٤٠٨
- ٩٠- يرى البعض أن هناك ملكة في عالم الغيب تتكون من الأقطاب والأوتاد... إلخ تؤثر في عالم الشهادة ، فما قيمة هذا الرأى ؟ وما مصادر المعرفة في هذه القضايا وأمثالها ؟ ٤١٥
- ٩١- لم حرم الإسلام لحومًا معينة ، وهل لذلك حكمة ؟ ٤٢٢
- ٩٢- هل توجد صحوة إسلامية معاصرة ؟ وما أبعادها ؟ ٤٢٨

- ٩٣- ما مكانة العمل والعلم في الإسلام ؟ وهل هما قاصران على العمل العبادى والعلم الدينى ؟ ٤٣٤
- ٩٤- لماذا لم يحرم الإسلام الرق كما حرم الخمر والربا ؟ وما موقفه الحقيقى من هذه القضية ، وهل يجوز للمسلمين فى حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقاً ؟ ٤٣٩
- ٩٥- ما موقف الإسلام من الحضارة المعاصرة ؟ وهل يمكن القول بأن للإسلام حضارة خاصة يدعو إليها ؟ ٤٤٥
- ٩٦- هل فى استطاعة الإسلام أن يقدم حلولاً للمشكلات الكبرى التى تعاني منها الإنسانية اليوم ؟ ٤٤٩
- ٩٧- تم تفسر النكسات التى أصابت الأمة الإسلامية بدءاً من الخلاف الداخلى بين على ومعاوية حتى يومنا هذا ؟ ٤٥٥
- ٩٨- هل نجح الإسلام فى تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل ؟ ٤٥٩
- ٩٩- كيف تتصور مستقبل الإسلام فى عالم الغد ؟ ٤٦٥
- ١٠٠- إلى أى مدى يمكن أن نفتس من هذه الحضارة المعاصرة ؟ ٤٧٠